

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

وهي مكية بإجماع. وهي ثلاث وثمانون آية؛ إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ نزلت في بني سُلَيمَة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ، على ما يأتي. وفي كتاب أبي داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبي ﷺ: «أَقْرَؤُوا يَسَ على موتاكم». وذكر الآجري من حديث أم الدرداء^(١) عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يُقْرَأ عليه سورة يس إلا هَوَّنَ الله عليه». وفي مسند الدارمي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفِرَ له في تلك الليلة» خرجه أبو نعيم الحافظ أيضاً. وروى الترمذي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ومن قرأ ﴿يس﴾ كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» قال: هذا حديث غريب، وفي إسناده هارون أبو محمد شيخ مجهول؛ وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح حديث أبي بكر من قبل إسناده، وإسناده ضعيف. وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في القرآن لسورة تَشْفَعُ لقارئها ويُغْفَرُ لمستمعها. ألا وهي سورة يس تُدْعَى في التوراة المِعمَّة» قيل: يا رسول الله وما المِعمَّة؟ قال: «تَعْمُ صاحبها بخير الدنيا وتَدْفَعُ عنه أهوايل الآخرة وتَدْعَى الدافعة والقاضية» قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «تَدْفَعُ عن صاحبها كل سوء وتَقْضِي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدق بها في سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رافة وألف هدى ونُزِعَ

(١) كذا في نسخ الأصل. والذي في «الدر المنثور» أبي الدرداء.

عنه كل داء وغلّ». ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مسنداً. وفي مسند الدارمي عن شهر بن حوشب قال قال ابن عباس: من قرأ ﴿يَس﴾ حين يُصبح أُعطي يُسر يومه حتى يُمسي ومن قرأها في صدر ليلته أُعطي يُسر ليلته حتى يُصبح. وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهاراً كُفي همه ومن قرأها ليلاً غفر ذنبه. وقال شهر بن حوشب: يقرأ أهل الجنة ﴿طه﴾ و﴿يَس﴾ فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردي فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس ومن قرأها في ليلة أُعطي يُسر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أُعطي يسر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرؤون شيئاً إلا طه ويس». وقال يحيى بن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة ﴿يَس﴾ ليلاً لم يزل في فرح حتى يُصبح، ومن قرأها حين يُصبح لم يزل في فرح حتى يُمسي؛ وقد حدثني من جربها؛ ذكره الثعلبي وابن عطية. قال ابن عطية: ويصدق ذلك التجربة. وذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب ﴿يَس﴾ في جام بزعفران ثم يشربه؛ حدثني أبي رحمه الله، قال حدثنا أصرم بن حوشب، عن بقة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد بن علي، قال قال رسول الله ﷺ: «القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن قرأ القرآن فقد قرأ الله ومن لم يقر القرآن لم يقر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده القرآن شافع مشفع وماجل»^(١) مصدق فمن شفع له القرآن شفع ومن محل به القرآن صدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى يا حملة القرآن

(١) قال ابن الأثير: ما حل أي خصم مجادل مصدق.

أستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبًا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالي القرآن]^(١) بلوى الآخرة ومن أستمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التَّخُوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربعة ومضر وهي سورة يس». وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له». وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات».

[١] ﴿يَسْ﴾.

[٢] ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

[٣] ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

[٤] ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

[٥] ﴿تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْ﴾ في ﴿يس﴾ أوجه من القراءات؛ قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ بإدغام النون في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة ﴿يَسِينَ﴾ بإظهار النون. وقرأ عيسى بن عمر ﴿يَسِينَ﴾ بنصب النون. وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم ﴿يَسِينَ﴾ بالكسر. وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السَّمِيعِ ﴿يَسِينَ﴾ بضم النون؛ فهذه خمس قراءات. القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأن النون تدغم في الواو. ومن يبين قال سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنما يكون الإدغام في الإدراج. وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين: إحداهما أن يكون مفعولاً ولا يصرفه؛ لأنه عنده أسم أعجمي بمنزلة هابيل والتقدير أذكر يسين. وجعله سيبويه اسماً للسورة. وقوله الآخر أن يكون مبنياً على الفتح مثل كيف وأين. وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبه بقول العرب جبر لا أفعل؛ فعلى هذا يكون ﴿يَسِينَ﴾ قسماً. وقال ابن عباس. وقيل: مشبه بأمس وحذام وهؤلاء ورقاش. وأما الضم فمشبه بمنذ وحيث وقط، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجل، لمن يقف عليه. قال ابن السَّمِيعِ وهارون: وقد جاء في تفسيرها

(١) الزيادة من «نوادير الأصول» للترمذي الحكيم.

يا رجل فالأولى بها الضم. قال ابن الأنباري: ﴿يَس﴾ وقف حسن لمن قال هو أفتتاح للسورة. ومن قال: معنى ﴿يَس﴾ يا رجل لم يقف عليه. وروي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان، وقالوا في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ أي على آل محمد. وقال سعيد بن جبير: هو أسم من أسماء محمد ﷺ؛ ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال السيد الحميري:

يا نفسي لا تمحضي بالضحج جاهدةً على المودّة إلا آل ياسينَ

وقال أبو بكر الوراق: معناه يا سيد البشر. وقيل: إنه أسم من أسماء الله؛ قاله مالك. روى عنه أشهب قال: سألته هل ينبغي لأحد أن يتسمّى بياسين؟ قال: ما أراه ينبغي لقول الله ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ يقول هذا أسمي يس. قال ابن العربي هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمّى بأسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله عالم وقادر ومريد ومتكلم. وإنما منع مالك من التسمية بـ ﴿يَاسِينَ﴾؛ لأنه أسم من أسماء الله لا يُدرى معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبد. فإن قيل فقد قال الله تعالى ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجى هو الذي تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم. وقال بعض العلماء: أفتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير، ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب أمير على الجسد؛ وكذلك ﴿يَس﴾ أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن. ثم اختلفوا فيه أيضاً؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو بلغة الحبشة. وقال الشعبي: هو بلغة طي. الحسن: بلغة كلب. الكلبي: هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم. وقد مضى هذا المعنى في ﴿طه﴾^(١) وفي مقدّمة الكتاب مستوفى. وقد سرد القاضي عياض أقوال المفسرين في معنى ﴿يَس﴾ فحكى أبو محمد مكّي أنه روي عن النبي ﷺ قال: «لي عند ربي عشرة أسماء» ذكر أن منها طه ويس أسمان له.

(١) راجع ١٦٥/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. و ٦٧/١ وما بعدها طبعة ثانية.

قلت: وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله» قاله القاضي. وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد، مخاطبة لنبه ﷺ. وعن ابن عباس: ﴿يس﴾ يا إنسان أراد محمداً ﷺ. وقال: هو قَسَم وهو من أسماء الله سبحانه. وقال الزجاج: قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان. وعن ابن الحنفية: ﴿يس﴾ يا محمد. وعن كعب: ﴿يس﴾ قَسَم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام [قال] ^(١) يا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ثم قال ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾. فإن قدر أنه من أسمائه ﷺ، وصح فيه أنه قَسَم كان فيه من التعظيم ما تقدم، ويؤكد فيه القَسَم عطف القَسَم الآخر عليه. وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قَسَم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهديته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه؛ أي طريق لا أعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه يا سيد ما فيه، وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم» انتهى كلامه. وحكى القشيري قال ابن عباس: قالت كفار قريش لست مرسلأ وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمداً من المرسلين. ﴿والحكيم﴾ المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ﴾. وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل. وقد يكون ﴿الحكيم﴾ في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم. ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجاج: على طريق الأنبياء الذين تقدموا؛ [و] قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ خبر إن و ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان؛ أي إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط مستقيم. وقيل: المعنى لمن المرسلين على استقامة؛ فيكون قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من صلة المرسلين؛ أي إنك لمن المرسلين

(١) زيادة يقتضيها المقام، ويدل عليها ما ورد في «الدر المشور» للسيوطي عن كعب.

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. صِرَاطِ اللَّهِ أي الصراط الذي أمر الله به.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحزمة والكسائي وخلف ﴿تَنْزِيلَ﴾ بنصب اللام على المصدر؛ أي نزل الله ذلك تنزيلاً. وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله: ﴿فَضَرَبَ الرَّقَابِ﴾ أي فضربا للرقاب. الباقون ﴿تَنْزِيلُ﴾ بالرفع على خبر ابتداء محذوف أي هو تنزيل، أو الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم. هذا وقرئ ﴿تَنْزِيلَ﴾ بالجر على البدل من ﴿القرآن﴾ والتنزيل يرجع إلى القرآن. وقيل: إلى النبي ﷺ أي إنك لمن المرسلين، وإنك ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا يَتْلُو﴾ ويقال: أرسل الله المطر وأنزله بمعنى. ومحمد ﷺ رحمة الله أنزلها من السماء. ومن نصب قال: إنك لمن المرسلين إرسالاً من العزيز الرحيم. و﴿العزيز﴾ المنتقم ممن خالفه ﴿الرحيم﴾ بأهل طاعته.

[٦] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

[٧] ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

[٨] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ﴿ما﴾ لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير منهم قتادة؛ لأنها نفي والمعنى: لتنذر قوماً ما أتى آباءهم قبلك نذير. وقيل: هي بمعنى الذي فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آبائهم؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقاتدة أيضاً. وقيل: إن ﴿ما﴾ والفعل مصدر؛ أي لتنذر قوماً إنذار آبائهم. ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم يندروا برسول من أنفسهم. ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا. ويجوز أن يكون هذا خطاباً لقوم لم يبلغهم خبر نبي، وقد قال الله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَنْدُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾

وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي لم يأتهم نبي. وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه. وقيل: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن عقاب الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي وجب العذاب على أكثرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بإنذارك. وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره. ثم بين سبب تركهم الإيمان فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾. قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلما أوماً إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما؛ فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غُلَّتْ يده إلى عنقه فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه. فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرههم حتى نادوه فقال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته. فقال الثالث: والله لأشدخن أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وأنطلق فرجع القهقري ينكص على عقبيه حتى خرَّ على قفاه مغشياً عليه. فقيل له: ما شأنك؟ قال شأني عظيم! رأيت الرجل فلما دنوت منه، وإذا فعل يخطر بذهنه ما رأيت فحلاً قط أعظم منه حال بيني وبينه، فواللآل والعُرَى لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾. وقرأ ابن عباس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ﴾. وقال الزجاج: وقرء ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِمْ﴾. قال النحاس: وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف. وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة؛ التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغللاً فهي إلى الأذقان، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا. ونظيره ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وتقديره وسراويل تقيكم البرد فحذف؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد؛ لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن

يكون في اليد، ولا سيما وقد قال الله عز وجل: ﴿فَهَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدي. ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلَّت يده إلى ذَقْنِه أرتفع رأسه. روى عبد الله بن يحيى أن علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماح، فجعل يديه تحت لحيته وأصقهما ورفع رأسه. قال النحاس: وهذا أجل ما روي فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعي. قال: يقال أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفع رأسها. قال النحاس: والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها. كما يقال: قَهَرْتِه وكَهَرْتِه. قال الأصمعي: يقال أكمحت الدابة إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها. ومنه قول الشاعر:

... والـرأسُ مُكَمَّحٌ^(١)

ويقال: أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعي. وقَمَحَ البعيرُ قُمُوحاً إذا رفع رأسه عند الحوض وأمتنع من الشرب، فهو بغير قامح وقَمَح؛ يقال: شَرِبَ فتَقَمَحَ وأنقَمَحَ بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيّاً. وقد قامحت إبلُك إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برُذ. وهي إبل مُقامحة وبعير مقامح وناقَة مقامح أيضاً، والجمع قِمَاح على غير قياس؛ قال بشر يصف سفينة:

ونحن على جَوانبها قُعُودٌ نَغْضُ الطرفَ كالإبلِ القِمَاحِ

والإقماح رفع الرأس وغلض البصر؛ يقال: أقمحه الغُلُّ إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه. وشهراً قِمَاح أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان سمياً بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رؤوسها؛ ومنه قَمِحتُ^(٢) السويق. وقيل: هو مثل ضربه الله تعالى لهم في أمتناعهم من الهدى كامتناع المغلول؛ قاله يحيى بن سلام وأبو عبيدة. وكما يقال فلان حمار؛ أي لا يبصر الهدى. وكما قال:

لهم عن الرشيدِ أغلالٌ وأقيادُ

(١) البيت لذي الرمة وتماه:

حذارا من الإبعاد والرأس متحج

تمور بضبيها وترمي بحوزها

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) إذا أستفه.

وفي الخبر: إن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول:

فليس كعهد الدارِ يا أم مَالِكٍ ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكهيل ليس بقائلٍ سوى العدلِ شيئاً فاستراح العواذلُ^(١)

أراد مُنَعْنَا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنى والفسق؛ وقال الفراء أيضاً: هذا ضرب مثل؛ أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وقاله الضحاك. وقيل: إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جعل في يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه، وغاضاً بصره لا يفتحه. والمتكبر يوصف بانتصاب العنق. وقال الأزهري: إن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُداً كالإبل ترفع رؤوسها. وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم. وقيل: الآية إشارة إلى ما يُفَعَّلُ بأقوام غداً في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ وأخبر عنه بلفظ الماضي. ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ تقدّم تفسيره. وقال مجاهد: ﴿مُقْمَحُونَ﴾ مغلون عن كل خير.

[٩] ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

[١٠] ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

[١١] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

كَرِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ

(١) يقول: رجع الفتى عما كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهيل، فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه. سوى العدل: أي سوى الحق.

الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر. فلما دنا من النبي ﷺ طمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية. وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمّية بن خلف، يراصدون النبي ﷺ ليلبغوا من أذاه، فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ ﴿يَس﴾ وفي يده تراب فرماهم به وقرأ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأُطْرِقُوا حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد مضى هذا في سورة ﴿سَبْحَانَ﴾^(١) ومضى في ﴿الكهف﴾^(٢) الكلام في ﴿سَدًا﴾ بضم السين وفتحها وهما لغتان. ﴿فَأَعَشَيْنَاهُمُ﴾ أي غطينا أبصارهم: وقد مضى في أول ﴿البقرة﴾^(٣). وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر ﴿فَأَعَشَيْنَاهُمُ﴾ بالعين غير معجمة من العشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

مَتَى تَأْتِيهِ تَغْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ^(٤)

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الآية. والمعنى متقارب والمعنى أعميناهم، كما قال

ومن الحوادث لا أبا لك أنني ضربت علي الأرض بالأسدأد
لا أهندي فيها لموضع تلعة بين العذيب وبين أرض مراد

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي الهدى؛ قاله قتادة. وقيل: محمداً حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدي. وقال الضحاك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا﴾ أي الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا﴾ أي الآخرة؛ أي عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي زينوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة. وقيل: على هذا ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا﴾ أي غروراً بالدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا﴾ أي تكديماً بالآخرة. وقيل: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الدنيا. ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدم في ﴿البقرة﴾^(٥) والآية رد على القدرية وغيرهم

(١) راجع ٢٦٩/١٠ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٥٩/١١ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ١٩١/١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٤) هو الحطية، وتمام البيت:

تجد خير نار عندها خير موقد

(٥) راجع ١٨٤/١ طبعة ثانية أو ثالثة.

عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القَدْرِيَّ فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقَدَر؛ فقال: يكذبون علي يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فقال: أقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ فقال أقرأ فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فقال: والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط. فقال له: يا غيلان أقرأ أول سورة ﴿يس﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين كاني لم أرها قط قبل اليوم؛ أشهد يا أمير المؤمنين أنني تائب. فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه وثبته، وإن كان كاذباً فسلط عليه من لا يرحمه وأجعله آية للمؤمنين؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه. وقال ابن عون: فأنا رأيته مصلوباً على باب دمشق. فقلنا: ما شأنك يا غيلان؟ فقال: أصابتنى دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن وعمل به. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره؛ قاله قتادة. وقيل: أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وأنفراده بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي الجنة.

[١٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردًا على الكفرة. وقال الضحاك والحسن: أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل. والأول أظهر أي نحييهم بالبعث للجزاء. ثم توعدهم بذكره كتب الآثار وهي:

الثانية - وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان. قال قتادة: معناه من عمل. وقاله مجاهد وابن زيد. ونظيره قوله: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ وقوله: ﴿يُنَبِّأُ

الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» وقال: «اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» فَأَثَارُ الْمَرْءِ الَّتِي تَبَقَّى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها: من أثر حسن؛ كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك؛ أو سييء كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملا، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستن بها. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وأبن عباس وسعيد بن جبیر. وعن ابن عباس أيضاً أن معنى «وَأَثَارُهُمْ» خُطَاهُمْ إلى المساجد. قال النحاس: وهذا أولى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إن الآية نزلت في ذلك؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد. وفي الحديث مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «يُكْتَبُ لَهُ بِرَجُلٍ حَسَنَةٌ وَتُحْطُّ عَنْهُ بِرَجُلٍ سَيِّئَةٌ ذَاهِباً وَرَاجِعاً إِذَا خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ».

قلت: وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة^(١) في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ آثَارُكُمْ تُكْتَبُ فَلَمْ يَتَّقِلُوا. قال: هذا حديث [حسن]^(٢) غريب من حديث الثوري. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد؛ قال: والبقاع خالية؛ قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يَا بَنِي سَلَمَةَ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ» فقالوا: ما كان يسرنا أنّا كنا تحولنا. وقال ثابت البناني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت فحبسني فلما أنقضت الصلاة قال: مشيت مع النبي ﷺ وأسهرت، فحبسني فلما أنقضت الصلاة قال: «أما علمت أن الآثار تُكْتَبُ» فهذا احتجاج بالآية. وقال قتادة ومجاهد أيضاً والحسين: الآثار في هذه الآية الخطأ. وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الآثار هي الخطأ إلى الجمعة. وواحد الآثار أثر ويقال أثر.

(١) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار.

(٢) الزيادة من «صحيح الترمذي».

الثالثة - في هذه الأحاديث المفسرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل، فلو كان بجوار مسجد، فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد؟ اختلف فيه؛ فروي عن أنس أنه كان يجاوز المحدث إلى القديم. وروي عن غيره: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً. وكره الحسن وغيره هذا؛ وقال: لا يدع مسجداً قريبه ويأتي غيره. وهذا مذهب مالك. وفي تخطي مسجده إلى مسجده الأعظم قولان. وخرج ابن ماجه من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يُجمع^(١) فيه بخمسائة صلاة».

الرابعة - «دياركم» منصوب على الإغراء أي ألزموا و «تكتب» جزم على جواب ذلك الأمر. ﴿وَكُلَّ﴾ نصب بفعل مضمر يدل عليه ﴿أَخْصَيْنَاهُ﴾ كأنه قال وأحصينا كل شيء أخصيناه. ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى، ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل. وهو قول الخليل وسيبويه. والإمام الكتاب المقتدى به الذي هو حجة. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ. وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال.

- [١٣] ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ .
- [١٤] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ .
- [١٥] ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكِيدُونَ﴾ .
- [١٦] ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ .
- [١٧] ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ .
- [١٨] ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .
- [١٩] ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

(١) يجمع (بالتشديد) من التجمع، أي يصلى فيه الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [خطاب للنبي ﷺ أمر أن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية]^(١) هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردي. نسبت إلى أهل أنطبيس وهو أسم الذي بناها ثم غُيِّرَ لما عُرِّبَ. ذكره السهيلي. ويقال فيها: أنطاكية بالتاء بدل الطاء وكان بها فرعون يقال له أنطيوخس بن أنطيوخس يعبد الأصنام. ذكره المهدوي وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب. فأرسل الله إليه ثلاثة: وهم صادق، وصدوق، وشلوم هو الثالث. هذا قول الطبري. وقال غيره: شمعون ويوحنا. وحكى النقاش: سمعان ويحيى ولم يذكرنا صادقاً ولا صدوقاً. ويجوز أن يكون ﴿مَثَلًا﴾ و ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ مفعولين لا ضرب، أو ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾ أي أضرب لهم مثل أصحاب القرية فحذف المضاف. أمر النبي ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل. قيل: رسل من الله على الابتداء. وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما. ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي فقوّينا وشدّدنا الرسالة ﴿بِثَالِثٍ﴾. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ بالتخفيف وشدّد الباكون. قال الجوهري: وقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يخفف ويشدّد، أي قوّينا وشدّدنا. قال الأصمعي: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلّمس:

أَجْدُ إِذَا رَحَلَتْ ^(٢) تَعَزَّزَ لَحْمُهَا وَإِذَا تُشَدَّدَ يَنْسَعِيهَا لَا تَنْبَسُ

أي لا ترغو؛ فعلى هذا تكون القراءةان بمعنى. وقيل: التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ومنه ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ والتشديد بمعنى قوّينا وكثّرنا. وفي القصة أن عيسى أرسل

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي.

(٢) وفي «اللسان»: أجد إذا ضمرت. ويروى في غيره: عنس إذا ضمرت.

إليهم رسولين، فلقيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب ﴿يس﴾ فدعوه إلى الله وقالوا: نحن رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى. وكان له أبن مجنون. وقيل: مريض على الفراش فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحاً، فأمن الرجل بالله. وقيل: هو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشفيا كثيراً من المرضى، فأرسل الملك إليهما - وكان يعبد الأصنام - يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتكما؟ قالوا: نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده. فهَمَّ الملك يضربهما. وقال وهب: حبسهما الملك وجلدتهما مائة جلدة، فأنتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثاً. قيل: شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، وأستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته؛ ثم قال يوماً للملك: بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما ما وراءهما. فقال: إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما. قال: فلو أحضرتهما. فأمر بذلك؛ فقال لهما شمعون: ما برهانكما على ماتدعيان؟ فقالا: نبرئ الأكمه والأبرص. فجيء بغلام ممسوح العينين؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما فأنشق موضع البصر، فأخذا بندقيتين طيناً فوضعاها في خديه، فصارتا مقلتين يبصر بهما؛ فعجب الملك وقال: إن هاهنا غلاماً مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما؟ فدعوا الله علانية، ودعاه شمعون سراً، فقام الميت حياً، فقال للناس: إني مت منذ سبعة أيام، فوجدت مشركاً، فأدخلت في سبعة أودية من النار، فأحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم فتحت أبواب السماء، فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله. فقالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ فقال: نعم وهو أفضلهم. فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، فأثر قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فأمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون. وحكى القشيري أن الملك آمن ولم يؤمن قومه، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار.

وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبي الله إنا لا نعرف أن نتكلم بالسنتهم ولغاتهم. فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلّم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله: ﴿وَأَيُّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فقالوا جميعاً ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿تَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَتَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿يَأْمُرُ بِهِ وَلَا [مِنْ شَيْءٍ]﴾^(١) ينهى عنه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعواكم الرسالة؛ فقالت الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإن كذبتُمونا ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ في أن الله واحد ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم. قال مقاتل؛ حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم. ويقال إنهم أقاموا يندرونهم عشر سنين. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن إنذارنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال الفراء: لقتلنكم. قال: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة: هو على باب من الرجم بالحجارة. وقيل: لنشتمنكم؛ وقد تقدّم جميعه^(٢). ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: هو القتل. وقيل: هو التعذيب المؤلم. وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسُلخ والقطع والصلب. فقالت الرسل: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم أي حظكم من الخير والشر معكم ولازمٌ في أعناقكم وليس هو من شؤمنا. قال معناه الضحّاك. وقال قتادة: أعمالكم معكم. ابن عباس معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم. الفراء: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد. وقرأ الحسن. ﴿أَطْيَرُكُمْ﴾ أي تطيركم^(٣). ﴿أَتَيْنَ دُكْرُتُمْ﴾ قال قتادة: إن ذكرتم تطيرتم. وفيه تسعة أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة ﴿أَتَيْنَ دُكْرُتُمْ﴾ بتخفيف الهمزة الثانية. وقرأ أهل الكوفة ﴿أَإِن﴾ بتحقيق الهمزتين والوجه الثالث ﴿أَلَا إِن دُكْرُتُمْ﴾ بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين. والوجه الرابع ﴿أَلَا إِن﴾ بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة. والقراءة الخامسة ﴿أَلَا أَن﴾ بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف. والوجه السادس ﴿أَلَا أَن﴾ بهمزتين محققتين مفتوحتين. وحكى الفراء: أن هذه القراءة قراءة أبي رزّين.

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) راجع ٩١/٩ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) قال أبو حيان في هذه القراءة: ﴿أَطْيَرُكُمْ﴾ مصدر أطير الذي أصله تطير فأدغمت التاء في الطاء. فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر.

قلت: وحكاه الثعلبي عن زر بن حبیش وأبن السَّمِيع. وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بمعنى حيث. وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ بالتخفيف. ذكر جميعه النحاس. وذكره المهدوي عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهمداني ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بالمد على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة. الماجشون: ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزة واحدة مفتوحة. فهذه تسع قراءات. وقرأ ابن هرمز ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾. ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي لَأَنْ وُعِظْتُمْ؛ وهو كلام مستأنف أي إن وعظتم تطيرتم. وقيل: إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادة: مسرفون في تطيركم. يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم. وقال ابن بحر: السرف هاهنا الفساد ومعناه بل أنتم قوم مفسدون. وقيل: مسرفون مشركون، والإسراف مجاوزة الحد والمشرک يجاوز الحد.

- [٢٠] ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفِرُونَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ .
 [٢١] ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ .
 [٢٢] ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .
 [٢٣] ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ .
 [٢٤] ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .
 [٢٥] ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ .
 [٢٦] ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ .
 [٢٧] ﴿بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ .
 [٢٨] ﴿وَمَا أَتَرْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ .
 [٢٩] ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب بن مري وكان نجاراً. وقيل: إسكافاً. وقيل: قصاراً. وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب

أَبْنِ إِسْرَائِيلَ النَجَارَ وَكَانَ يَنْحَتِ الْأَصْنَامَ، وَهُوَ مِمَّنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَهُمَا سِتْمَاةٌ سَنَةٌ، كَمَا آمَنَ بِهِ تَبَعُ الْأَكْبَرِ وَوَرَقَةُ بْنُ نُوْفَلٍ وَغَيْرُهُمَا. وَلَمْ يُؤْمِنْ بِنَبِيِّ أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِهِ. قَالَ وَهَبُ: وَكَانَ حَبِيبٌ مَجْذُومًا، وَمَنْزَلُهُ عِنْدَ أَقْصَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَكَانَ يَعْكِفُ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ سَبْعِينَ سَنَةً يَدْعُوهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَرْحَمُونَهُ وَيَكْشِفُونَ ضُرَّهُ فَمَا اسْتَجَابُوا لَهُ، فَلَمَّا أَبْصَرَ الرِّسْلَ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَقَالَ: هَلْ مِنْ آيَةٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ نَدْعُو رَبَّنَا الْقَادِرَ فَيَفْرَجُ عَنْكَ مَا بِكَ. فَقَالَ: إِنْ هَذَا لَعَجَبٌ لِي، أَدْعُو هَذِهِ الْأَلْهَةَ سَبْعِينَ سَنَةً تَفْرَجُ عَنِّي فَلَمْ تَسْتَطِعْ، [فَكَيْفَ] ^(١) يَفْرَجُهُ رَبُّكُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَبَّنَا عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَهَذِهِ لَا تَنْفَعُ شَيْئًا وَلَا تَضُرُّ. فَأَمَّنَ وَدَعَا رَبَّهُمْ فَكَشَفَ اللَّهُ مَا بِهِ، كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ بَأْسٌ، فَحِينَئِذٍ أَقْبَلَ عَلَى التَّكْسِبِ، فَإِذَا أَمْسَى تَصَدَّقَ بِكَسْبِهِ، فَاطْعَمَ عِيَالَهُ نَصْفًا وَتَصَدَّقَ بِنَصْفٍ، فَلَمَّا هَمَّ قَوْمُهُ بِقَتْلِ الرِّسْلِ جَاءَهُمْ فَـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِي غَارٍ، فَلَمَّا سَمِعَ بِخَبَرِ الْمُرْسَلِينَ جَاءَ يَسْعَى، فَقَالَ لِلْمُرْسَلِينَ: أَتَطْلُبُونَ عَلَيَّ مَا جِئْتُمْ بِهِ أَجْرًا؟ قَالُوا: لَا- مَا أَجْرُنَا إِلَّا عَلَى اللَّهِ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: فَاعْتَقَدَ صِدْقَهُمْ وَأَمَّنَ بِهِمْ وَأَقْبَلَ عَلَى قَوْمِهِ فَـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أَيُّ لَوْ كَانُوا مَتَّهِمِينَ لَطَلَبُوا مِنْكُمْ الْمَالَ ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فَاهْتَدَوْا بِهِمْ. ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قَالَ قَتَادَةُ: قَالَ لَهُ قَوْمُهُ أَنْتَ عَلَى دِينِهِمْ؟! فَقَالَ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أَيُّ خَلَقَنِي. ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ وَهَذَا أَحْتِجَاجٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ. وَأَضَافَ الْفِطْرَةَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ تَوْجِبُ الشُّكْرَ، وَالْبَعْثُ إِلَيْهِمْ: لِأَنَّ ذَلِكَ وَعِيدٌ يَقْتَضِي الزَّجْرَ؛ فَكَأَنَّ إِضَافَةَ النِّعْمَةِ إِلَى نَفْسِهِ أَظْهَرَ شُكْرًا، وَإِضَافَةُ الْبَعْثِ إِلَى الْكَافِرِ أَبْلَغُ اثْرًا. ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يَعْنِي أَصْنَامًا. ﴿إِنْ يُرِذَّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يَعْنِي مَا أَصَابَهُ مِنَ السَّقَمِ. ﴿لَا تَغْنِي عَنِّي شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ يَخْلُصُونِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ. ﴿إِنِّي إِذَا﴾ يَعْنِي إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ خَسْرَانٍ ظَاهِرٍ. ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: خَاطَبَ الرِّسْلَ بِأَنَّهُ

(١) الزيادة من تفسير الألوسي.

مؤمن بالله ربهم؛ ومعنى ﴿فَاسْمِعُون﴾ أي فاشهدوا أي كونوا شهودي بالإيمان. وقال كعب وهب: إنما قال ذلك لقومه إنني آمنت بربكم الذي كفرتم به. وقيل: إنه لما قال لقومه ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعنا عدونا، فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه. قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ^(١) من دبره، وألقي في بئر وهي الرَسُّ وهم أصحاب الرَسِّ. وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة. وقال السدي رموه بالحجارة وهو يقول اللهم أهد قومي حتى قتلوه. وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، ورددوا فوقه التراب فمات ردماً. وقال الحسن: حرقوه حرقاً، وعلّقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي. وقال القشيري: وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها. وقيل: نشره بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا في الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فلما شاهدها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي بغفران ربي لي؛ فما مع الفعل بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف. ويجوز أن تكون استفهاماً فيه معنى التعجب، كأنه قال: ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي؛ قاله الفراء. واعترضه الكسائي فقال: لو صح هذا لقال بِم من غير ألف. وقال الفراء: يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهام وأنشد فيه أبياتاً. الزمخشري: ﴿بِمَ غَفَرَ لِي﴾ بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت. المهدوي: وإثبات الألف في الاستفهام قليل. فيوقف على هذا على ﴿يَعْلَمُونَ﴾. وقال جماعة: معنى قِيلَ ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وجبت لك الجنة؛ فهو خبر بأنه قد استحق دخول الجنة: لأن دخولها يستحق بعد البعث.

قلت: والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له أدخل الجنة. قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ على ما تقدم في ﴿آل عمران﴾^(١) بيانه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وقرئ ﴿مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته. الثاني تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله. قال ابن عباس: نصح قومه حياً وميتاً. رفعه القشيري فقال: وفي الخبر أنه عليه السلام قال في هذه الآية «إنه نصح لهم في حياته وبعد موته» وقال ابن أبي ليلى: سبق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين؛ علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصديقون. ذكره الزمخشري مرفوعاً عن رسول الله ﷺ. وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في أفدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفره عبدة أصنام، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النعمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن. قال الحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء. وقيل: الجند العساكر؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة. قال معناه ابن مسعود وغيره. فقله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ على من كان قبلهم.

(١) راجع ٢٦٨/٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الزمخشري: فَإِنْ قُلْتَ فَلِمَ أَنْزَلَ الْجُنُودَ مِنَ السَّمَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ وَالْخَنْدَقِ؟ فَقَالَ: ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ وقال: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾. بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ.

قلت : إنما كان يكفي ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاده من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً ؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ . ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك . وما كنا نفعل لغيرك . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قراءة العامة ﴿ وَاحِدَةً ﴾ بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع وشيبة والأعرج ﴿ صَيْحَةً ﴾ بالرفع هنا وفي قوله: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث، فكانه قال: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال إن كان إلا صيحة. قال النحاس: لا يمتنع شيء من هذا، يقال: ما جاءني إلا جاريتك بمعنى ما جاءني امرأة أو جارية إلا جاريتك. والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق، قال: المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدره غيره ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب. وقرأ عبد الرحمن بن الأسود - ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك - ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً ﴾. وهذا مخالف للمصحف. وأيضاً فإن اللغة المعروفة زَقَا يَزْقُو إذا صاح، ومنه المثل: أثقل من الزَّوَاقي؛ فكان يجب على هذا أن يكون زَقْوَة. ذكره النحاس.

قلت: وقال الجوهري الرَّقُو وَالرَّقِي مصدر، وقد رَقَا الصدا يَزُقُو رُقَاءً أي صاح، وكل صائح زاقٍ، والرَّقِيَّة الصَّيْحَة.

قلت: وعلى هذا يقال رَقُوة ورَقِيَّة لغتان فالقراءة صحيحة لا أعترض عليها. والله أعلم. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي ميتون هامدون تشبيها بالرماد الخامد. وقال قتادة: هلكى. والمعنى واحد.

[٣٠] ﴿يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

[٣١] ﴿الْمُرِيرُوا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

[٣٢] ﴿وَأَنَّ كُلَّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا حَشْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين. وفي حرف أبي ﴿يَا حَشْرَةَ الْعِبَادِ﴾ على الإضافة. وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً. وزعم الفراء أن الاختيار النصب، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صواباً. وأستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب: يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهتم. وأنشد:

يَا دَائِرَ غَيْرِهَا إِلَيَّ تَغْيِيرًا^(١)

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره؛ لأنه يرفع النكرة المحضة ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله، ويحذف التنوين متوسطاً، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علة أوجبت ذلك. فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازوه؛ لأن تقدير يا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير، والمعنى يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا. وتقدير البيت يا أيها الدار ثم حول المخاطبة؛ أي يا هؤلاء غير هذه الدار البلى؛ كما قال الله جل وعز: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ فـ ﴿حسرة﴾ منصوب على النداء كما تقول يا رجلاً أقبل، ومعنى النداء

(١) البيت للأحوص؛ وتامه:

وسفت عليها الريح بعدك موراً

هذا موضع حضور الحسرة. الطبري: المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندماً وتلهفاً في أستهزائهم برسول الله عليهم السلام. ابن عباس: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي يا ويلا على العباد. وعنه أيضاً: حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم. وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان، وقاله مجاهد. وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. وقيل: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لما وثب القوم لقتله. وقيل: إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحلّ بالقوم العذاب يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا. وقيل: هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة، على اختلاف الروايات: يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمناً بهم في الوقت الذي ينفع الإيمان. وتم الكلام على هذا، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾. وقرأ ابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب وعكرمة ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك في مثله، وإن لم يكن موضعاً للوقف. ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً؛ حرصاً على البيان والإفهام. ويجوز أن يكون ﴿على الْعِبَادِ﴾ متعلقاً بالحسرة. ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف لا بالحسرة، فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء، ثم قال: ﴿على الْعِبَادِ﴾ أي أتحسر على العباد. وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما ﴿يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ﴾ مضاف بحذف على. وهو خلاف المصحف. وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا، فهو كقولك يا قيام زيد. ويجوز أن يكون من باب الإضافة إلى المفعول، فيكون العباد مفعولين؛ فكأن العباد يتحسر عليهم من يشفق لهم. وقراءة من قرأ ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ مقوية لهذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال سيبويه: أن بدل من كم، ومعنى كم هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. وقال الفراء: ﴿كم﴾ في موضع نصب من وجهين: أحدهما - بـ ﴿يَرَوْا﴾ واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود ﴿أَلَمْ يَرَوْا مَن أَهْلَكْنَا﴾. والوجه الآخر أن يكون ﴿كم﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾. قال النحاس: القول الأول محال؛ لأن ﴿كم﴾ لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل الاستفهام في خبر ما قبله. وكذا حكمها إذا كانت خبراً، وإن كان سيبويه قد أوماً إلى بعض هذا فجعل ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدلا من كم. وقد رد ذلك محمد بن يزيد أشد رد، وقال: ﴿كم﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و ﴿أَنَّهُمْ﴾ في موضع نصب والمعنى عنده بأنهم أي ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ بالاستئصال. قال: والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله ﴿مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. وقرأ الحسن ﴿إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف. وهذه الآية رد على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت. ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا﴾ بشديد لما. وخفف الباقون. فإن مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء، وما بعده الخبر. وبطل عملها حين تغير لفظها. ولزمت اللام في الخبر فرقا بينها وبين إن التي بمعنى ما. وما عند أبي عبيدة زائدة. والتقدير عنده وإن كل لجميع. قال الفراء: ومن شدد جعل ﴿لما﴾ بمعنى إلا و ﴿إن﴾ بمعنى ما أي ما كل إلا لجميع؛ كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾. وحكى سيبويه: في قوله سألتك بالله لَمَا فعلت. وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا. وقد مضى هذا المعنى في ﴿هود﴾^(١). وفي حرف أبي ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

(١) راجع ١٠٥/٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

- [٣٣] ﴿وَأَيُّ لَهمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣).
- [٣٤] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٤).
- [٣٥] ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥).
- [٣٦] ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم توحيدِهِ وكمال قدرته، وهي الأرض الميتة أحيائها بالنبات وإخراج الحب منها. ﴿فَمِنْهُ﴾ أي من الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذون. وشدد أهل المدينة ﴿الْمَيْتَةُ﴾ وخفف الباقون. وقد تقدّم^(١). ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض. ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين. ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الشمار. ﴿وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي في البساتين. ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ الهاء في ﴿ثَمَرِهِ﴾ تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه أندرَج. قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما. وقيل: أي ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ بضم الثاء والميم. وفتحهما الباقون. وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم. وقد مضى الكلام فيه في ﴿الأنعام﴾^(٢). ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿مَا﴾ في موضع خفض على العطف على ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي ومما عملته أيديهم. وقرأ الكوفيون ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾ بغير هاء. الباقون ﴿عملته﴾ على الأصل من غير حذف. وحذف الصلة أيضاً في الكلام كثير لطول الاسم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع. أي ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم. وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل. وقال غيرهم: المعنى ومن الذي عملته أيديهم أي من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة، ومما

(١) راجع ٢١٦/٢ وما بعدها طبعة ثانية.

(٢) راجع ٤٩/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أَتَّخَذُوا مِنَ الْحَبُوبِ بِعَلاَجٍ كَالْخَبِزِ وَالذَّهْنِ الْمُسْتَخْرَجِ مِنَ السَّمْسِمِ وَالزَّيْتُونِ. وَقِيلَ: يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى مَا يَغْرِسُهُ النَّاسُ. رَوَى عَنْ أَبِي عُبَّاسٍ أَيْضاً. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعْمَهُ.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ؛ إِذْ عَبَدُوا غَيْرَهُ مَعَ مَا رَأَوْهُ مِنْ نِعْمِهِ وَأَثَارِ قُدْرَتِهِ. وَفِيهِ تَقْدِيرُ الْأَمْرِ؛ أَيُّ سَبِّحُوهُ وَنَزَّهُوهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ. وَقِيلَ: فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ؛ أَيُّ عَجَباً لِهَؤُلَاءِ فِي كُفْرِهِمْ مَعَ مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَمَنْ تَعَجَّبَ مِنْ شَيْءٍ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ. وَالْأَزْوَاجُ الْأَنْوَاعُ وَالْأَصْنَافُ، فَكُلُّ زَوْجٍ صِنْفٍ، لِأَنَّهُ مُخْتَلَفٌ فِي الْأَلْوَانِ وَالطَّعُومِ وَالْأَشْكَالِ وَالصُّغَرِ وَالْكِبَرِ، فَاخْتِلَافُهَا هُوَ أَزْدَوَاجُهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ يَعْنِي مِنَ النَّبَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَصْنَافٌ. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي وَخَلَقَ مِنْهُمْ أَوْلَاداً أَزْوَاجاً ذَكَوراً وَإِنَاثاً. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ مِنْ أَصْنَافٍ خَلَقَهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا يَخْلُقُهُ لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ وَتَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ. وَيَجُوزُ أَلَّا يَعْلَمَهُ مَخْلُوقٌ. وَوَجْهُ الاسْتِدْلَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ إِذَا أَنْفَرَدَ بِالْخَلْقِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْرَكَ بِهِ.

[٣٧] ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

[٣٨] ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أَيُّ وَعِلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَوَجُوبِ إِلَهِيَّتِهِ. وَالسَّلَخُ الْكُشَطُ وَالنَّزْعُ يُقَالُ سَلَخَهُ اللَّهُ مِنْ دِينِهِ، ثُمَّ تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْإِخْرَاجِ. وَقَدْ جَعَلَ ذَهَابَ الضُّوءِ وَمُجِيءَ الظُّلْمَةِ كَالسَّلَخِ مِنَ الشَّيْءِ وَظُهُورِ الْمَسْلُوخِ فَهِيَ أَسْتَعَارَةٌ. وَ﴿مُظْلِمُونَ﴾ دَاخِلُونَ فِي الظَّلَامِ؛ يُقَالُ: أَظْلَمْنَا أَيُّ دَخَلْنَا فِي ظُلَامِ اللَّيْلِ، وَأَظْهَرْنَا دَخَلْنَا فِي وَقْتِ الظُّهْرِ، وَكَذَلِكَ أَصْبَحْنَا وَأَضْهِقْنَا وَأَمْسَيْنَا. وَقِيلَ: ﴿مِنْهُ﴾ بِمَعْنَى عَنْهُ، وَالْمَعْنَى نَسَلَخَ عَنْهُ ضِيَاءَ النَّهَارِ. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أَيُّ فِي ظُلْمَةٍ؛ لِأَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ يَتَدَاخَلُ فِي الْهَوَاءِ فَيُضِيءُ فَإِذَا خَرَجَ مِنْهُ أَظْلَمَ.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس. ويجوز أن يكون الشمس مرفوعاً بإضمار فعل يفسره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء ﴿تجري﴾ في موضع الخبر أي جارية. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال: «مستقرها تحت العرش». وفيه عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال يوماً: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس» قالوا الله ورسوله أعلم؛ قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها أرتفعي أرجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها أرتفعي أرجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها أرتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها» فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم ذاك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾». ولفظ البخاري عن أبي ذر قال قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب» قلت الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها أرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ فذلك تقدير العزيز العليم». ولفظ الترمذي عن أبي ذر قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي ﷺ جالس. فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه» قال قلت: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها أطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها» قال: ثم قرأ ﴿ذَلِكَ﴾^(١) مُسْتَقَرٌّ لَهَا قال وذلك قراءة عبد الله. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(١) كذا في الأصول وفي «صحيح الترمذي» ولعله تحريف، إذ لا تعرف قراءة بهذا النص؛ وقراءة عبد الله بن مسعود ﴿والشمس تجري لا مستقر لها﴾ كما سيأتي.

وقال عكرمة: إن الشمس إذا غربت دخلت محراباً تحت العرش تسبح الله حتى تصبح، فإذا أصبحت أستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب: ولم ذاك؟ قالت: إني إذا خرجت عُبدت من دونك. فيقول الرب تبارك وتعالى: أخرجي فليس عليك من ذاك شيء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَكٍ يقودونها حتى يدخلوهم فيها. وقال الكلبي وغيره: المعنى تجري إلى أبعد منازلها في الغروب. ثم ترجع إلى أدنى منازلها، فمستقرها بلوغها الموضع الذي لا تتجاوزه بل ترجع منه؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضي وَطَرَهُ، ثم يرجع إلى منزله الأول الذي أبتدأ منه سفره. وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها، وهو مستقرها إذا طلعت الهنعة، وذلك اليوم أطول الأيام في السنة، وتلك الليلة أقصر الليالي، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ في النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا استوى الليل والنهار، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النعائم، وذلك اليوم أقصر الأيام، والليل خمس عشرة ساعة، حتى إذا طلع فَرَزْغ الدَّلْو المؤخر استوى الليل والنهار، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلاث ساعة، وكل عشرة أيام ثلاث ساعة، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة؛ ويأخذ النهار من الليل كذلك. وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً، تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزله إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرها. وهو معنى الذي قبله سواء. وقال ابن عباس: إنها إذا غربت وأنتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه أَسْتَقَرَّت تحت العرش إلى أن تطلع.

قلت: ما قاله ابن عباس يجمع الأقوال فتأمله. وقيل: إلى انتهاء أمدها عند انقضاء الدنيا. وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مَسْقَرٌ لَهَا﴾ أي إنها تجري في الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة. وقد أحتج من خالف المصحف فقال: أنا أقرأ بقراءة ابن مسعود وابن عباس. قال أبو بكر الأنباري: وهذا باطل مردود على من نقله؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ابن عباس، وابن كثير روى

عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ فهذا السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع، ييطان ما روي بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة، وما اتفقت عليه الأمة.

قلت: والأحاديث الثابتة التي ذكرناها تردّ قوله فما أجرأه على كتاب الله قاتله الله. وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي إلى مستقرّها والمستقرّ موضع القرار. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿العَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

[٣٩] ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ۝﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ﴾ يكون تقديره وآية لهم القمر. ويجوز أن يكون ﴿وَالْقَمَرُ﴾ مرفوعاً بالابتداء. وقرأ الكوفيون ﴿وَالْقَمَرُ﴾ بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد. قال: لأن قبله فعلاً وبعده فعلاً؛ قبله ﴿تَسْلَخُ﴾ وبعده ﴿قَدَرْنَاهُ﴾. النحاس: وأهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال، منهم الفراء قال: الرفع أعجب إليّ وإنما كان الرفع عندهم أولى؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآية لهم القمر. وقوله: إن قبله ﴿تَسْلَخُ﴾ فقبله ما هو أقرب منه وهو ﴿تَجْرِي﴾ وقبله ﴿وَالشَّمْسُ﴾ بالرفع. والذي ذكره بعده وهو ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ قد عمل في الهاء. قال أبو حاتم: الرفع أولى؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء. ويقال: القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ففي هذا جوابان: أحدهما قدرناه ذا منازل مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾. والتقدير الآخر قدرنا له منازل ثم حذف اللام، وكان حذفها حسناً لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾. والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل؛ وهي: الشَّرْطَان. البُطَيْن. الثُّرَيَّا. الدَّبْرَان. الهَقْعَة. الهنعة. الذَّرَاع. الثُّرَة. الطَّرْف. الجَبْهَة. الخَرَاتَان، الصَّرْفَة. العَوَاء. السَّمَكَ. الغَفْر.

الرَّبَائِيَانِ. الإِثْلِيلِ. الْقَلْبِ. الشُّوْلَةِ. النَّعَائِمِ. الْبَلْدَةِ. سَعْدُ الذَّابِحِ. سَعْدُ بُلْعٍ. سَعْدُ السُّعُودِ. سَعْدُ الْأُخْيَةِ. الْفَرْغُ الْمَقْدَمُ. الْفَرْغُ الْمُؤَخَّرُ. بطن الحوت. فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة. ثم يستمر ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلاث. فللحمل الشَّرْطَانُ والبُطَيْنِ وثلاث الثريا، وللثور ثلاث الثريا والدَّبران وثلاث الهَقْعَةُ، ثم كذلك إلى سائرهما. وقد مضى في ﴿الحجر﴾^(١) تسمية البروج والحمد لله. وقيل: إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نارٍ ثم كَسِيَا النور عند الطلوع، فأما نور الشمس فمن نور العرش، وأما نور القمر فمن نور الكرسي، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة. فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق، وأما القمر فأمرُّ الروح الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء. فبقي ذلك المجو على ما يراه الخلق، ثم جعل في غلاف من ماء، ثم جعل له مجرى، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمراً بمقدار ما يقيم لهم حتى ينتهي بدؤه، ويراه الخلق بكماله واستدارته. ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شيء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد في البدء. وابتدىء في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس وهي ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم، وهو العِذْقُ المتقوَّس ليسه ودقته. وإنما قيل القمر، لأنه يُقَمِّرُ أي يبيض الجو ببياضه إلى أن يَسْتَسِرَّ.

الثانية - ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ قال الزجاج: هو عود العِذْقُ الذي عليه الشماريخ، وهو فُعْلُون من الانعراج وهو الانعطاف، أي سار في منازلها، فإذا كان في آخرها دق واستقوس وضاق حتى صار كالعرجون. وعلى هذا فالنون زائدة. وقال قتادة: هو العِذْقُ اليابس المنحني من النخلة. ثعلب: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ قال: ﴿العرجون﴾ الذي يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت، و ﴿القديم﴾ البالي. الخليل: في باب الرباعي ﴿العرجون﴾ أصل العِذْقُ وهو أصفر عريض يشبه به الهلال إذا أُنْحَنِيَ. الجوهري:

﴿العرجون﴾ أصل العِدْق الذي يعوجّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً؛ وعَزَجَتْه ضربه بالعرجون. فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بني قيس:

شرق المسك والعبير^(١) بها فهي صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عَتَقَ وَيَسَّ وتقوَّسَ شَبَّهَ القَمْرُ في دَقَّتْه وصفرته به. ويقال له أيضاً الإهان والكِبَاسَة والقنوّ، وأهل مصر يسمونه الإسباطة. وقرىء ﴿العِرْجُونُ﴾ بوزن الفِرْجُون وهما لغتان كالبُزْيُون^(٢) والبِزْيُون؛ ذكره الزمخشري وقال: هو عود العِدْق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. وأعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل: فأولها الربيع، وأوله خمسة عشر يوماً من آذار، وعدد أيامه أثنان وتسعون يوماً. تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: الحَمَل، والثَّور، والجوزاء، وسبعة منازل: الشَّرْطَان والبُطَيْن والثُّريا والدَّبَّارَن والهِقَّة والهِقَّة والذَّرَاع. ثم يدخل فصل الصيف في خمسة عشر يوماً من حَزِيران، وعدد أيامه أثنان وتسعون يوماً؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج: الشَّرْطَان، والأَسَد، والسُّنْبَلَة، وسبعة منازل: وهي النُثْرَة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتَان والصَّرْفَة والعَوَاء والسَّمَك. ثم يدخل فصل الخريف في خمسة عشر يوماً من أيلول، وعدد أيامه أحد وتسعون يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج؛ وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعة منازل الغُفَر والرُّبَّانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة. ثم يدخل فصل الشتاء في خمسة عشر يوماً من كانون الأول، وعدد أيامه تسعون يوماً وربما كان أحداً وتسعين يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: وهي الجَدِي والدَّلُو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السَّعُود وسعد الأَخِيَّة والفَرُغ المَقْدَم، والفَرُغ المؤخَّر وبطن الحوت. وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، أشباط، آذار، نيسان، أيار، حَزِيران، تَمُوز، آب، أيلول، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثاني ونيسان وحَزِيران وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم.

(١) كذا في الأصل ولم نعر عليه في ديوانه، ويحتمل أن يكون: شرق العنبر والمسك بها.

(٢) البزبون: السندس. وقبل هو رقيق الدياج.

ولإنما أردنا بهذا أن تنظر في قدرة الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾ فإذا كانت الشمس في منزل أهل الهلال بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله، فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوماً من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهل الهلال بالدبران، ثم يكون له في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة. وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس ف ﴿بِذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿الْقَدِيمِ﴾ قال الزمخشري: القديم المحول وإذا قَدُمَ دَقَّ وأنحنى وأصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه. وقيل: أقلّ عِدَّة الموصوف بالقديم الحول، فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حر، أو كتب ذلك في وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر.

قلت: قد مضى في ﴿البقرة﴾^(١) ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله.

[٤٠] ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آِلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ رفعت الشمس بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل ﴿لا﴾ في معرفة. وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها إن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه. أي لكل واحد منهما سلطان على حياله، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم في آخر سورة ﴿الأنعام﴾^(٢) بيانه. وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. روي معناه عن ابن عباس والضحاك. وقال مجاهد: أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال قتادة: لكل حدّ وعلم لا يعدوه

(١) راجع ٣٤١/٢ وما بعدها طبعة ثانية.

(٢) راجع ١٤٥/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا. وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة. أي لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر. يحيى بن سلام: لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها. وقيل: معناه إذا اجتمع في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها؛ قاله ابن عباس أيضاً. وقيل: القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة فهي لا تدركه. ذكره النحاس والمهدوي. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يُدفع أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه في السير. ذكره المهدوي أيضاً. فأما قوله سبحانه: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه في آخر ﴿الأنعام﴾^(١) ويأتي في سورة ﴿القيامة﴾ أيضاً. وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة. ﴿وَكُلُّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يجرون. وقيل: يدورون. ولم يقل تسبح؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل. وقال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة ولو كانت ملصقة ما جرت؛ ذكره الثعلبي والماوردي. وأستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بخلق. وقيل: كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة؛ كما قال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وإنما هذا التعاقب الآن لتمام مصالح العباد ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ ويكون الليل للإجمام والاستراحة، والنهار للتصرف؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم من عمل النهار. فقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي غالب النهار؛ يقال: سبق فلان فلاناً أي غلبه. وذكر المبرّد قال: سمعت عمارة يقرأ ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابق النهار فحذفت التنوين؛ لأنه أخف. قال النحاس: يجوز أن يكون ﴿النهار﴾ منصوباً بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين.

[٤١] ﴿وَأَيُّ لَٰهُمۡ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝﴾ .

[٤٢] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمۡ مِنۡ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۝﴾ .

[٤٣] ﴿وَلَنۡ نُّشَآءُ نَعْرِقَهُمۡ فَلَا صَرِيحَ لَهُمۡ وَلَا هُمْ يُقَدُّونَ ۝﴾ .

[٤٤] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَٰهُمۡ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها - عبرة لهم؛ لأن في الآيات اعتباراً. الثاني - نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاماً. الثالث - إنذار لهم؛ لأن في الآيات إنذاراً. ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾^(١) في الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ من أشكل ما في السورة؛ لأنهم هم المحمولون. فقليل المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ فالضميران مختلفان؛ ذكره المهدوي. وحكاه النحاس عن علي بن سليمان أنه سمعه يقوله. وقيل: الضميران جميعاً لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم، فالفلك على القول الأول سفينة نوح. وعلى الثاني يكون اسماً للجنس؛ خبر جل وعز بلطفه وأمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذرية والضعفاء، فيكون الضميران على هذا متفقين. وقيل: الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام، فالآباء ذرية والأبناء ذرية؛ بدليل هذه الآية؛ قاله أبو عثمان. وسمي الآباء ذرية؛ لأن منهم ذراً الأبناء. وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ذكره الماوردي. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(٢) اشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى. و ﴿المشحون﴾ المملوء الموقر و ﴿الفلك﴾ يكون واحداً وجمعاً. وقد تقدّم في ﴿يونس﴾^(٣) القول فيه.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمۡ مِنۡ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم^(٤) وأنه رأس آية. وفي معناه ثلاثة أقوال: مذهب مجاهد و قتادة و جماعة من أهل التفسير

(١) ﴿ذرياتهم﴾ بالجمع قراءة نافع. (٢) راجع ١٠٧/٢ وما بعدها طبعة ثانية.

(٣) راجع ٣٢٤/٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٤) كذا في كل نسخ الأصل وفي إعراب القرآن للنحاس.

وروي عن ابن عباس أن معنى ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ للإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن. قال طرفة:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ عُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ^(١)

جمع خلية وهي السفينة العظيمة. والقول الثاني أنه للإبل والدواب وكل ما يركب. والقول الثالث أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحابها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: خلق لهم سفناً أمثالها يركبون فيها. وقال أبو مالك: إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروي عن ابن عباس والحسن. وقال الضحاك وغيره: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح. قال الماوردي: ويجيء على مقتضى تأويل علي رضي الله عنه في أن الذرية في الفلك المشحون هي النطف في بطون النساء قول خامس في قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكياً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي في البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال إن المراد ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ السفن لا الإبل. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة. وروي شيان عنه فلا منعة لهم ومعناها متقاربان. و﴿صَرِيخَ﴾ بمعنى مُصْرَخ فاعل بمعنى فاعل. ويجوز «فلا صريخ لهم»؛ لأن بعده ما لا يجوز فيه إلا الرفع؛ لأنه معرفة وهو ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ والنحويون يختارون لا رجل في الدار ولا زيد. ومعنى ﴿يُنْقَذُونَ﴾ يخلصون من الغرق. وقيل: من العذاب. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال الكسائي: هو نصب على الاستثناء. وقال الزجاج: نصب مفعول من أجله؛ أي للرحمة ﴿وَمَتَاعاً﴾ معطوف عليه. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة. يحيى بن سلام: إلى القيامة أي إلا أن نرحمهم ونمتهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وآخر عذاب أمة محمد ﷺ وإن كذبوه إلى الموت والقيامة.

(١) الحدوج جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء. والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة. والنواصف جمع ناصفة وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي. ودد موضع.

- [٤٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .
- [٤٦] ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .
- [٤٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ .
- [٤٨] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .
- [٤٩] ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .
- [٥٠] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال قتادة: يعني ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الآخرة. ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما يأتي من الذنوب. الحسن: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من أجلكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بقي منه. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان. وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس. قال: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من أمر الآخرة وما عملوا لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا فأحذروها ولا تغتروا بها. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما ظهر لكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما خفي عنكم. والجواب محذوف والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دليله قوله بعد: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فأكتفى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي تصدقوا على الفقراء. قال الحسن: يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقيل هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي ﷺ أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله. وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴿٤٥﴾ فحرموهم وقالوا: لو شاء الله أطعمكم - استهزاء - فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا. قالوا: ﴿أَنْطُعِمُ﴾ أي أنرزق ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين أن الرازق هو الله. فقالوا هزأ أنرزق من لو يشاء الله أغناه. وعن ابن عباس: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن. وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء الله لأعزّ ولو شاء الله لكان كذا. فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى. وقيل: قالوا هذا تعلقاً بقول المؤمنين لهم ﴿أَنْتَفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا؟. وكان هذا الاحتجاج باطلاً؛ لأن الله تعالى إذا ملّك عبداً مالاً ثم أوجب عليه فيه حقاً فكانه أنتزع ذلك القدر منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا في الاحتجاج. ومثله قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قيل: هو من قول الكفار للمؤمنين، أي في سؤال المال وفي اتباعكم محمداً. قال معناه مقاتل وغيره. وقيل: هو من قول أصحاب النبي ﷺ لهم. وقيل: من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب. وقيل: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقبه أبو جهل فقال: يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال: أبتلى قوماً بالفقر، وقوماً بالغنّى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء. فقال: والله يا أبا بكر ما أنت إلا في ضلال؛ أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت؟ فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الآيات. وقيل: نزلت الآية في قوم من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، وأستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول. ذكره القشيري والماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ لما قيل لهم ﴿أَنْتَفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا

خَلَفَكُمْ ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان هذا استهزاء منهم أيضاً أي لا تحقيق لهذا الوعد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخة الصَّعَق. وفي ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ خمس قراءات: قرأ أبو عمرو وأبن كثير ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد. وكذا روى ورش عن نافع. فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه. وقرأ عاصم والكسائي ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بكسر الخاء وتشديد الصاد ومعناه يخصم بعضهم بعضاً. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون في الحجة أنهم لا يبعثون. وقد روى ابن جبير عن أبي بكر عن عاصم وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد. قال النحاس: القراءة الأولى أبينها والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء في الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء - وفي حرف أبي ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ - وإسكان الخاء لا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مد ولين. وقيل: أسكنوا الخاء على أصلها، والمعنى يخصم بعضهم بعضاً فحذف المضاف، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول؛ قال الثعلبي: وهي قراءة أبي بن كعب. قال النحاس: فأما ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ فالأصل فيه أيضاً يختصمون، فأدغمت التاء في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وزعم الفراء أن هذه القراءة أجود وأكثر؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء وأجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة، وزعم أنه أجود وأكثر. وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة! وما روي عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع. وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾^(١) في ﴿يَخْطَفُ

أَبْصَارَهُمْ ﴿١﴾ وفي ﴿يونس﴾ (١) في ﴿يَهْدِي﴾. وقال عكرمة في قوله جل وعز ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال: هي النفخة الأولى في الصور. وقال أبو هريرة: يُنفخ في الصور والناس في أسواقهم؛ فمن حالبٍ لقحة، ومن ذارعٍ ثوباً، ومن مازٍ في حاجة. وروى نعيم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة والرجل يَلِيطُ (٢) حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبَلَّعُها حتى تقوم الساعة». وفي حديث عبد الله بن عمرو «وأول من يسمعه رجل يُلُوط حوضَ إبله - قال - فيصعق ويصعق الناس» الحديث. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً لما في يده من حق. وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة والإقلاع بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم. ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا ماتوا. وقيل: إن معنى ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يرجعون إليهم قولاً. وقال قتادة: ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى منازلهم، لأنهم قد أعجلوا عن ذلك.

[٥١] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

[٥٢] ﴿قَالُوا بَنُو لَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

[٥٣] ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

[٥٤] ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة. وقد بينا في سورة النمل (٣) أنهما نفختان لا ثلاث. وهذه الآية دالة على ذلك. وروى المبارك بن

(١) راجع ٣٤١/٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) يَلِيط حوضه وفي رواية يُلُوط حوضه أي يطينه.

(٣) راجع ٢٣٩/١٣ طبعة أولى أو ثانية.

فَصَّالَةٌ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوَّلَى يَمِيتُ اللَّهُ بِهَا كُلَّ حَيٍّ وَالْآخِرَى يَحْيِي اللَّهُ بِهَا كُلَّ مَيِّتٍ». وَقَالَ قَتَادَةُ: الصُّورُ جَمْعُ صُورَةٍ؛ أَيْ نَفْخَ فِي الصُّورِ الْأَرْوَاحِ. وَصُورَةٌ وَصُورٌ مِثْلُ سُورَةِ الْبَنَاءِ وَسُورٍ؛ قَالَ الْعَجَّاجُ:

وَرُبُّ ذِي سُورَادِقٍ مَخْجُورٍ سِرْتُ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّورِ

وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَرَأَ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾. النَّحَّاسُ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ «الصُّورَ» بِإِسْكَانِ الْوَاوِ. الْقُرْنُ؛ جَاءَ بِذَلِكَ التَّوْقِيفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. أَنْشَدَ أَهْلُ اللُّغَةِ:

نَحْنُ نَطْخُنَاهُمْ غَدَاةَ الْغُورَيْنِ بِالضَّائِحَاتِ فِي غُبَارِ النَّفْعَيْنِ
نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنْطَحِ الصُّورَيْنِ

وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي «الْأَنْعَامِ»^(١) مُسْتَوْفَى. «فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ» أَيْ الْقُبُورِ. وَقُرِءَ بِالْفَاءِ «مِنَ الْأَجْدَاثِ» ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ. يُقَالُ جَدَثٌ وَجَدَفَ. وَاللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ الْجَدَثُ بِالْثَاءِ وَالْجَمْعُ أَجْدُثٌ وَأَجْدَاثٌ؛ قَالَ الْمُتَنَخِّلُ الْهُذَلِيُّ:

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فِعَافٍ عِزْقٍ عِلَامَاتٍ كَتَخِيرِ النَّمَاطِ
وَأَجْدُثَتْ أَيْ اتَّخَذَتْ جَدَثًا. «إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» أَيْ يَخْرُجُونَ؛ قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ. وَمِنْهُ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ:

فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلِي

وَمِنْهُ قِيلَ لِلْوَلَدِ نَسْلٌ، لِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ. وَقِيلَ: يَسْرَعُونَ، وَالنَّسْلَانُ وَالْعَسْلَانُ الْإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ، وَمِنْهُ مَشْيَةُ الذَّنَبِ؛ قَالَ^(٢):

عَسْلَانَ الذَّنَبِ أَمْسَى قَارِبًا بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَتَسَلَّ

يُقَالُ: عَسَلَ الذَّنَبُ وَتَسَلَ يَعْسِلُ وَيَنْسِلُ مِنْ بَابِ ضَرْبٍ يَضْرِبُ، وَيُقَالُ: يَنْسِلُ بِالضَّمِّ أَيْضًا وَهُوَ الْإِسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ، فَالْمَعْنَى يَخْرُجُونَ مَسْرِعِينَ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ

(١) راجع ٢٠/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) البيت للبيد، وقيل هو للناطقة الجعدي.

إِلَّا كَتَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿٥١﴾ وقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ وفي «سأل سائل»: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون. وفي الخبر: شكونا إلى النبي ﷺ الضعف فقال «عليكم بالنَّسْل» أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنباري: ﴿يا ويلنا﴾ وقف حسن ثم تبدى ﴿مَنْ بَعَثْنَا﴾. وروي عن بعض القراء ﴿يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعَثْنَا﴾ بكسر من والثاء من البعث. روي ذلك عن علي رضي الله عنه؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ حتى يقول ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾. وفي قراءة أبي بن كعب ﴿مَنْ هَبَّنَا﴾ بالوصل ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوي: قرأ ابن أبي ليلي ﴿قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا﴾ بزيادة تاء وهو تأنيث الويل ومثله ﴿يَا وَيْلَتَا أَلَدُّ وَآنَا عَجُوزٌ﴾. وقرأ علي رضي الله عنه ﴿يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعَثْنَا﴾ فـ ﴿مِنْ﴾ متعلقة بالويل أو حال من ﴿ويلتنا﴾ فتعلق بمحذوف، كأنه قال: يا ويلتا كائناً من بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خبراً عنه كذلك يجوز أن يكون حالاً منه. و ﴿مِنْ﴾ من قوله ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ متعلقة بنفس البعث. ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذبين في قبورهم؟ فالجواب أن أبي بن كعب قال: ينامون نومة. وفي رواية فيقولون: يا ويلنا من أهَبَّنَا من مرقدنا. قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن ﴿أَهَبَّنَا﴾ من لفظ القرآن كما قاله من طعن في القرآن، ولكنه تفسير ﴿بعثنا﴾ أو معبر عن بعض معانيه. قال أبو بكر: وكذا حفظته ﴿مَنْ هَبَّنَا﴾ بغير ألف في أهنا مع تسكين نون مَنْ. والصواب فيه على طريق اللغة ﴿مَنْ أَهَبَّنَا﴾ بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون ﴿مِنْ﴾ وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: مَنْ أَخْبِرَكَ مَنْ أَعْلَمَكَ؟ وهم يريدون من أَخْبِرَكَ. ويقال: أَهْبَبْتُ النَّائِمَ فَهَبَّ النَّائِمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وَعَاذِلَةَ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُوْمُنِي ولم يَعْتَمِزْنِي قَبْلَ ذَاكَ عَذُولُ

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾

وقاله أبْن عباس وقتادة . وقال أهل المعاني : إن الكفار إذا عابنوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم . قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . قال قتادة : فقال لهم من هدى الله ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . وقال الفراء : فقال لهم الملائكة ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل . وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ وكذا الحديث : « المؤمن عند الله خير من كل ما خلق » . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . وقيل : إن الكفار لما قال بعضهم لبعض ﴿ مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ صدقوا الرسل لما عابنوا ما أخبروهم به ، ثم قالوا ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ فكذبنا به ؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار . وكان حفص يقف على ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ثم يتبدى فيقول ﴿ هَذَا ﴾ . قال أبو بكر بن الأنباري : ﴿ مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ وقف حسن ؛ ثم تبتدىء ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ ويجوز أن تقف على ﴿ مَرْقَدِنَا هَذَا ﴾ فتخفض هذا على الإتياع للمرقد ، وتبتدىء ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ على معنى بَعَثَكُمْ ما وعد الرحمن ، أي بَعَثَكُمْ وعد الرحمن . النحاس : التمام على ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ و ﴿ هَذَا ﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ . ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت لـ ﴿ مَرْقَدِنَا ﴾ فيكون التمام ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا ﴾ . ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ في موضع رفع من ثلاث جهات . ذكر أبو إسحق منها اثنتين قال : يكون بإضمار هذا . والجهة الثانية أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بَعَثَكُمْ . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بَعَثَكُمْ ما وعد الرحمن ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعني إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهي قول إسرافيل : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ؛ والشعور المتمزقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وهذا معنى قوله الحق : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ . وقال : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي ﴾ على ما يأتي . وفي قراءة ابن مسعود إن صح عنه ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا رَقِيَّةً

وَاحِدَةً ﴿وَالزُّقْيَةُ الصَّيْحَةُ﴾ وقد تقدّم هذا. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْضَرُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبتدأ وخبره ﴿جَمِيعٌ﴾ نكرة و ﴿مُخْضَرُونَ﴾ من صفته. ومعنى ﴿مُخْضَرُونَ﴾ مجموعون أحضروا موقف الحساب. وهو كقوله: ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا أَلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ﴾. قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ أي لا تنقص من ثواب عمل. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَا﴾ في محل نصب من وجهين: الأول - أنه مفعول ثانٍ لما لم يسم فاعله. والثاني - بنزع حرف الصفة؛ تقديره: إلا بما كنتم تعملون؛ أي تعملونه فحذف.

[٥٥] ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾.

[٥٦] ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِلُونَ﴾.

[٥٧] ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾.

[٥٨] ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾.

[٥٩] ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد: شغلهم أفتضااض العذارى. وذكر الترمذي الحكيم في كتاب مشكل القرآن له: حدثنا محمد بن حميد الرازي، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ قال: شغلهم أفتضااض العذارى. حدثنا محمد بن حميد، حدثنا هرون بن المغيرة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس بمثله. وقال أبو قلابة: بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحول إلى أهلك فيقول أنا مع أهلي مشغول؛ فيقال تحول أيضاً إلى أهلك. وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والتعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلهم؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره. وقال وكيع: يعني في السماع. وقال ابن كيسان: ﴿في شغل﴾ أي في زيارة بعضهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى. وروي أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين عبادي الذين

أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرّي،
ركباناً على نجب من نور أزمتها من الياقوت، تطير بهم على رؤوس الخلائق؛ حتى
يقوموا بين يدي العرش، فيقول الله جل وعز لهم: السلام على عبادي الذين أطاعوني
وحفظوا عهدي بالغيب، أنا أصطفيتكم وأنا أجتبيتكم وأنا اخترتكم، أذهبوا فادخلوا
الجنة بغير حساب ف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. فيمرون على
الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها. ثم إن الخلق في المحشر موقوفون فيقول
بعضهم لبعض: يا قوم أين فلان وفلان؛ وذلك حين يسأل بعضهم بعضاً فينادي مناد
﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ﴾. و ﴿شُغْلٍ﴾ و ﴿شُغْلٍ﴾ لغتان قرئ
بهما مثل الرُّعْبِ والرُّعْبِ، والسُّحْتِ والسُّحْتِ؛ وقد تقدم^(١). ﴿فَكِيهُونَ﴾ قال
الحسن: مسرورون. وقال ابن عباس: فرحون. مجاهد والضحاك: معجبون.
السدي: ناعمون. والمعنى متقارب. والفكاهة المزاح والكلام الطيب. وقرأ أبو جعفر
وشيبة والأعرج ﴿فَكِيهُونَ﴾ بغير ألف وهما لغتان كالفاره والفره والحاذر والحذر؛ قاله
الفراء. وقال الكسائي وأبو عبيدة: الفاكه ذو الفكاهة مثل شاحم ولاجم وتامر ولاين،
والفكه المتفكه والمنتعم. و ﴿فَكِيهُونَ﴾ بغير ألف في قول قتادة معجبون. وقال أبو
زيد: يقال رجل فكه إذا كان طيب النفس ضحوكاً. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف ﴿فَكِيهِينَ﴾
نصبه على الحال. ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ﴾ مبتدأ وخبره.
ويجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ تأكيداً ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف على المضمرة و ﴿مُتَكِئُونَ﴾ نعت
لقوله ﴿فَكِيهُونَ﴾. وقراءة العامة ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ بكسر الظاء والألف. وقرأ ابن مسعود
وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف ﴿فِي ظُلُلٍ﴾ بضم الظاء من
غير ألف؛ فالظلال جمع ظل وظلل جمع ظلة. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني السُرر في
الحجال واحداً أريكة مثل سفينة وسفائن؛ قال الشاعر:

كَأَنَّ احْمَرَّ الرِّدِّ فَوْقَ غُصُونِهِ بوقتِ الضحى في روضة المتضاحكِ
خُدُودُ عَذَارَى قَدْ خَجِلْنَ مِنَ الْحَيَا تَهَادَيْنَ بالريحان فوق الأرائكِ

وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُذْنُ أبكاراً». وقال ابن عباس: إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة، لا يملأها ولا تملأه، كلما أتاها وجدها بكرأ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته، فيجامعها بقوة سبعين رجلاً، لا يكون بينهما مني؛ يأتي من غير مني منه ولا منها. ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء، لأنه يفتعلون من دعا أي من دعا بشيء أعطيه. قاله أبو عبيدة: فمعنى ﴿يَدْعُونَ﴾ يتمنون من الدعاء. وقيل: المعنى أن من أدعى منهم شيئاً فهو له؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدعي منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدعيه. وقال يحيى بن سلام: ﴿يَدْعُونَ﴾ يشتهون. ابن عباس. يسألون. والمعنى متقارب. قال ابن الأنباري: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ وقف حسن، ثم تبتدىء ﴿سَلَامٌ﴾ على معنى ذلك لهم سلام. ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدعون مسلم خالص. فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على ﴿مَا يَدْعُونَ﴾. وقال الزجاج: ﴿سَلَامٌ﴾ مرفوع على البذل من ﴿مَا﴾ أي ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا منى أهل الجنة. وروي من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم» ذكره الثعلبي والقشيري. ومعناه ثابت في «صحيح مسلم» وقد بيناه في ﴿يونس﴾^(١) عند قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نكرة و﴿سَلَامٌ﴾ نعتاً لها، أي ولهم ما يدعون مسلم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ رفع بالابتداء و﴿سَلَامٌ﴾ خبر عنها. وعلى هذه الوجوه لا يوقف على ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾. وفي قراءة ابن مسعود ﴿سَلَاماً﴾ يكون مصدراً، وإن شئت في موضع الحال؛ أي ولهم

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلماً. فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على ﴿يَدْعُونَ﴾. وقرأ محمد بن كعب القرظي ﴿سِلْمٌ﴾ على الاستئناف كأنه قال: ذلك سِلْمٌ لهم لا يتنازعون فيه ويكون ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ تاماً. ويجوز أن يكون ﴿سلام﴾ بدلاً من قوله ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ وخبر ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ لهم. ويجوز أن يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبراً آخر ويكون معنى الكلام أنه لهم خالص من غير منازع فيه. ﴿قَوْلًا﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولاً. أو يقوله قولاً ودل على الفعل المحذوف لفظ مصدره. ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولاً أي عِدَّة من الله. فعلى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على ﴿يَدْعُونَ﴾. وقال السجستاني: الوقف على قوله ﴿سَلَامٌ﴾ تام؛ وهذا خطأ لأن القول خارج مما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَرَاوَا الْيَوْمَ أَهْلُهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ويقال تَمَيَّزُوا وَأَمَّا تَرَاوَا بمعنى؛ ومِزته فأنماز وأمتاز، ومِيزته فتمَيَّز. أي يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة؛ أي أخرجوا من جملتهم. قال قتادة: عَزَلُوا عن كل خير. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبداء الأوثان فرقة. وعنه أيضاً: إن لكل فرقة في النار بيتاً تدخل فيه ويرد بابه، فتكون فيه أبداً لا تَرَى ولا تُرَى. وقال داود بن الجراح: فيمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين.

[٦٠] ﴿أَلَمْ آخِذًا بَعْدَ إِلَيْنَا إِلَهُكُمْ يَبْتِغَىٰ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

[٦١] ﴿وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

[٦٢] ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

[٦٣] ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

[٦٤] ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية ، أي أَلَمْ أوصيكم وأبلغتكم على السنة الرسل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي . قال الكسائي : لا للنهي ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصل ، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي عبادتي دين قويم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أي أغوى ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أي خلقاً كثيراً؛ قاله مجاهد . قتادة : جموعاً كثيرة . الكلبي أمماً كثيرة؛ والمعنى واحد . وقرأ أهل المدينة وعاصم ﴿ جِبِلًّا ﴾ بكسر الجيم والباء ، وأبو عمرو وأبن عامر ﴿ جُبْلًا ﴾ بضم الجيم وإسكان الباء ، الباقون ﴿ جُبْلًا ﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وشددها الحسن وأبن أبي إسحق وعيسى بن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس . وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلي ﴿ جِبْلًا ﴾ بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام . فهذه خمس قراءات . قال المهدوي والثعلبي : وكلها لغات بمعنى الخلق . النحاس : أبينها القراءة الأولى . والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ فيكون ﴿ جِبِلًّا ﴾ جمع جِبِلَّةٍ والاشتقاق فيه كله واحد . وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أي خلقهم . وقد ذكرت قراءة سادسة وهي : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ بالياء . وحكي عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما لا يحصىه إلا الله عز وجل ؛ ذكره الماوردي . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله . ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها . وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين في صعيد واحد ثم أشرف عُنُق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادي منادٍ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

[٦٥] ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

[٦٦] ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾.

[٦٧] ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَكَّنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِحِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

[٦٨] ﴿وَمَنْ تَعَيَّرَتْهُ تَنَكَّسَتْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون ممّ أضحك - قلنا الله ورسوله أعلم قال - من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تُجِرني من الظُّلم قال يقول بلى فيقول إني لا أجزى على نفسي إلاّ شاهداً مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه فيقال لأركانه أنطقي قال فتنتطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكنّ وسُحقاً فعنكّ كنت أناضيل» خرجه أيضاً من حديث أبي هريرة. وفيه «ثم يقال له الآن نبعث شاهداً عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه]^(١) أنطقي فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه». وخرّج الترمذي عن معاوية بن حنيفة عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال «من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه» في رواية أخرى «فخذه وكفه» الفِدام مِصفأة الكوز والإبريق؛ قاله الليث. قال أبو عبيد: يعني أنهم منبوعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذي يجعل على الإبريق. ثم قيل في سبب الختم أربعة أوجه: أحدها - لأنهم قالوا

(١) الزيادة من «صحيح مسلم».

﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم حتى نطق جوارحهم؛ قاله أبو موسى الأشعري. **الثاني** - ليعرفهم أهل الموقف فيميزون منهم؛ قاله ابن زياد. **الثالث** - لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق؛ لخروجه مخرج الإعجاز، وإن كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز. **الرابع** - ليعلم أن أعضاء التي كانت أعواناً في حق نفسه صارت عليه شهوداً في حق ربه. فإن قيل لم قال ﴿وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فجعل ما كان من اليدين كلاماً وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل بالشهادة. وقد روي عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذ من الرجل اليسرى» ذكره المارودي والمهدوي. وقال أبو موسى الأشعري: إني لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذ اليمنى؛ ذكره المهدوي أيضاً. قال المارودي: فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة معاصيه يدرکہا بحواسه التي هي في الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها. قال: وتقدمت اليسرى، لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها.

قلت: أو بالعكس لغلبة الشهوة، أو كلاهما معاً والكف؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ حكى الكسائي: طَمَسَ يَطْمُسُ وَيَطْمُسُ. والمطموس والطميس عند أهل اللغة الأعمى الذي ليس في عينيه شق. قال ابن عباس: المعنى لأعميائهم عن الهدى، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق. وقال الحسن والسدي: المعنى لتركانهم عمياً يترددون. فالمعنى لأعميائهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها. وهذا اختيار الطبري. وقوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي استبقوا الطريق ليجوزوا ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فمن أين يبصرون. وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروي عن ابن عباس: ولو نشاء لفقأنا

أعين ضلالتهم، وأعميناهم عن غيِّهم، وحوَّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فاهتدوا وأبصروا رشدَهم، وتبادروا إلى طريق الآخرة. ثم قال: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ولم نفعل ذلك بهم؛ أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلال باقية. وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدّم، وتأولها على أنها في يوم القيامة. وقال: إذا كان يوم القيامة ومُدَّ الصراط، نادى منادٍ ليقم محمد ﷺ وأمته، فيقومون برَّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجَّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم ينادي منادٍ ليقم عيسى ﷺ وأمته فيقوم فيتبعونه برَّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام. ذكره النحاس وقد كتبه في التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك في رقائقه. وذكره القشيري. وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخذ الأسود بن الأسود حجراً ومعه جماعة من بني مخزوم ليطرحه على النبي ﷺ، فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده. فما أبصره ولا أهتدى، ونزلت الآية فيه. والمطموس هو الذي لا يكون بين جفنيه شقٌّ، مأخوذ من طَمَسَ الرِّيحُ الأثر؛ قاله الأخفش والفتي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ المسخ تبديل الخلقة وقلبها حجراً أو جماداً أو بهيمة. قال الحسن: أي لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمشوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعاً تقصده فتحتير، فلا تُقبل ولا تُدبر. ابن عباس رضي الله عنه: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم. وقيل: المعنى لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترءوا فيه على المعصية. ابن سلام هذا كله يوم القيامة يطمس الله أعينهم على الصراط. وقرأ الحسن والسلمي وزرُّ بن حُبَيْش وعاصم في رواية أبي بكر ﴿مَكَانَاتِهِمْ﴾ على الجمع: الباقون بالتوحيد: وقرأ أبو حنيفة ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ بفتح الميم. والمضي بضم الميم مصدر مضى يَمْضِي مُضِيًّا إذا ذهب.

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحزمة ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس. الباقون ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكست الشيء أُنكسهُ نكساً قلبته على رأسه فانتكس. قال قتادة: المعنى أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا. وقال سفيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ إذا بلغ ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته. قال الشاعر:

من عاش أخلقت الأيام جدته وخانه ثقتاه السمع والبصر

فطول العمر يصير الشباب هرماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً، وهذا هو الغالب. وقد تعود ﷺ من أن يرد إلى أرذل العمر. وقد مضى في ﴿ النحل ﴾ ^(١) بيانه. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم. وقرأ نافع وأبن ذكوان ﴿ تعقلون ﴾ بالتاء. الباقون يالبياء.

[٦٩] ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ .

[٧٠] ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى - أخبر تعالى عن حال نبيه ﷺ، ورد قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ وكذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط ﷺ. من ذلك أنه أنشد يوماً قول طرفة:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ مِنْ لَمْ تَزُوذْهُ بِالْأَخْبَارِ

وأنشد يوماً وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها وإن لم تطيّب طيباً

وأنشد يوماً:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعَبِيدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةٍ

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر. روي أنه أنشد بيت [عبد الله بن رَوَاحَة]:

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فَرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلْتُ بِالْمَشْرُكِينَ الْمُضَاجِعُ

وقال الحسن بن أبي الحسن أنشد النبي عليه السلام:

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيَاً

فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله إنما قال الشاعر:

هَرِيرَةٌ وَدُعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَاً كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَاً

فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. وعن الخليل بن أحمد: كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن لا يتأتى له.

الثانية - إصابته الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حُنين وغيره:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إَصْبَعٌ دَمِيئٌ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتُ

وقوله:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ»

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وفي كل كلام وليس ذلك شعراً ولا في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وقوله: ﴿نَضْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وقوله: ﴿وَجَفَّانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ابن العربي منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ» ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزئين لا يكون شعراً. وروي عنه أنه من منهوك

الرجز. وقد قيل لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على الباء من قوله: «لا كذب». ومن قوله: «عبد المطلب». ولم يعلم كيف قاله النبي ﷺ. قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال «لا كَذِبُ» الباء مرفوعة وبخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة. وقال النحاس قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نَوَّنْها، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر. وقال بعضهم: ليس هذا الوزن من الشعر. وهذا مكابرة العيان؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره. وأما قوله: «هل أنت إلا إصْبَعٌ دَمِيَّتٍ» فقيل إنه من بحر السريع، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت، فإن سكن لا يكون شعراً بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول، ولا مدخل لفعول في بحر السريع. ولعل النبي ﷺ قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع. والمعول عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزم منه أن يكون النبي ﷺ عالماً بالشعر ولا شاعراً أن التمثل بالبيت التزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلها عالماً بالشعر، ولا يسمى شاعراً باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطاً لا يكون خياطاً. قال أبو إسحق الزجاج: معنى «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ» وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئاً من الشعر. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. وقد قيل: إنما خَبَّرَ الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر، ولم يخبر أنه لا ينشد شعراً، وهذا ظاهر الكلام. وقيل فيه قول بَيِّن؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر. وهذا قول بَيِّن. قالوا: وإنما الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العلم بالشعر وأصنافه، وأعارضه وقوافيه والاتصاف بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق، ألا ترى أن قريشاً تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم، فقال بعضهم: نقول إنه شاعر. فقال أهل الفطنة منهم: والله لتكذبنكم

العرب، فإنهم يعرفون أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئاً منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقرأ الشعر^(١) فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر. على ما يأتي بيانه من خبره في سورة ﴿فصلت﴾ إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسْنُ البلغاء. ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعراً، وإنما يعدّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدثنا شيخ لنا وينادي يا صاحب الكسائي، ولا يعدّ هذا شعراً. وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عرض العامة العقلاء: أذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اکتوى.

الثالثة - روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري؛ أن أجمع الشعراء قبلك؛ وسلّمهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفة؛ وأخضر ليبدأ ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله. وسأل ليبدأ فقال: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال ابن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي ﷺ من عيب الشعر. روي أن المأمون قال لأبي عليّ المُنْقَرِي: بلغني أنك أمي، وأنت لا تقيم الشعر، وأنت تلحن. فقال يا أمير المؤمنين: أما اللحن فربما سبق لسانني منه بشيء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدني رابعاً وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي ﷺ فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة. وإنما منع النبي ﷺ ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعب في الشعر والكتابة.

(١) أقرأ الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما ينبغي له أن يقوله، وجعل الله جلّ وعزّ ذلك علماً من أعلام نبيه عليه السلام لثلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه، فيظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر. ولا أعترض لملمحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر، ولو كان شعراً لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعراً؛ على ما تقدّم بيانه. وقال الزجاج: معنى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ما يتسهّل له قول الشعر لا الإنشاء. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي حيّ القلب؛ قاله قتادة. الضحاك: عاقلاً. وقيل: المعنى لتنذر من كان مؤمناً في علم الله. هذا على قراءة التاء خطاباً للنبيّ عليه السلام، وهي قراءة نافع وأبن عامر. وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عز وجل، أو لينذر محمد ﷺ، أو لينذر القرآن. وروي عن ابن السّمِيعِ ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بفتح الياء والذال. ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة.

[٧١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾.

[٧٢] ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

[٧٣] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب. أي أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا. ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة. و﴿مَّا﴾ بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم، وإن جعلت ﴿مَّا﴾ مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء. ﴿أَنْعَمًا﴾ جمع نعم والنعم مذكر. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون. ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبيّ الجمل العظيم ويضربه ويصرفه كيف شاء لا يخرج من طاعته. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء؛ أي مركوبهم، كما يقال ناقة

حلوب أي محلوب. وقرأ الأعمش والحسن وأبن السَّمِيقُ ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم
الراء على المصدر. وروي عن عائشة أنها قرأت ﴿فَمِنْهَا رُكُوبَتُهُمْ﴾ وكذا في
مصحفها والركوب والركوبة واحد مثل الحلوب والحلوبة والحمول والحمولة.
وحكى النحويون الكوفيون: أن العرب تقول امرأة صبور وشكور بغير هاء.
ويقولون شاة حلوبة وناقة ركوبة؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل
وبين ما كان الفعل واقعاً عليه، فحذفوا الهاء مما كان فاعلاً وأثبتوها فيما كان
مفعولاً؛ كما قال^(١):

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم

فيجب أن يكون على هذا ركوبتهم. فأما البصريون فيقولون حذفت الهاء على النسب.
والحجة للقول الأول ما رواه الجرمي عن أبي عبيدة قال: الركوبة تكون للواحد
والجماعة والركوب لا يكون إلا للجماعة. فعلى هذا يكون لتذكير الجمع. وزعم أبو
حاتم: أنه لا يجوز ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء لأنه مصدر؛ والركوب ما يركب.
وأجاز الفراء ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء كما تقول فمناها أكلهم ومنها شربهم.
﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من لحيانها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها
وشحومها ولحومها وغير ذلك. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني ألبانها؛ ولم ينصرفا لأنهما من
الجموع التي لا نظير لها في الواحد. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه.

[٧٤] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

[٧٥] ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَمَّ جُندٌ مُخَضَّرُونَ﴾.

[٧٦] ﴿فَلَا يَمُرُّنَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُصْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم
اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل. ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لما يرجون من نصرتها

لهم إن نزل بهم عذاب. ومن العرب من يقول لعله أن يفعل. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهة. وجمعوا بالواو والنون؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين.
﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي للآلهة، ﴿جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال الحسن: يمنعون
منهم ويدفعون عنهم. وقال قتادة: أي يغضبون لهم في الدنيا. وقيل: المعنى أنهم
يعبدون الآلهة ويقومون بها، فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم.
وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وقيل: إن الآلهة جند للعابدين محضرون
معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه وهذه الأصنام لهؤلاء
الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون من عبادتهم. وقيل:
الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم. وفي الخبر: إنه يمثل
لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار، فهم لهم جند
محضرون.

قلت: ومعنى هذا الخبر ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة، وفي
الترمذي عنه أن النبي ﷺ قال: «يُجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يُطْلَعُ
عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ أَلَا لِيَتَّبِعَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ فَيُمَثَّلُ لَصَاحِبِ الصَّلِيبِ
صَلْبِيهِ وَلَصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ وَلَصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقَى
الْمُسْلِمُونَ» وذكر الحديث بطوله. ﴿فَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغة الفصيحة. ومن
العرب من يقول يُخْزِنُكَ. والمراد تسلية نبيه عليه السلام أي لا يخزئك قولهم شاعر
ساحر. وتم الكلام ثم أستاذف فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول
والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك.

[٧٧] ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ قال ابن عباس: الإنسان هو عبد الله بن أبي.
وقال سعيد بن جبیر: هو العاص بن وائل السهمي. وقال الحسن: هو أبي بن خلف
الجُمَحِي.

وقاله ابن إسحق، ورواه ابن وهب عن مالك. ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي مجادل في الخصومة مبين للحجة. يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً. وذلك أنه أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ! فقال النبي ﷺ: «نعم ويبعثك الله ويدخلك النار» فنزلت هذه الآية.

[٧٨] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

[٧٩] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة. أي جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه السلام: «نعم ويبعثك الله ويدخلك النار» ففي هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكري البعث بالنشأة الأولى. ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي بالية. رَمَّ العظم فهو رَمِيمٌ ورِمَامٌ. وإنما قال رميم ولم يقل رمية؛ لأنها معدولة عن فاعلة، وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَنتُ بِغِيَا﴾ أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية. وقيل: إن هذا الكافر قال للنبي ﷺ: أرايت إن سحقته وأذريت في الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عَجَم الذَّنْبِ. ويقال عَجِبُ الذَّنْبِ بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي كيف يبدى ويعيد.

الثانية - في هذه الآية دليل على أن في العظام حياة وأنها تنجس بالموت. وهو قول أبي حنيفة^(١) وبعض أصحاب الشافعي. وقال الشافعي رضي الله عنه: لا حياة فيها. وقد تقدّم هذا في ﴿النحل﴾. فإن قيل أراد بقوله: ﴿مَنْ يُخَيِّ الْعِظَامَ﴾ أصحاب العظام، وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير في اللغة، موجود في الشريعة. قلنا: إنما يكون إذا احتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتر إلى هذا التقدير، إذا الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه؛ قاله ابن العربي.

[٨٠] ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ﴾.

[٨١] ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

[٨٢] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

[٨٣] ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب. وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة. فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار فهو القادر على إخراج الضد من الضد، وهو على كل شيء قدير. ويعني بالآية.

(١) هذا يخالف مذهب الحنفية وما تقدّم للمؤلف في ١٥٥/١٠ من أن أبا حنيفة يقول بطهارة عظم الميتة.

ما في المَرْخ والعَفَّار، وهي زنادة العرب؛ ومنه قولهم: في كل شجر نار وأستمجد المَرْخ والعَفَّار^(١)، فالعَفَّار الرُّند وهو الأعلى، والمَرْخ الرُّندة وهي الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المساكين يقطران ماء فيحكّ بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار. وقال: ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ. ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: ﴿مِنَ شَجَرٍ مِن زُطُومٍ فَمَأْكُوتٍ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾. ثم قال تعالى محتجاً: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث. وقرأ سلام أبو المنذر ويعقوب الحضرمي: ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ على أنه فعل. ﴿بَلَى﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وقرأ الحسن باختلاف عنه ﴿الْخَالِقُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ الكسائي ﴿فَيَكُونُ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿يقول﴾ أي إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نزه نفسه تعالى عن العجز والشرك. ومَلَكُوتٌ ومَلَكُوتِي في كلام العرب بمعنى ملك. والعرب تقول: جَبَرُوتِي خيرٌ مِن رَحْمُوتِي. وقال سعيد عن قتادة: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مفاتيح كل شيء. وقرأ طلحة بن مصرف وإبراهيم التيمي والأعمش ﴿مَلَكَةُ﴾ وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف. ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تردون وتصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَمِيُّ وزر بن حُبَيْش وأصحاب عبد الله ﴿يَرْجَعُونَ﴾ بالياء على الخبر.

(١) أستمجد المرخ والعفار: أي أستكثر وأخذنا من النار ما هو حسبهما. وهو مثل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- [١] ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ .
 [٢] ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ .
 [٣] ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ .
 [٤] ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ .
 [٥] ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءة أكثر القراء. وقرأ حمزة بالإدغام فيهن. وهذه القراءة التي نقرأ منها أحمد بن حنبل لما سمعها. النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات؛ إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الذال، ولا من أخواتهن، وإنما أختها الطاء والذال، وأخت الزاي الصاد والسين، وأخت الذال الظاء والتاء. والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى. والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابة وشابة. ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف. ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ قسم؛ الواو بدل من الباء. والمعنى برب الصافات ﴿وَالزَّاجِرَاتِ﴾ عطف عليه. ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم. وأجاز الكسائي فتح إن في القسم والمراد بـ ﴿الصَّافَّاتِ﴾ وما بعدها إلى قوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. تصف في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة. وقيل: تصف أجنتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد. وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفاً. وقال الحسن: ﴿صَفًّا﴾ لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم. وقيل: هي الطير؛ دليله قوله

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾. والصفّ ترتيب الجمع على خط كالصفّ في الصلاة. ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ جمع الجمع، يقال: جماعة صافّة ثم يجمع صافّات. وقيل: الصافّات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفّاً في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري. ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه. إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السدي. وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن. ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي. وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع. وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله تعالى وكتبه. وقيل: هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليات؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضاً؛ ذكره القشيري. وذكر الماوردي أن المراد بالتاليات الأنبياء يتلون الذكر على أممهم. فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات، قيل له: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود؛ كقوله^(١):

يَا لَهْفَ زَيَّابَةٍ^(١) لِلْحَارِثِ الصِّدِّيقِ فَالْعَاسِمِ فَالْأَيْبِ

كأنه قال: الذي صَبَحَ فَنِمَ فَأَب. وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، وأعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلّقين فالمقتصرين. فعلى هذه القوانين الثلاثة يَنَسِقُ أمر الفاء العاطفة في الصفات؛ قاله الزمخشري. ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم. قال مقاتل: وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً، وكيف يسع هذا الخلق فرد إليه! فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً.

(١) هو سلمة بن ذهل ويعرف بابن زياية وزياية أبوه، وقيل أسم أمه. يقول يا لهف أبي على الحرث إذ صبح قومي بالغارة فغنم وأب سالماً ألا أكون لقيته فقتلته. ويريد يا لهف نفسي. والحرث هو الحرث بن همام الشيباني كما في «شرح أشعار الحماسة». وبعد هذا البيت:
والله لو لاقيته خالياً
لآب سيفانامع الغالب

ونزلت الآية. قال ابن الأنباري: وهو وقف حسن، ثم تبتدىء ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات. النحاس: ويجوز أن يكون ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ خبراً بعد خبر، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿وَاحِدٌ﴾.

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف على ﴿لَوَاحِدٌ﴾. وحكى الأخفش ﴿رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ بالنصب على النعت لاسم إن. بين سبحانه معنى
وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما
ومالكهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي مالك مطالع الشمس. ابن عباس:
للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلاثمائة وخمسة
وستين كوة في مطلعها، ومثلها في مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع في
كل يوم في كوة منها، وتغيب في كوة، لا تطلع في تلك الكوة إلا في ذلك اليوم من
العام المقبل. ولا تطلع إلا وهي كارهة فتقول: رب لا تطلعي على عبادك فإني
أراهم يعصونك. ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد، وابن الأنباري في كتاب الرد
عن عكرمة؛ قال: قلت لابن عباس أرايت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي
الصلت «آمن شعره وكفر قلبه» قال: هو حق فما أنكرتهم من ذلك؟ قلت: أنكروا
قوله:

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبغ لونها يتورّد
ليست بطالعة لهم في رسلها إلا معذبة ولا تجلّد

ما بال الشمس تُجلّد؟ فقال: والذي نفسي بيده ما طلعت شمس قط حتى
ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها أطلعي أطلعي، فتقول لا أطلع على قوم
يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملك فيستقلّ لضيء بني آدم، فيأتيها شيطان يريد
أن يصدّها عن الطلوع فتطلع بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قول
رسول الله ﷺ: «ما طلعت إلا بين قرني شيطان ولا غربت إلا بين قرني
شيطان وما غربت قط إلا حرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن
السجود فتغرب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها» لفظ ابن الأنباري. وذكر

عن عكرمة عن ابن عباس قال: صدَّق رسول الله ﷺ أمية بن أبي الصلت في هذا الشعر:

زُحَلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ والتسر للأخرى وليث مُرْصِدُ
والشمسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ حمراءَ يَصْبِيحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ
ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِهَا إِلَّا مُعَذِّبَةً وَإِلَّا تُجَلِّدُ

قال عكرمة: فقلت لابن عباس يا مولاي أتجلد الشمس؟ فقال: إنما أضطره الروي إلى الجلد لكنها تخاف العقاب. ودلّ بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكر المغارب، وهو كقوله: ﴿سَرَايِلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾. وخصَّ المشارق بالذكر؛ لأن الشروق قبل الغروب. وقال في سورة ﴿الرحمن﴾ ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار على ما تقدّم في ﴿يس﴾^(١) والله أعلم.

- [٦] ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ .
[٧] ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ .
[٨] ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ الْآعْلَىٰ وَيُقَدَّرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ .
[٩] ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ .
[١٠] ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَلْفَةَ فَاتَّبَعُوا شَهَابَ ثَائِبٍ﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة: خلقت النجوم ثلاثاً؛ رجوماً للشياطين، ونوراً يهتدى بها، وزينة لسماها الدنيا. وقرأ مسروق والأعمش والْبَخَمِي وعاصم وحمة ﴿بِزِينَةٍ﴾ مخفوض منون ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ خفض على البدل من ﴿زِينَةٍ﴾ لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ بالمصدر الذي هو زينة. والمعنى بأن زينا الكواكب فيها. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني؛ كأنه قال: وإنا زيناها ﴿بِزِينَةٍ﴾ أعني ﴿الْكَوَاكِبِ﴾. وقيل: هي بدل من زينة على الموضع.

ويجوز ﴿يَزِينَةُ الْكَوَكِبِ﴾ بمعنى بأن زينتها الكواكب. أو بمعنى هي الكواكب. الباقر ﴿يَزِينَةُ الْكَوَكِبِ﴾ على الإضافة. والمعنى زيننا السماء الدنيا بتزيين الكواكب. أي بحسن الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نون إلا أنه حذف التنوين استخفافاً. ﴿وَحَفْظًا﴾ مصدر أي حفظناها حفظاً. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بين أنه حرس السماء عن استراق السمع بعد أن زينها بالكواكب. والمارد العاتي من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطاناً.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قال أبو حاتم: أي لثلاث سمعوا ثم حذف أن فرفع الفعل. الملاء الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملا الأرض. الضمير في ﴿يَسْمَعُونَ﴾ للشياطين. وقرأ جمهور الناس ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بتشديد السين والميم من التسميع. فينتفي على القراءة الأولى سماعهم، وإن كانوا يستمعون وهو المعنى الصحيح. ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَفْزُولُونَ﴾. وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع منهم أستماع أو سماع. قال مجاهد: كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون. وروي عن ابن عباس ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ﴾ قال: هم لا يسمعون ولا يتسمعون. وأصل ﴿يَسْمَعُونَ﴾ يتسمعون فأدغمت التاء في السين لقربها منها. وأختارها أبو عبيد؛ لأن العرب لا تكاد تقول سمعت إليه وتقول تسمعت إليه. ﴿وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي يُرْمَوْنَ من كل جانب؛ أي بالشهب. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر؛ لأن معنى ﴿يُقَذَّفُونَ﴾ يُدَحَّرُونَ. دحرت دُحُوراً ودُحُوراً أي طردته. وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحضرمي ﴿دُحُورًا﴾ بفتح الدال يكون مصدراً على فَعُول. وأما الفراء فإنه قدره على أنه أَسَمَ الفاعل. أي ويقذفون بما يدحرون أي بدحور ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً [كما أنشدوا]^(١).

تَمُوتُونَ الدِّيارَ وَلَمْ تَعْسُجُوا

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس. والبيت لجريز وتماه:

كَلَامِكُمْ عَلَيَّ إِذْ حَرَامٌ

وأختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة ﴿الجن﴾ عن ابن عباس. وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ثم رميت؛ أي لم تكن تُرمى رمياً يقطعها عن السمع، ولكنها كانت تُرمى وقتاً ولا تُرمى وقتاً، وتُرمى من جانب ولا تُرمى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واسباً. وإنما كانوا من قبل كالمتجسدة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكل. فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها، فصاروا لا يقدرّون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوة. فإن قيل: إن هذا القذف إن كان لأجل النبوة فلم دام بعد النبي ﷺ؟ فالجواب أنه دام بدوام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: «ليس منا من تكهن» فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجن إلى تسمّعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يؤمن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة، فصح أن الحكمة تقتضي دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته ﷺ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي والسدي وأبو صالح: موجه؛ أي الذي يصل وجعه إلى القلب؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾. وقيل: الاستثناء يرجع إلى غير

الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حيثنّذ. وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته وربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه. فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع كما بيناه في ﴿الأنعام﴾^(١). فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بته. والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقض. قال النقاش ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها؛ لأنها قريبة منا. وقد مضى في هذا الباب في سورة ﴿الحجر﴾^(٢) من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في ﴿سبا﴾^(٣) حديث أبي هريرة. وفيه «والشياطين بعضهم فوق بعض» وقال فيه الترمذي حديث حسن صحيح. وفيه عن ابن عباس: «ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حقّ ولكنهم يحرفونه ويزيدون». قال هذا حديث حسن صحيح. والخطف أخذ الشيء بسرعة؛ [يقال]^(٤) خَطَفَ وَخَطِفَ وَخَطَفَ وَخَطَفَ وَخَطَفَ. والأصل في المشدّدات أختطف فأدغم التاء في الطاء؛ لأنها أختها وفتحت الخاء؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها. ومن كسرهما فلا لقاء الساكنين. ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِبٌ﴾ أي مضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما. وقيل: المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في «الشهب» تحرقهم من غير موت. وليست الشهب التي يرمي بها

(١) راجع ٣/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١٠/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٣) راجع ٢٩٦/١٤ طبعة أولى أو ثانية.

(٤) زيادة يقتضيها السياق، ويدل عليها ما في إعراب القرآن للنحاس.

من الكواكب الثوابت. يدل على ذلك رؤية حركاتها، والثابتة تجري ولا ترى حركاتها لبعدها. وقد مضى هذا. وجمع شهاب شهب والقياس في القليل أشبه وإن لم يسمع من العرب. و ﴿ثَاقِبٌ﴾ معناه مضى؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مجلز. ومنه قوله:

وَزَنَدُكَ أَثْقَبُ أَزْنَادِهَا

أي أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهْبٌ ثَقْبٌ وثواقب وثقاب. وحكى الكسائي: ثَقَبَتِ النَّارُ تَثْقُبُ ثَقَابَةً وَثُقُوباً إِذَا أَتَقَدَّتْ وَأَثْقَبْتُهَا أَنَا. وقال زيد بن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقَبَ زَنْدُكَ أَيِ اسْتَوْقَدَ نَارَكَ. وقاله الأخفش: وأنشد قول الشاعر:

بينما المرءُ شهابٌ ثاقبٌ ضَرَبَ الدهرُ سَنَاهُ فَخَمَدَ

- [١١] ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَمْ أَسْأَلُ خَلْقًا مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۖ﴾ .
 [١٢] ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ﴾ .
 [١٣] ﴿وَإِنَّا ذَكَّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۖ﴾ .
 [١٤] ﴿وَإِنَّا رَأَوْاٰ عَلَيْهِ يَنْسَخِرُونَ ۖ﴾ .
 [١٥] ﴿وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ ۖ﴾ .
 [١٦] ﴿لَوْ فَاتَيْنَا وَكَانَ لَنَا عِظْمٌ لَّوَلَا نَسْبَحُونَّ ۖ﴾ .
 [١٧] ﴿لَوْ بَآوَيْنَا الْأَوَّلُونَ ۖ﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سلهم يعني أهل مكة؛ مأخوذ من استفتاء المفتي. ﴿أَمْ أَسْأَلُ خَلْقًا مِّنْ خَلْقِنَا﴾ قال مجاهد: أي من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية. يدل على ذلك أنه أخبر عنهم ﴿بِئْسَ﴾ قال سعيد بن جبير: الملائكة. وقال غيره: ﴿مِّنْ﴾ الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشد خلقاً منهم. نزلت في أبي الأشد بن كلدة، سمي بأبي الأشد لشدة بطشه وقوته. وسيأتي في ﴿البلد﴾ ذكره. ونظير هذه ﴿لَخَلِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِّنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي لاصق؛ قاله ابن عباس. ومنه قول علي رضي الله عنه:

تَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً وَأَخْلَقَ خَيْرَ كُلِّهَا لَكَ لَازِبٌ

وقال قتادة وأبن زيد: معنى ﴿لَا زِبَ﴾ لازق. الماوردي: والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق هو الذي يلتزق بما أصابه. وقال عكرمة: ﴿لَا زِبَ﴾ لزج. سعيد بن جبیر: أي جيد حرّ يلصق باليد. مجاهد ﴿لازب﴾ لازم. والعرب تقول: طينٌ لازِبٌ ولازم، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم لايب ولازم. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيء ضرباً لازباً، وهو أفصح من لازم. قال النابغة:

ولا تَحْسَبُونَ الخَيْرَ لا شَرَّ بعدهُ ولا تَحْسَبُونَ الشرَّ ضرباً لَا زِبَ

وحكى الفراء عن العرب: طين لايب بمعنى لازم. واللايب الثابت؛ تقول منه: لَتَبَ يَلْتَبُ لَتَباً وَلَتُوباً، مثل لَزَبَ يَلْزُبُ بالضم لزوباً؛ وأنشد أبو الجراح في اللَّائِبِ:

فإِنْ يَكُ هذا من نَبِيذِ شَرِبْتُهُ فَإِنِّي من شُرْبِ النَّبِيذِ لَتَائِبُ
صُدَاعٌ وَتَوْصِيمُ الْعِظَامِ وَفَتْرَةٌ وَغَمٌّ مع الإِشْرَاقِ فِي الْجَوْفِ لَا تِبُ^(١)

واللَّاتِب أيضاً اللاصق مثل اللَّازِب، عن الأصمعي حكاه الجوهري. وقال السدي والكلبي في اللَّازِب: إنه الخالص. مجاهد والضحاك: إنه الممتن.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبي ﷺ؛ أي بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به. وهي قراءة شُريح و[أنكر قراءة الضم وقال:]^(٢) إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء. وأختارها أبو عبيد والفراء وهي مروية عن عليّ وأبن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ بضم التاء. ويروى عن ابن عباس. قال الفراء في قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأها الناس بنصب

(١) قوله: وغم مع الإشراق كرواية اللسان. ورواية الطبري: وغني مع الإشراق.

(٢) الزيادة من تفسير الألوسي.

التاء ورفعها والرفع أحب إليّ؛ لأنها عن عليّ وعبد الله وأبن عباس. وقال أبو زكريا الفراء: العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها. روى جرير والأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قرأها عبد الله يعني ابن مسعود ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قال شريح: إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب من لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إن شُرَيْحاً كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيْح وكان يقرؤها عبد الله ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾. قال الهروي: وقال بعض الأئمة معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بل جازيتهم على عجبهم؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بل جازيتهم على التعجب.

قلت: وهذا تمام معنى قول الفراء وأختره البيهقي. وقال عليّ بن سليمان: معنى القراءتين واحد التقدير قل يا محمد بل عجب؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. النحاس: وهذا قول حسن وإضمار القول كثير. البيهقي: والأول أصح. المهدوي: ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَلُ إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه - على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ - على أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً واتساعاً. قال الهروي: ويقال معنى «عَجِبَ رَبُّكُمْ» أي رضي وأثاب فسماه عجباً وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله في الحديث «عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِكُمْ وَقُتُوكُمْ». وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً. فيكون معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي بل عظم فعلهم عندي. قال البيهقي: ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» وكذلك ما أخرجه البخاري عن [أبي هريرة^(١)] عن النبي ﷺ قال «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل» [قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعَجَّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة. وقيل: معنى ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بل أنكرت. حكاها النقاش. وقال الحسين بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه وهو لغة العرب. وقد جاء في الخبر «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم». ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواو واو الحال أي عجب منهم في حال سخريتهم. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ ثم أستأنف فقال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي مما جئت به إذا تلوته عليهم. وقيل: يسخرون منك إذا دعوتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي وعظوا بالقرآن في قول قتادة. ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا ينتفعون به. وقال سعيد بن جبير. أي إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي معجزة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يسخرون في قول قتادة. ويقولون إنها سحر. وأستسخر وسخر بمعنى مثل استقر وقرّ وأستعجب وعجب. وقيل: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يستدعون السخري من غيرهم. وقال مجاهد: يستهزئون. وقيل: أي يظنون أن تلك الآية سخرية. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخيل وخداع. ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ أي أَتَبَعْتُ إِذَا مِتْنَا؟ فهو أستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي أو تبعت آبائنا. دخلت ألف الاستفهام على حرف العطف. وقرأ نافع ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو. وقد مضى هذا في سورة ﴿الأعراف﴾^(٢). في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾.

(١) الزيادة من البخاري وفي الأصل بياض. (٢) راجع ٢٥٣/٧ طبعة أولى أو ثانية.

- [١٨] ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ .
 [١٩] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ .
 [٢٠] ﴿وَقَالُوا بَلْئِنَّا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ .
 [٢١] ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي نعم تبعثون. ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون أذلاء؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون. وقيل: أي ستقوم القيامة وإن كرهتم، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة؛ قاله الحسن وهي النفخة الثانية. وسميت الصيحة زجرة؛ لأن مقصودها الزجر؛ أي يزجر بها كزجر الإبل والخيول عند السوق. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل: أي ينظرون إلى البعث الذي أنكروه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلَّ بهم. وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفراء أن تقديره يا وَيْلَ لَنَا وَوَيْلٌ بمعنى حُزن. النحاس: ولو كان كما قال لكان منفصلاً وهو في المصحف متصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً. و ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء. ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض، أي هذا اليوم الذي كذبنا به. وقيل: هو من قول الله تعالى لهم. وقيل: من قول الملائكة؛ أي هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل. ف ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

- [٢٢] ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَحَهُمْ وَمَا كَانُوا بِعِثَّةٍ﴾ .
 [٢٣] ﴿مِنْ دُونِ آتِهِ فَأَتَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيمِ﴾ .
 [٢٤] ﴿وَقَوْمٌ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ .
 [٢٥] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ .
 [٢٦] ﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ .

- [٢٧] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٢٧ .
 [٢٨] ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ٢٨ .
 [٢٩] ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ٢٩ .
 [٣٠] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ ٣٠ .
 [٣١] ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ ٣١ .
 [٣٢] ﴿فَآغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ﴾ ٣٢ .
 [٣٣] ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ٣٣ .
 [٣٤] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ٣٤ .
 [٣٥] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ٣٥ .

قوله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة: ﴿أَخْشَرُوا﴾ المشركين ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشياعهم في الشرك، والشرك الظلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فيحشر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية. وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة. وقال ابن عباس: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشباههم. وهذا يرجع إلى قول عمر. وقيل: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ نساؤهم المرافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب. وقال الضحاك: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قرناءهم من الشياطين. وهذا قول مقاتل أيضاً: يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الأصنام والشياطين وإبليس. ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي سوقوهم إلى النار. وقيل: ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾ أي دلوهم. يقال هديته إلى الطريق وهديته الطريق؛ أي دلتته عليه. وأهديت الهدية وهديت العروس، ويقال أهديتها. أي جعلتها بمنزلة الهدية.

قوله تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ وحكى عيسى بن عمر ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الهمزة. قال الكسائي: أي لأنهم وبأنهم. يقال: وقفت الدابة أفقها وقفاً فوقفت هي وقوفاً يتعدى ولا يتعدى؛ أي أحبسوهم. وهذا يكون قبل السَّوق إلى الجحيم وفيه تقديم وتأخير

أي قفوههم للحساب ثم سوقوهم إلى النار. وقيل: يساقون إلى النار أولاً ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القرطبي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ابن عباس: عن لا إله إلا الله. وعنه أيضاً: عن ظلم الخلق. وفي هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب. وقد مضى في ﴿الحجر﴾^(١) الكلام فيه. وقيل: سؤالهم أن يقال لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ إقامة للحجة. ويقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقرير والتوبيخ؛ أي ينصر بعضكم بعضاً فيمنعه من عذاب الله. وقيل: هو إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَّصِرُونَ﴾. وأصله تتناصرون فطرح إحدى التاءين تخفيفاً، وشدد البزري التاء في الوصل.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل. ابن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: متقادون. الأخفش: ملقون بأيديهم. والمعنى متقارب. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون. ويقال لا يتساءلون فسقطت لا. النحاس؛ وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ إنما هو لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدهم أسألك بالرحم الذي بيني وبينك لما نفعتني أو أسقطت لي حقاً لك عليّ أو وهبت لي حسنة. وهذا بين؛ لأن قبله ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم كما جاء في الحديث «إن الرجل ليسر بأن يصح له على أبيه أو على ابنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات». وفي حديث آخر «رحم الله أمراً كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فاستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب». و ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضاً ويوبخه في أنه أضله أو فتح له باباً من المعصية؛ يبين ذلك أن بعده ﴿إِنْ كُنْتُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. قتادة: هو قول الإنس للجن. وقيل: هو من قول

الأتباع للمتبوعين: دليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ﴾ الآية. قال سعيد عن قتادة: أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها. وعن ابن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نحبا ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح. والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح. وقيل: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدقناه وقيل: تأتوننا من قبل الدين فتهوّنون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها.

قلت: وهذا القول حسن جداً؛ لأن من جهة الدين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدين. أي كنتم تزينون لنا الضلالة. وقيل: اليمين بمعنى القوة. أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي بالقوة وقوة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

أي بالقوة والقدرة. وهذا قول ابن عباس. وقال مجاهد: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي من قبل الحق أنه معكم. وكله متقارب المعنى. ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: هذا قول الشياطين لهم. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة في ترك الحق. ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي ضالين متجاوزين الحد. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين؛ أي وجب علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب الله وأخبر على السنة الرسل ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وهذا موافق للحديث «إن الله جلّ وعزّ كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم». ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ﴾ أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ بالسوسة والاستدعاء. ثم قال خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضال والمضل. ﴿إِنَّا كَذَلِكُ﴾ أي مثل هذا الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي المشركين. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا قيل لهم قولوا فاضمر القول.

و ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنَّ وكان ملغاة. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته وأجتمع قريش «قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم» أبوا وأنفوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنزل الله تعالى في كتابه فذكر قوماً استكبروا فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. ذكر هذا الخبر البيهقي والذي قبله القشيري.

[٣٦] ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تِنَّا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾.

[٣٧] ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

[٣٨] ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.

[٣٩] ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[٤٠] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تِنَّا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي لقول شاعر مجنون، فردَّ الله جل وعز عليهم فقال: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد. ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون استخفافاً وخفضت للإضافة. ويجوز النصب كما أنشد سيبويه:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكِرٍ لِلَّهِ إِلَّا قَلِيلاً

وأجاز سيبويه ﴿والمقيم الصلاة﴾ على هذا. ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا بما عملتم من الشرك ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء ممن يذوق العذاب. وقرء أهل المدينة والكوفة ﴿المخلصين﴾ بفتح اللام يعني الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته. الباكون بكسر اللام؛ أي الذين أخلصوا الله العباد. وقيل: هو استثناء منقطع؛ أي إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب.

- [٤١] ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ .
 [٤٢] ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ .
 [٤٣] ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .
 [٤٤] ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقَابِلِينَ﴾ .
 [٤٥] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ .
 [٤٦] ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ .
 [٤٧] ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُغْرَقُونَ﴾ .
 [٤٨] ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَتُ الْأَطْرَافِ عِوَانٌ﴾ .
 [٤٩] ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ .

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ يعني المخلصين؛ أي لهم عطية معلومة لا تنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكه التي ذكر. قال مقاتل: حين يشتهونه. وقال ابن السائب: إنه بمقدار الغداة والعشي؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. ﴿فَوَاكِهُ﴾ جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ وهي الثمار كلها رطبها ويابسها؛ قاله ابن عباس. ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أي ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في بساتين يتنعمون فيها. وقد تقدم أن الجنان سبع في سورة ﴿يونس﴾^(١) منها النعيم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقَابِلِينَ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض تواصلًا وتحابياً. وقيل: الأسرة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد. وقال ابن عباس على سرر مكللة بالدرّ والياقوت والزبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عدن إلى أيلة. وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ لما ذكر مطاعهم ذكر شرابهم. والكأس عند أهل اللغة أسم شامل لكل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. قال الضحاك والسدي: كل كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح. النحاس: وحكى من يوثق به من أهل اللغة

(١) راجع ٣٢٩/٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه طعينة للهودج إذا كان فيه المرأة. وقال الزجاج: ﴿يَكْأَسُ مِنْ مَّعِينٍ﴾ أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض. والمعين الماء الجاري الظاهر. ﴿بَيِّضَاءَ﴾ صفة للكأس. وقيل: للخمر. ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشدَّ بياضاً من اللبن. ﴿لَذَّةٌ﴾ قال الزجاج: أي ذات لذة فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل أسماً أي بيضاء لذيدة؛ يقال شراب لذٌّ ولذيذ مثل نبات غَضٌّ وغضيض. فأما قول القائل^(١):

وَلِذٍ كَطَعِمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشِيَةِ الْحَدَثَانِ

فإنه يريد النوم. وقيل: ﴿بيضاء﴾ أي لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تغتال عقولهم، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي لا تذهب عقولهم بشربها، يقال: الخمر غول للجلم، والحرب غول للنفوس؛ أي تذهب بها. ويقال: نُزِفَ الرجلُ يُنْزَفُ فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر. قال امرؤ القيس:

وَإِذَا هِيَ تَمْشِي كَمْشِي النَّزِيرِ فَيَصْرَعُهُ بِالْكُثِيبِ الْبَهْرُ^(٢)

وقال أيضاً:

نَزِيفٌ إِذَا قَامَتْ لَوَجْهِ تَمَائِلَتْ تُرَاشِي الْفَوَادَ الرَّخْصَ أَلَّا تَخْتَرَا^(٣)

وقال آخر^(٤):

فَلْتَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا شَرِبَ التَّرِيفِ بِيرِدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ

(١) هو الراعي. ويروى:

وَلِذٍ كَطَعِمِ الصَّرْخَدِيِّ طَرَحْتُهُ عَشِيَةً خَمْسَ الْقَوْمِ وَالْعَيْنَ عَاشِقَهُ

والصرخد موضع ينسب إليه الشراب. أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذاراً لهم.

(٢) البهر: الكلال وانقطاع النفس. (٣) الختر: ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم.

يقول: هي سكرى من الشراب، إذا قامت به لوجه وجدت فتوراً في عظامها وكسلاً، فهي تداري فوادها وتراشيه ألا يعذبها في مشيتها. (٤) هو جميل بن معمر. وقيل البيت: لعمر بن أبي ربيعة. والحشرج نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف القوم إذا حان منهم التَّزْف وهو السُّكر. يقال: أحصد الزرع إذا حان حصاده، وأقطف الكرم إذا حان قطافه، وأركب المهر إذا حان ركوبه. وقيل: المعنى لا ينفدون شرايهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيته خمره. قال الحطيفة^(١):

لَعَمْرِي لئن أنزفتُم أو صَحَوْتُمُ لبس النَّدَامَى كَتَمُ آل أَبَجَرَ

النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى؛ لأن معنى ﴿يُنْزَفُونَ﴾ عند جَلَّةِ أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم، فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداق والسكر. ومعنى ﴿يُنْزَفُونَ﴾ الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نفذ شرايه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبداً. وقيل: ﴿لَا يُنْزَفُونَ﴾ بكسر الزاي لا يسكرون؛ ذكره الزجاج وأبو علي على ما ذكره القشيري. المهدوي: ولا يكون معناه يسكرون؛ لأن قبله ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تغتال عقولهم فيكون تكراراً؛ ويسوغ ذلك في ﴿الواقعة﴾. ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لا يمرضون فيكون معنى ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ لا يسكرون أو لا ينفد شرايهم. قال قتادة: الغول وجع البطن. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قال لا فيها وجع بطن. الحسن: صداع. وهو قول ابن عباس ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لا فيها صداع. وحكى الضحاك عنه أنه قال: في الخمر أربع خصال؛ السكر والصداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهاها عن هذه الخصال. مجاهد: داء. ابن كيسان: مغص. وهذه الأقوال متقاربة. وقال الكلبي: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي إثم؛ نظيره ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾. وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنَا وتذهبُ بالأولِ الأولِ

(١) نسبه الجوهري إلى الأبيردى. وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانياً.

أي تصرع واحداً واحداً. وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم. قال أهل المعاني: الغول فساد يلحق في خفاء. يقال: أَعْتَالَهُ أَعْتِيَالاً إذا أَفْسَدَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ فِي خَفِيَّةٍ. ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي نساء قد قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ؛ قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَغَيْرُهُمْ. عَكْرَمَةُ: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أَي مَحْبُوسَاتٌ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ. وَالتفسير الأول أبين؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ مَقْصُورَاتٌ وَلَكِنْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ يَأْتِي بَيَانُهُ، وَ﴿قَاصِرَاتٌ﴾ مَا خُذَ مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدْ أَقْتَصَرَ عَلَى كَذَا إِذَا أَقْتَنَعَ بِهِ وَعَدَلَ عَنْ غَيْرِهِ؛ قَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ:

من القاصراتِ الطَّرْفِ لَوَدَبَ مُخَوِّلٌ من الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لَأَتَرَا

ويروى: فوق الخد: والأول أبلغ. والإتْب القميص، والمحول الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضاً: معناه لَا يَغْزُونَ. ﴿عَيْنٌ﴾ عظام العيون الواحدة عينا؛ وقاله السدي. مجاهد: ﴿عَيْنٌ﴾ حسان العيون. الحسن: الشديديات يياض العين الشديديات سوادها. والأول أشهر في اللغة. يقال: رجل أعين واسع العين بَيْنُ الْعَيْنِ وَالْجَمْعِ عَيْن. وأصله فُعل بالضم فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش عَيْن والثور أعين والبقرة عينا. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ﴾ أَي مَصُون. قال الحسن وأبن زيد: شبهن ببيض النعام، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء. وقال ابن عباس وأبن جبير والسدي: شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي. وقال عطاء: شبهن بالسَّحَاءِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْقَشْرَةِ الْعُلْيَا وَلِبَابِ الْبَيْضِ. وَسَحَاءُ كُلِّ شَيْءٍ قَشْرُهُ وَالْجَمْعُ سَحَاءٌ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ. وَنَحْوُهُ قَوْلُ الطَّبْرِيِّ؛ قَالَ: هُوَ الْقَشْرُ الرَّقِيقُ الَّذِي عَلَى الْبَيْضَةِ بَيْنَ ذَلِكَ. وَرَوَى نَحْوَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَالْعَرَبُ تَشَبَّهُ الْمَرْأَةَ بِالْبَيْضَةِ لَصَفَائِهَا وَبَيَاضِهَا. قَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ:

وبَيْضَةٍ خَدِرٍ لَا يَرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرِ مُعْجَلٍ

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش.
وقيل: المكنون المصون عن الكسر أي إنهن عذاري. وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ؛ كقوله تعالى:
﴿وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي في أصدافه. قاله ابن عباس أيضاً ومنه قول الشاعر:
وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغد حواصٍ مبرزت من جوهر مكنون
وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ.

- [٥٠] ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ .
[٥١] ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ .
[٥٢] ﴿يَقُولُ أَهْتَكَ لِيَنَّ الْمُصَدِّقِينَ﴾ .
[٥٣] ﴿أَهَذَا مِنَّا وَكَأَنَّا رَبَّاءُ أَوْ عَظَمَاءُ أَوَّالِمَدِينُونَ﴾ .
[٥٤] ﴿قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطْلِعُونَ﴾ .
[٥٥] ﴿فَاتَّلَعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ .
[٥٦] ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ .
[٥٧] ﴿وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ .
[٥٨] ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ﴾ .
[٥٩] ﴿إِلَّا مَوَئِدَّتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ .
[٦٠] ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .
[٦١] ﴿لِيُثِلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا. وهو من تمام الأنس في الجنة. وهو معطوف على معنى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ المعنى يشربون فيتحدثون على الشراب كعادة الشراب. قال بعضهم:

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي صديق ملازم ﴿يَقُولُ أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي بالبعث والجزاء. وقال سعيد بن جبير: قرينه شريكه. وقد مضى في ﴿الكهف﴾ ذكرهما وقصتهما والاختلاف في أسميهما مستوفى عند قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾^(١) وفيهما أنزل الله جل وعز ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى ﴿مِنَ الْمُخَضِرِينَ﴾ وقيل: أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث. وقرىء ﴿أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بتشديد الصاد. رواه علي بن كيسة عن سليم عن حمزة. قال النحاس: ولا يجوز ﴿أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ لأنه لا معنى للصدقة هاهنا. وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة ﴿أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بتشديد الصاد وأعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدق والاعتراض باطل؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبي ﷺ فلا مجال للطعن فيها. فالمعنى ﴿أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بالمال طلباً في ثواب الآخرة. ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مجزيون محاسبون بعد الموت ف ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين. وقيل: هو من قول الملائكة. وليس ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾. باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر أي أطلعوا؛ قاله ابن الأعرابي وغيره. ومنه لما نزلت آية الخمر، قام عمر قائماً بين يدي النبي ﷺ، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم قال: يا رب بيانا أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: فنادى عمر أنتهينا يا ربنا أنتهينا يا ربنا. وقرأ ابن عباس: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ بإسكان الطاء خفيفة ﴿فَأُطْلِعَ﴾ بقطع الألف مخففة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل. قال النحاس: ﴿فَأُطْلِعَ فَرَأَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً معناه فأطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام. والقول الثاني أن يكون فعلاً ماضياً ويكون أطلع وأُطْلِعَ واحداً. قال الزجاج: يقال طَلَعَ وأُطْلِعَ وأُطْلِعَ بمعنى واحد. وقد حكى

(١) راجع ٣٩٩/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

﴿هَلْ أَنتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره. النحاس: وهو لحن لا يجوز؛ لأنه جمع بين النون والإضافة، ولو كان مضافاً لكان هل أنتم مُطْلِعِي، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله. وأنشدا:

هُمُ الْقَائِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَ إِذَا مَا خَشَوْا مِنْ مُخَدَّثِ الْأَمْرِ مُعْظَمًا

وأنشد الفراء: والفاعلون. وأنشد سيبويه وحده:

وَلَمْ يَزْتَفِقْ وَالنَّاسُ مُحْتَضِرُونَ^(١)

وهذا شاذ خارج عن كلام العرب، وما كان مثل هذا لم يحتج به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى أسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه، فجرى ﴿مُطْلِعُونَ﴾ مجرى يطلعون. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني وأنشد:

أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ بِهِ أَمْلُودًا مُرَجَّلاً وَيَلْبَسُ الْبُرُودًا

أَقَائِلُنْ أَحْضَرُوا^(٢) الشُّهُودًا

فأجرى أقائلن مجرى أتقولن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُطْلِعُونَ﴾. فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ ﴿إِنْ فِي الْجَنَّةِ كُؤَى يَنْظُرُ أَهْلُهَا مِنْهَا إِلَى النَّارِ وَأَهْلِهَا﴾. وكذلك قال كعب فيما ذكر ابن المبارك؛ قال: إِنْ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ كُؤَى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا أطلع من بعض الكؤى. قال الله تعالى: ﴿فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي في وسط النار والحسك حواليه؛ قاله ابن مسعود. ويقال: تعبت حتى أنقطع سوائي. أي وسطي. وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بن عمر كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي. وعن قتادة قال قال بعض العلماء: لولا أن الله جل وعز عرفه إياه لما عرفه، لقد تغيّر حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ^(٣). فعند ذلك يقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كَذَبْتُ لَتُزْدِنِي﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

(١) تمامه:

جميعاً وأبيدي المعتفين رواهقه

يقول: غشيه المعتفون وهم السائلون، واحتضره الناس جميعاً للعطاء، فجلس لهم جلوس متصرف متبذل غير مرتفق. (٢) وروي: أحضري؛ خطاب للمرأة، وهو الوجه، على ما أورده الرضي في «خزانة الأدب» حيث قال: ورواه العيني أحضروا بوار الجمع ولا وجه له. والرجز أورده السكري في أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ: أقائلون أعجلي الشهود. (٣) الحبر والسبر: اللون والهيئة.

تدخل على كان. ونحوه ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ في النار. وقال الكسائي: ﴿لَتُرْدِينَ﴾ أي لتهلكني والردى الهلاك. وقال المبرد: لو قيل ﴿لتردين﴾ لتوقعني في النار لكان جائزاً. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي عصمته وتوفيقه بالاستمسك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء. وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ قال الفراء: أي لكنت معك في النار محضراً. وأحضر لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرىء ﴿بِمَائَتِينَ﴾ والهمزة في ﴿أَفَمَا﴾ للاستفهام دخلت على فاء العطف، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلصون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين. ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ يكون استثناء ليس من الأول ويكون مصدراً؛ لأنه منعت. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذْبَح الموت ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت. وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يعدّون. أي هذه حالنا وصفتنا. وقيل: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لما كان ينكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مشيراً إلى ما هو فيه ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يكون ﴿هو﴾ مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إن. ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ فاصلاً. ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعد الله له في الجنة وما أعطاه قال ﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ العطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ نظير ما قال له الكافر ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً﴾. ويحتمل أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا. أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء و﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ الجزاء ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾. النحاس: وتقدير الكلام - والله أعلم - فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تدل على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها يُنَوَّى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

[٦٢] ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ ﴿٦٢﴾.

[٦٣] ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦٣﴾.

[٦٤] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٤﴾.

[٦٥] ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿٦٥﴾.

[٦٦] ﴿فَأَنَّهُمْ لَا كُؤُونَ مِنْهَا فَمَا لُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿٦٦﴾.

[٦٧] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾.

[٦٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر وهو من قول الله جل وعز. ﴿نُزْلًا﴾ على البيان؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ خير نزلاً. والنُّزْل في اللغة الرزق الذي له سعة - النحاس - وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصله النُّزْل ومنه أقيم للقوم نُزْلهم وأشتقاقه أنه الغداء الذي يصلح أن ينزلوا معه و يقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة ﴿آل عمران﴾^(١) وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها وتنتها. قال المفسرون: وهي في الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء، فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل. وأختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين أحدهما - أنها معروفة من شجر الدنيا. ومن قال بهذا أختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل. القول الثاني - إنها لا تعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقدم عليهم رجل من إفريقية فسأله فقال: هو عندنا الرُّبْد والتَّمَر. فقال ابن الزُّبَيْر: أكثر الله في بيوتنا الزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: رَقْمِينَا؛ فأنته بزبد وتمر. ثم قال لأصحابه: تَرْقُمُوا؛ هذا الذي يخوفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة وهي تحرق الشجر؟ وقد مضى هذا المعنى في ﴿سبحان﴾^(١) وأستخافهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. ما الذي يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم: أنا أكفيكم منهم كذا فأكفوني الباقين. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والفتنة الاختبار، وكان هذا القول منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار. وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراف واللوح والقلم على معاني زورواها في أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن. وقيل إنها فتنة أي عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي قعر النار ومنها منشؤها ثم هي متفرعة في جهنم. ﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرها؛ سمي طلعا لطلوعه. ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قيل: يعني الشياطين بأعيانهم شبهها برؤوسهم لقبحهم، ورؤوس الشياطين متصوّر في النفوس وإن كان غير مرئي. ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة هو كصورة ملك. ومنه قوله تعالى مخبراً عن صواحب يوسف: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وهذا تشبيه تخيلي؛ روي معناه عن ابن عباس والقرطبي. ومنه قول امرئ القيس:

وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنِيَابِ أَغْوَالٍ^(٢)

(١) راجع ٢٨٣/١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) أراد بالمسنونة الزرق سهاماً محددة الأزجة صافية. وصدر البيت:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفَنِي مَضَاجِعِي

وإن كانت الغول لا تعرف؛ ولكن لما تصوّر من قبورها في النفوس. وقد قال الله تعالى: ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ﴾ فمردة الإنس شياطين مرئية. وفي الحديث الصحيح «ولكأن نخلها رؤوس الشياطين» وقد أدعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان. وقال الزجاج والفراء: الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسماً. قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُزْف:

عَنْجَرِدُ تَخْلِفُ حِينَ أَحْلِفُ كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أَغْرِفُ

الواحدة حَمَاطَة والأعراف الذي له عُزْف. وقال الشاعر يصف ناقته:

تُلَاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ تَعَمَّجُ شَيْطَانٍ بَذِي خِرْزُوعٍ قَفْرِ

التَّعَمَّجُ الاعوجاج في السير، وسهم عَمُوج يتلوّى في ذهابه، وتَعَمَّجَت الحية إذا تلوّت في سيرها. وقال يصف زمام الناقة^(١):

تُلَاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ تَعَمَّجُ شَيْطَانٍ بَذِي خِرْزُوعٍ قَفْرِ

وقيل: إنما شبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب. الزمخشري: هو شجر خشن متن مرّ منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين. النحاس: وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة. وقال في ﴿الغاشية﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وسيأتي. ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ الشَّوْبُ الخلط، والشَّوْبُ والشَّوْبُ لغتان كالفقر والفقر والفتح أشهر. قال الفراء: شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة. فأخبر أنه يشاب لهم. والحميم الماء الحار ليكون أشنع. قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾. السدي: يشاب لهم الحميم بغساق أعينهم وصديد من قبحهم ودمائهم. وقيل يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم؛ تغليظاً لعذابهم وتجديداً

(١) كذا في الأصل ولعل العبارة والبيت هنا تكرر مع ما سبق، وصواب العبارة الأولى «قال الشاعر يصف زمام ناقته» بزيادة لفظ زمام.

لبلائهم. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ قيل: إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ثم يردون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾. وقرأ ابن مسعود ﴿ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وقال أبو عبيدة: يجوز أن تكون ﴿ثم﴾ بمعنى الواو. القشيري: ولعل الحميم في موضع من جهنم على طرف منها.

[٦٩] ﴿إِنَّهُمْ أَلقُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾.

[٧٠] ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

[٧١] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

[٧٢] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

[٧٣] ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾.

[٧٤] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلقُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي صادفهم كذلك فأقتدوا بهم. ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي يسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الهرولة. قال الفراء: الإهرع الإسراع برعدة. وقال أبو عبيدة: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُسْتَحْثُونَ من خلفهم. ونحوه قول المبرد. قال: المهرع المستحث؛ يقال: جاء فلان يهرع إلى النار إذا أستحثه البرد إليها. وقيل: يُزْعَجُونَ من شدة الإسراع؛ قاله الفضل. الزجاج: يقال هُرِعَ وأُهرِعَ إذا أستحث وأزعج.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي من الأمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي رسلاً أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي آخر أمرهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذين أستخلصهم الله من الكفر. وقد تقدم^(١). ثم قيل: هو استثناء من ﴿المنذرين﴾. وقيل هو من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

- [٧٥] ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾^(٧٥) .
- [٧٦] ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(٧٦) .
- [٧٧] ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٧٧) .
- [٧٨] ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾^(٧٨) .
- [٧٩] ﴿سَلَّمْهُ عَلَيْنَا نُوحًا فِي الْمُنَافِقِينَ﴾^(٧٩) .
- [٨٠] ﴿إِنَّا كُنَّا نَحْنُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٨٠) .
- [٨١] ﴿إِنَّمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨١) .
- [٨٢] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾^(٨٢) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا قيل بمسألة هلاك قومه. فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ قال الكسائي: أي ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ له كنا. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني أهل دينه، وهم من آمن معه، وكانوا ثمانين على ما تقدم^(١). ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الغرق. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه؛ فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾. وقال سعيد بن المسيّب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحشة والقطط والبربر وغيرهم، وياث أبو الصقالبة والترك [واللان]^(٢) والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل؛ بدليل قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾. وقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتُّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعلى هذا معنى الآية ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ دون ذرية من كفر فإننا أغرقنا أولئك.

(١) راجع ٣٥/٩ طبعة أولى أو ثانية. (٢) في «الأصول»: «والأبر» ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم والذي ذكره المسعودي وغيره واللان من ولد يافث.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحَبَّبٌ إِلَى الْجَمِيعِ؛ حتى إن في المجوس من يقول إنه أفريدون. روي معناه عن مجاهد وغيره. وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ أي تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرّد. أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المحكي؛ كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾. والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه؛ وتم الكلام ثم أبتدأ فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ أي سلامة له من أن يذكر بسوء ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾. قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود ﴿سلاماً﴾ منصوب بـ ﴿تركنا﴾. أي تركنا عليه ثناءً حسناً سلاماً. وقيل: ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ أي في أمة محمد ﷺ. وقيل: في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا أمر بالافتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾. وقال سعيد بن المسيّب: وبلغني أنه من قال حين يمسي ﴿سلامٌ على نوحٍ في العالمين﴾ لم تلدغه عقرب. ذكره أبو عمر في التمهيد. وفي «الموطأ» عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: «من نزل منزلاً فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل». وفيه عن أبي هريرة أن رجلاً من أسلم قال: ما نمت هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «من أي شيء» فقال: لدغني عقرب؛ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرَّك».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نبقي عليهم الثناء الحسن. والكاف في موضع نصب. أي جزاء كذلك. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان إحسانه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي من كفر. وجمعه آخر. والأصل فيه أن يكون معه ﴿مِنْ﴾ إلا أنها حذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخر إلا وقبله شيء من جنسه. و ﴿ثُمَّ﴾ ليس للتراخي ها هنا بل هو لتعديد النعم؛ كقوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أي ثم أخبركم أنني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان.

[٨٣] ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ .

[٨٤] ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

[٨٥] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ .

[٨٦] ﴿أَفَكَاكَ إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ .

[٨٧] ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

[٨٨] ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ .

[٨٩] ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ .

[٩٠] ﴿فَنَوَلُّوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابن عباس: أي من أهل دينه. وقال مجاهد: أي على مناهجه وسنته. قال الأصمعي: الشيعة الأعوان، وهو مأخوذ من الشيع، وهو الحطب الصغير الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء: المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم. فالهاء في ﴿شيعة﴾ على هذا للمحمد عليه السلام. وعلى الأول لنوح وهو أظهر، لأنه هو المذكور أولاً، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبئان هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة. حكاه الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي مخلص من الشرك والشك. وقال عوف الأعرابي: سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم؟ فقال: الناصح لله عز وجل في خلقه. وذكر الطبري عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجاج: مسكين أبو محمد إن عذبه الله فبذنبه، وإن غفر له فهنيئاً له، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوب من هو خير منه. قال عوف: فقلت لمحمد ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يابتي لا تكونوا لعانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثاني عند إلقائه في النار. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر وقد مضى الكلام^(١) فيه. ﴿وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تكون ﴿ما﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿ذا﴾ خبره. ويجوز أن تكون

﴿مَا﴾ و ﴿ذَا﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿أَفْكَ﴾ نصب على المفعول به بمعنى أتريدون إفكا. قال المبرد: والإفك أسوأ الكذب، وهو الذي لا يثبت ويضطرب، ومنه أتفتكت بهم الأرض. ﴿آلِهَةٌ﴾ بدل من إفك ﴿دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾ أي تعبدون. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين. ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره فهو تحذير، مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. وقيل: أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ابن زيد عن أبيه: أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدنا فأخرج معنا. فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمتي. وكان علم النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم. وقال ابن عباس: كان علم النجوم من النبوة، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها علماً نبوياً. وحكى جُوَيْر عن الضحاك: كان علم النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين علمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم لا تفهمهم في علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد؛ فصار حكمها في الشرع محظوراً، وعلمها في الناس مجهولاً. قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هِرْمَزْجَرْد^(١)، وكانوا ينظرون في النجوم. فهذا قول. وقال الحسن: المعنى أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل. فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأي؛ أي فيما طلع له منه، فعلم أن كل حيّ يسقم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره نظر في النجوم. وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تغشاه فيها الحمى. وقيل: المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقاً

(١) ذكر هذا الاسم الطبري في تاريخه ٣٤٦/٢ طبعة ليدن م ١.

ومدبراً، وأنه يتغير كتغيرها فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقال الضحاك: معنى ﴿سَقِيمٌ﴾ سَأَسْقَمُ سَقَمَ الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملك لما سأله عن سارة هي أختي؛ يعني أخوة الدين. وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضاً: أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، ﴿فَ﴾ لذلك ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي فَارِينَ منه خوفاً من العدوى. وروى الترمذي الحكيم قال: حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس. وعن سَمُرَةَ عن الهَمْدَانِي عن ابن مسعود قال قال أبو إبراهيم: إن لنا عيداً لو خرجت معنا لأعجبك ديننا. فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إني سقيم أشكي رجلي، فوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾. قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارض لما قال ابن عباس وابن جبير؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران.

قلت: وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ» الحديث. وقد مضى في سورة ﴿الأنبياء﴾^(١). وهو يدل على أنه لم يكن سقيماً وإنما عَرَّضَ لهم. وقد قال جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة. وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا، ومنه المثل السائر^(٢) ﴿كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً﴾ وقول ليبيد:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً
لِيُصِحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح! فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه! فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم وأصطفائهم عُدَّ هذا ذنباً؛ ولهذا قال ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقد مضى هذا كله مبيناً والحمد^(٣) لله. وقيل: أراد سقيم النفس لكفرهم. والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحداً مصدرأ.

(١) راجع ٣٠٠/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس حديثاً عن ابن عباس بإسناد ضعيف. (٣) راجع ٣٠٠/١١ و ١١/١٣ طبعة أولى أو ثانية.

- [٩١] ﴿فَرَأَىٰ إِلَىٰ الْعَذِيبِ فَقَالَ أَلَا تَانْكُونَ﴾ ﴿٩١﴾ .
 [٩٢] ﴿مَالَكُمْ لَا نُنْطِقُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ .
 [٩٣] ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صُرًى بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٩٣﴾ .
 [٩٤] ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ .
 [٩٥] ﴿قَالَ اتَّعْبِدُونَ مَا نَسْجُدُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ .
 [٩٦] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ﴾ قال السدي: ذهب إليهم. وقال أبو مالك: جاء إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عدل. والمعنى: متقارب. فراغ يرؤغ روعا ورؤغانا إذا مال. وطريق رائغ أي مائل. وقال الشاعر:

وَيُرِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةَ وَيُرْوِعُ عَنْكَ كَمَا يُرْوِعُ الثَّعْلُبُ

فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾. قيل: كان بين يدي الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم. وقيل: تركوه للسدنة. وقيل: قَرَب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد؛ قاله الضحاک والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حلفها حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾. وقال الفراء وثعلب: ضرباً بالقوة واليمين القوة. وقيل: بالعدل واليمين هاهنا العدل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال. ألا ترى أن العدو عن الشمال والمعاصي عن الشمال والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي من قِبَل الطاعة. فاليمين هو موضع العدل من المسلم والشمال موضع الجور. ألا ترى أنه بايع الله يمينه يوم الميثاق، فالبيعة باليمين؛ فلذلك يُعْطَى كتابه غدا يمينه؛ لأنه وفى بالبيعة، ويُعْطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله؛ لأن الجور هناك. فقلوه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي بذلك العدل الذي كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفى له هاهنا. فجعل تلك الأوثان جُذَازًا، أي فُتَاتًا كالجذيدة

وهي السَّوِيق وليس من قبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم. ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ﴾ قرأ حمزة ﴿يَزِفُونَ﴾ بضم الياء. الباقون بفتحها. أي يسرعون؛ قاله ابن زيد. قتادة والسدي: يمشون. وقيل: المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء. وقيل: المعنى يتسللون تسلا بين المشي والعَدُو، ومنه زَفِيف النعامة. وقال الضحاك: يسعون. وحكى يحيى بن سلام: يُرْعَدُونَ غضبا. وقيل: يختالون وهو مشي الخيلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أُجِدَّ زَفاف العروس إلى زوجها. وقال الفرزدق:

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا يَزِفُ وجاءت خَلْفَهُ وهي زُفَّتُ^(١)

ومن قرأ ﴿يَزِفُونَ﴾ فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزفت الإبل أي حملتها على أن تزف. وقيل: هما لغتان يقال زَفَّ القَوْمُ وأزفُوا وزفت العروس وأزفتها وأزدفتها بمعنى، والمزقة المحقة التي تزف فيها العروس. حكى ذلك عن الخليل. النحاس: ﴿يَزِفُونَ﴾ بضم الياء زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبهها بقولهم: أطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك وطرדתه نحيته؛ وأنشد هو وغيره:

تمنّى حُصَيْنٌ أن يسودَ جِذَاعَهُ فأمسى حُصَيْنٌ قد أُذِلَّ وأقهرًا^(٢)

أي صير إلى ذلك؛ فكَذَلِكَ ﴿يَزِفُونَ﴾ يصيرون إلى الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحق: الزفيف أول عَدُو النعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوما قرءوا ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ﴾ خفيفة من وَزَفَ يَزِفُ مثل وَزَنَ يَزِنُ. قال النحاس: فهذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئا. وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف ﴿يَزِفُونَ﴾ مخففة. قال الفراء: وأنا لا أعرفها. قال

(١) القرية: الفحل المختار للضراب. الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس، وهي الناقة التي أتى عليها حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها. وإفالها: صغارها. يزف: يعدو. يريد أن القرية يفر من شدة البرد وكذا الإفال.

(٢) البيت للمخبل السعدي يهجو الزبرقان وقومه، وهم المعروفون بالجذاع. والأصمعي يرويه كما في اللسان مادة قهر؛ قد أذل وأقهر بالبناء للمعلوم؛ أي صار أمره إلى الذل والقهر.

أبو إسحق: وقد عرفها غيرهما [أنه يقال] ^(١) وَزَفَ يَزِفُ إذا أسرع. قال النحاس: ولا نعلم أحداً قرأ يَزِفُونَ.

قلت: هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي. الزمخشري: و ﴿يَزِفُونَ﴾ على البناء للمفعول؛ و ﴿يَزِفُونَ﴾ من زَفَاه إذا حَدَاه؛ كَأَنَّ بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه. وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وأبن السَّمِيعِ ﴿يَزِفُونَ﴾ بالراء [من] رفيف النعام وهو ركض بين المشي والطيران.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أي قالوا من فعل هذا بِالْهَتْنِ، فقال محتجاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم تنجرونها. والنَّحَتِ النجر والبري؛ نحته ينحته بالكسر نحاً أي براه والنُّحَاتُ البرَايَةُ والمنحَت ما ينحت به. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَا﴾ في موضع نصب أي وخلق ما تعملونه من الأصنام، يعني الخشب والحجارة وغيرهما. كقوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وقيل: إن ﴿مَا﴾ أستفهام ومعناه التحقير لعملهم. وقيل: هي نفي والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه. والأحسن أن تكون ﴿مَا﴾ مع الفعل مصدراً، والتقدير والله خلقكم وعملكم. وهذا مذهب أهل السنة أن الأفعال خلق الله عز وجل واكتساب للعباد. وفي هذا إبطال مذاهب القَدَرِيَّة والجَبَرِيَّة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعتة» ذكره الثعلبي. وخرجه البيهقي من حديث حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعتة فهو الخالق وهو الصانع سبحانه» وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

[٩٧] ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

[٩٨] ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَتْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ أي تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدم في ﴿الأنبياء﴾^(١) بيانه فـ ﴿قَالُوا أَأَتْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ تملثونه حطباء فتضرمونه، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم. قال ابن عباس: بنوا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وملثوه ناراً وطرحوه فيها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل. والألف واللام في ﴿الجحيم﴾. تدل على الكناية؛ أي في جحيمه؛ أي في جحيم ذلك البنيان. وذكر الطبري أن قاتل ذلك اسمه الهيزن^(٢) رجل من أعراب فارس وهم الترك، وهو الذي جاء فيه الحديث «بينما رجل يمشي في حُلَّة له يتبخر فيها فخشف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» والله أعلم. ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي بإبراهيم والكيد المكر أي أحتالوا لإهلاكه. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.

[٩٩] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِي﴾.

[١٠٠] ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

[١٠١] ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة. وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه ﴿سَيَّهْدِي﴾ فيما نويت إلى الصواب. قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة، إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام. وقيل: ذاهب بعملتي وعبادتي وقلبي ونيتي. فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن. وقدم مضى بيان هذا في ﴿الكهف﴾^(٣) مستوفى. وعلى الأول بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس.

(١) راجع ٣٠٣/١١ طبعة أولى أو ثانية. (٢) تقدم في ٣٠٣/١١ أن اسمه هيزر.

(٣) راجع ٣٦/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وقيل: خرج إلى حَرَّان فأقام بها مدة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله فيكون ذلك منه ترغيباً. وقيل: قال هذا قبل إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما - إني ذاهب إلى ما قضاه عليّ ربي. الثاني - إني ميت كما يقال لمن مات قد ذهب إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تلف ما يلقي فيها، إلى أن قيل لها ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فحينئذ سلم إبراهيم منها. وفي قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ على هذا القول تأويلان: أحدهما - ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى الخلاص منها. الثاني - إلى الجنة. وقال سليمان بن صُرَد وهو ممن أدرك النبي ﷺ: لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحطب، فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول: أذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا؛ فلما ذُهِبَ به ليطرح في النار ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ فلما طرح في النار قال: (حسبي الله ونعم الوكيل) فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فقال أبو لوط وكان ابن عمه: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني. فأرسل الله عنقاً من النار فأحرقه.

الثانية - قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما عرفه الله أنه مخلصه دعا الله ليعضده بولد يأنس به في غربته. وقد مضى في ﴿آل عمران﴾^(١) القول في هذا. وفي الكلام حذف أي هب لي ولداً صالحاً من الصالحين وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي إنه يكون حليماً في كبره فكأنه بُشِّرَ ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرية على السنة الملائكة كما تقدّم في ﴿هود﴾^(٢). ويأتي أيضاً في ﴿الذاريات﴾^(٣).

[١٠٢] ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَاتٍ مُّذْ بَنَيتُ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَكُونُ أُفْلٌ كَافِلًا ۚ﴾

(١) راجع ٧٣/٤ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٦٢/٩ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) في تفسير آية ٢٨ من السورة المذكورة.

- [١٠٣] ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .
- [١٠٤] ﴿ وَتَدَبَّرْنَاهُ أَنْ يَتَابَرَهِيمُ ﴾ .
- [١٠٥] ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .
- [١٠٦] ﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُنِينُ ﴾ .
- [١٠٧] ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ .
- [١٠٨] ﴿ وَزَكَّيْنَاهُ فِي الْآخِرِينَ ﴾ .
- [١٠٩] ﴿ سَلَّمَ عَلَيْنَا يَبْرَاهِيمَ ﴾ .
- [١١٠] ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .
- [١١١] ﴿ إِنَّا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
- [١١٢] ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .
- [١١٣] ﴿ وَزَكَّيْنَاهُ عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ .

فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ ﴾ أي فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذي يسعى مع أبيه في أمور دنياه معينا له على أعماله ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ . وقال مجاهد: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ ﴾ أي شب وأدرك سعيه سعي إبراهيم . وقال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة . وقال ابن عباس: هو الاحتلام . فتادة: مشى مع أبيه . الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة . ابن زيد: هو السعي في العبادة، ابن عباس: صام وصلى ألم تسمع الله عز وجل يقول ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ .

وأختلف العلماء في المأمور بذبحه . فقال أكثرهم: الذبيح إسحق . وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وأبنة عبد الله وهو الصحيح عنه . روى الثوري وأبن جريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحق . وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له : يابن الأشياخ الكرام . فقال عبد الله: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم . وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام» .

وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحق. وذلك مروى أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وعن عبد الله بن عمر أن الذبيح إسحق. وهو قول عمر رضي الله عنه. فهؤلاء سبعة من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم علقمة والشَّعْبِي ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي بزة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط^(١) والزهرّي والسديّ وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس، كلهم قالوا: الذبيح إسحق. وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره غير واحد منهم النحاس^(٢) والطبري وغيرهما. قال سعيد بن جبیر: أرى إبراهيم ذبح إسحق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من مئى؛ فلما صرف الله عنه الذبيح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه، وسار به مسيرة شهر في رَوْحَة واحدة طويت له الأودية والجبال. وهذا القول أقوى في النقل عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين. وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة. وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشَّعْبِي ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرْظِي والكلبي وعلقمة. وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

نَطَقَ الْكِتَابُ بِذَاكَ وَالتَّنْزِيلُ	إِنَّ الذَّبِيحَ هُدَيْتَ إِسْمَاعِيلُ
وَأَتَى بِهِ التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ	شَرَفَ بِهِ خَصَّ إِلَهِ نَبِيَّنَا
شَرَفَ بِهِ قَدْ خَصَّهِ التَّفْضِيلُ	إِنْ كُنْتَ أُمَّتَهُ فَلَا تُنْكِرْ لَهُ

وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة. وروي عن النبي ﷺ «أن الذبيح

(١) في التهذيب قال ابن أبي خيثمة سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط ومن قال عبد الرحمن بن سابط فقد أخطأ، وكذا ذكره البخاري. وفي اسم أبيه خلاف.

(٢) في نسخة: النقاش.

إسماعيل» والأول أكثر عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين. واحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وأبن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهِدِينَ﴾ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْزُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ ولأن الله قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّرَ به إبراهيم وإنما بُشِّرَ بإسحق؛ لأنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ وقال هنا: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشِّرَ بولد إلاَّ إسحق. احتج من قال إنه إسماعيل: بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبياً، وأيضاً فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكرش في الكعبة، فدل على أن الذبيح إسماعيل، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس. وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع؛ أما قولهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبياً، فإنه يحتمل أن يكون المعنى؛ وبشرناه بنبوته بعد أن كان من أمره ما كان؛ قاله ابن عباس. وسيأتي. ولعله أُمر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب. ويقال لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدّم. وقال الزجاج: الله أعلم أيهما الذبيح، وهذا مذهب ثالث.

الثانية - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾

قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات. وقال محمد بن كعب:

كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظاً ورقوداً، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم. وهذا ثابت في الخبر المرفوع. قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا». وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي؛ وأستدل بهذه الآية. وقال السدي: لما بُشِّرَ إبراهيمُ بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذاً لله ذبيح. فقيل له في منامه: قد نذرت نذراً قَفَ بنذكرك. ويقال: إن إبراهيم رأى في ليلة التزوية كأن قاتلاً يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح رَوَى في نفسه أي فَكَرَّ أهدأ الحُلُم من الله أم من الشيطان؟ فسَمَّى يوم التزوية. فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضاً وقيل له الوعد، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فَسَمَّى يوم عرفة. ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فَهَمَّ بنحره فَسَمَّى يوم النَّحر. وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر. فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر والحمد لله. فبقي سنة. وقد اختلف الناس في وقوع هذا الأمر وهي:

الثالثة - فقال أهل السنة: إن نفس الذبيح لم يقع، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبيح، ولو وقع لم يُتَصَوَّر رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغ من أمثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾: أي حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم أمتنعت لما منعناك. هذا أصح ما قيل به في هذا الباب. وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. وأستدل على هذا بقول مجاهد: قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إليّ فترحمني. ولكن أجعل وجهي إلى الأرض، فأخذ إبراهيم السكين فأمرها على حلقه فانقلبت. فقال له ما لك؟ قال: أنقلبت السكين. قال أطعني بها طعناً. وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التأم. وقالت طائفة: وجد حلقه نحاساً أو مغشًى بنحاس، وكان كلما أراد قطعاً وجد منعاً. وهذا كله جائز في القدرة الإلهية، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر. ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعالى تعظيماً لرتبة إسماعيل

وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفداء. وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فُزْي الأوداج وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ وهذا كله خارج عن المفهوم. ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم. وأيضاً لو صحت هذه الأشياء لما احتجج إلى الفداء.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿مَاذَا تُرِي﴾ بضم التاء وكسر الراء من أَرِي يُرِي. قال الفراء: أي فأنظر ماذا ترى من صبرك وجزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، وإنما قال العلماء ماذا تشير: أي ما تريك نفسك من الرأي. وأنكر أبو عبيد ﴿تُرِي﴾ وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم. النحاس: وهذا غلط، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور، يقال: أريت فلاناً الصواب وأريته رشده، وهذا ليس من رؤية العين. الباقر ﴿تَرَى﴾ مضارع رَأَيْتَ. وقد روي عن الضحاك والأعمش ﴿تُرَى﴾ غير مسمى الفاعل. ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، أو لتقر عينه إذا رأى من أبنه طاعة في أمر الله فـ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذف الهاء؛ كقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ أي أصطفاهم على ما تقدم^(١). و ﴿مَا﴾ بمعنى الذي. ﴿سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ قال بعض أهل الإشارة: لَمَّا أَسْتَشْنَى وَفَقَهُ اللَّهُ لِلصَّبْرِ. وقد مضى الكلام في ﴿يَا أَبَتِ﴾ وكذلك في ﴿يَا بُنَيَّ﴾ في ﴿يوسف﴾^(٢) وغيرها.

(١) راجع ١٣/٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٩/١٢١ طبعة أولى أو ثانية. و ١٣٦/٢ طبعة ثانية.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا﴾ أي أنقادا لأمر الله. وقرأ ابن مسعود وأبن عباس وعليّ رضوان الله عليهم ﴿فَلَمَّا سَلَمًا﴾ أي فوضا أمرهما إلى الله. وقال ابن عباس: أستسلما. وقال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر أبنه. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ قال قتادة: كبه وحول وجهه إلى القبلة. وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ فديناه بكبش. وقال الكوفيون: الجواب ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ والواو زائدة مقحمة، كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا﴾ أي أوحينا. وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ. وَأَقْتَرَبَ﴾ أي أقرب. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ﴾ أي قال لهم. وقال عمرو القيس:

فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَنْتَحَى^(١)

أي أنتحى والواو زائدة. وقال أيضاً:

حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ بُطُونَكُمْ وَرَأَيْتُمْ أَبْنَاءَكُمْ شَبَّوْا
وَقَلْبُتُمْ ظَهَرَ الْمَجْنُنْ لَنَا إِنْ اللَّئِيمَ الْفَاجِرَ الْخَبْ

أراد قلبتم. النحاس: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزداد. وفي الخبر: إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب، وأكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أُمي فتحزن، وأسرع مرَّ السكين على حَلْقِي ليكون الموت أهون عليّ وأقذني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني؛ ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أُمي فأقرئها مني السلام. فلما جَرَّ إبراهيم عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحرَّ في قفاه فلم تعمل السكين شيئاً. فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ كذلك قال ابن عباس: معناه كبه على وجهه فنودي ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فالتفت فإذا بكبش. ذكره المهدوي. وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهياً للعمل؛ هذا بهيئة

الذبح، وهذا بصورة المذبوح، أعطيا محلاً للذبح فداء ولم يكن هنا مّر سكين. وعلى هذا يتصور النسخ قبل الفعل على ما تقدم. والله أعلم قال الجوهري: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه؛ كما تقول: كبه لوجهه. الهروي: والتل الدفع والصرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه: «وتركوك لِمَتَّلَكَ» أي لمصرعك. وفي حديث آخر: «فجاء بناقة كَوْمَاءَ فَتَلَّهَا» أي أناخها وفي الحديث «بينا أنا نائم أُوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فُتِلَّت في يدي» قال ابن الأنباري: أي فألقيت في يدي، يقال: تَلَّت الرجل إذا ألقيته. قال ابن الأعرابي: فَصَبَّت في يدي؛ والتَّل الصَّب، يقال: تَلَّ يَتَلُّ إذا صبَّ، وتَلَّ يَتَلُّ بالكسر إذا سقط. قلت: وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء» فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصبي منك أحداً. قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده؛ يريد جعله في يده. وقال بعض أهل الإشارة: إن إبراهيم أدعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة؛ فقليل له: يا إبراهيم أذبح ولدك في مرضاتي، فشمروا وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال: اللهم تقبله مني في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكلية إلينا رددنا ولدك إليك. وقال كعب وغيره: لما أرى إبراهيم ذبح ولده في منامه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً. فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال: أتدريين أين يذهب إبراهيم بأبنك؟ قالت لا. قال: إنه يذهب به ليذبحه. قالت: كلا هو أراف به من ذلك. فقال: إنه يزعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه. ثم أتى الغلام فقال: أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فليفعل ما أمره الله به، سمعاً وطاعة لأمر الله. ثم جاء إبراهيم فقال: أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك

بذبح أبنتك. فعرفه إبراهيم فقال: إليك عني يا عدوّ الله فوالله لأمضين لأمر ربي. فلم يصب، الملعون منهم شيئاً. وقال ابن عباس: لما أمر إبراهيم بذبح أبنته عرض له الشيطان عند جمره العقبة فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب ثم عرض له عند الجمره الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمره الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى. وأختلف في الموضع الذي أراد ذبحه [فيه] فقيل: بمكة في المقام. وقيل: في المنحر بمنى عند الجمار التي رمي بها إبليس لعنه الله، قاله ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيّب. وحكى عن سعيد بن جبير أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل بُيُوتِ بَيْمَنَى. وقال ابن جُرَيْج: ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين. والأول أكثر؛ فإنه ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أنه ذبحه بمكة. وقال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد ييس. أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام: لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة. والله أعلم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نجزيهم بالخلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي النعمة الظاهرة. يقال: أبلاه الله إبلاءً وبلاءً إذا أنعم عليه. وقد يقال: بلاءه. قال زهير:

فأبلاههما خَيْرَ البلاء الذي يَبْلُو^(١)

فزع قوم أنه جاء باللغتين. وقال آخرون: بل الثاني من بلاءه يَبْلُوهُ إذا أختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بلاءه يَبْلُوهُ، ولا يقال من الابتلاء ببلوه. وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال الله عز وجل: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. وقال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح أبنته؛ قال: وهذا من البلاء المكروه.

(١) صدر البيت:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم

السابعة - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَنَافُ يَذْبَحِ عَظِيمٌ﴾ الذَّبْحُ أَسْمُ الْمَذْبُوحِ وَجَمْعُهُ ذَبُوحٌ، كَالطَّخَنِ أَسْمُ الْمَطْحُونِ. وَالذَّبْحُ بِالْفَتْحِ الْمَصْدَرُ. ﴿عَظِيمٌ﴾ أَي عَظِيمُ الْقَدْرِ وَلَمْ يَرِدْ عَظِيمُ الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا عَظُمَ قَدْرُهُ لِأَنَّهُ فَدَى بِهِ الذَّبِيحَ؛ أَوْ لِأَنَّهُ مَتَقَبَّلٌ. قَالَ النَّحَّاسُ: عَظِيمٌ فِي اللُّغَةِ يَكُونُ لِلْكَبِيرِ وَلِلشَّرِيفِ. وَأَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُ هَاهُنَا لِلشَّرِيفِ، أَوْ الْمَتَقَبَّلِ. وَقَالَ أَبُو عَبَّاسٍ: هُوَ الْكَبِشُ الَّذِي تَقَرَّبَ بِهِ هَابِيلُ، وَكَانَ فِي الْجَنَّةِ يَرْعَى حَتَّى فَدَى اللَّهَ بِهِ إِسْمَاعِيلَ. وَعَنْهُ أَيْضاً: إِنَّهُ كَبَشَ أَرْسَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ كَانَ قَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا فُدِيَ إِسْمَاعِيلُ إِلَّا بِتَيْسٍ مِنَ الْأَرُوى هَبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثَبِيرٍ، فَذَبَحَهُ إِبْرَاهِيمُ فِدَاءً عَنْ أَبْنِهِ، وَهَذَا قَوْلُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ أَخْذَهُ فَذَبَحَهُ وَأَعْتَقَ أَبْنَهُ. وَقَالَ: يَا بَنِي الْيَوْمِ وَهَيْتَ لِي. وَقَالَ أَبُو إِسْحَقَ الزَّجَّاجُ: قَدْ قِيلَ أَنَّهُ فَدَى بُوْعْلَ وَالْوَعْلَ التَّيْسَ الْجَبَلِيَّ. وَأَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُ فُدِيَ بِكَبْشٍ.

الثامنة - في هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهذا مذهب مالك وأصحابه. قالوا: أفضل الضحايا الفحول من الضأن وإناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر. وحجتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ يَنَافُ يَذْبَحِ عَظِيمٌ﴾ أَي ضَخْمُ الْجَنَّةِ سَمِينٌ، وَذَلِكَ كَبَشٌ لَا جَمْلَ وَلَا بَقْرَةَ. وَرَوَى مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلًا إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحِرَ أَبْنِي فَقَالَ: يَجْزِيكَ كَبَشٌ سَمِينٌ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَقَدْ يَنَافُ يَذْبَحِ عَظِيمٌ﴾. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ حَيَوَاناً أَفْضَلَ مِنَ الْكَبْشِ لَفَدَى بِهِ إِسْحَقَ. وَضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ. وَأَكْثَرُ مَا ضَحَّى بِهِ الْكَبَاشُ. وَذَكَرَ أَبُو شَيْبَةَ عَنْ أَبِي عُلَيَّةَ عَنِ اللَّيْثِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: الذَّبْحُ الْعَظِيمُ الشَّاةُ.

التاسعة - واختلفوا أيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمانها. فقال مالك وأصحابه: الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية. حكاه أبو عمر. وقال ابن المنذر: وروينا عن بلال أنه قال: ما أبالي ألا أضحي إلا بديك ولأن أضعه في يتيم قد تَرَبَّ فيه -

هكذا قال المحدث - أحب إليّ من أن أضحي به. وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثان: إن الضحية أفضل؛ هذا قول ربيعة وأبي الزناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر وأحمد بن حنبل قالوا: الضحية أفضل من الصدقة؛ لأن الضحية سنة مؤكدة كصلاة العيد. ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل. وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كله. قال أبو عمر: وقد روي في فضل الضحايا آثار حسان، فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زُبَيْر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من نفقة بعد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم» قال أبو عمر: وهو حديث غريب من حديث مالك. وعن عائشة قالت: يا أيها الناس ضحوا وطيبوا أنفساً؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسنات محضرات في ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع في التراب فإنما يقع في حِزْزِ الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة» ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد. وخرجه الترمذي أيضاً عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحبّ إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وإنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض فطيبوا بها نفساً» قال: وفي الباب عن عمران بن حصين وزيد بن أَوْقَم. وهذا حديث حسن.

العاشر - إن الضحية ليست بواجبة ولكنها سنة ومعروف. وقال عكرمة: كان

أبن عباس يبعثني يوم الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً، ويقول: من لقيت فقل هذه أضحية أبن عباس. قال أبو عمر: ومحمل هذا وما روي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يضحيان عند أهل العلم؛ لئلا يعتقد في المواظبة عليها أنها واجبة فرض، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الوسطة بين النبي ﷺ وبين أمته، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم. وقد حكى الطحاوي

في مختصره: وقال ابو حنيفة: الأضحية واجبة على المقيمين الواصلين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافرين. قال: وتجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذي تجب عليه عن نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ. قال أبو عمر: وهذا قول مالك؛ قال: لا ينبغي لأحد تركها مسافراً كان أو مقيماً، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنى. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنى وليس بواجبة. وقد أحتج من أوجبها بأن النبي ﷺ أمر أبا بزة بن نيار أن يعيد ضحية أخرى؛ لأن ما لم يكن فرضاً لا يؤمر فيه بالإعادة. أحتج آخرون بحديث أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحي» قالوا فلو كان ذلك واجباً لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحّي. وهو قول أبي بكر وعمر وأبي مسعود البدريّ وبلال.

الحادية عشرة- والذي يضحي به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية؛ وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. قال ابن المنذر: وقد حكى عن الحسن بن صالح أنه قال: يضحي ببقرة الوحش عن سبعة وبالظبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي: لو نزا ثور وحشي على بقرة أنسية أو ثور أنسي على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أضحية. وقال أصحاب الرأي: جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام.

الثانية عشرة- قد مضى في سورة ﴿الحج﴾^(١) الكلام في وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى. وفي «صحيح مسلم» عن أنس قال: «ضحي النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفأهما» في رواية قال «ويقول بسم الله والله أكبر» وقد مضى في آخر «الأنعام»^(٢) حديث عمران بن حصين ومضى في «المائدة»^(٣) القول في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمه مستوفى. وفي «صحيح مسلم»

(١) راجع ٤٢/١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١٥٥/٧ طبعة أولى أو ثانية. (٣) راجع ٥٠/٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

عن عائشة أن رسول الله ﷺ «أمر بكبش أقرن يطاءً في سواد ويبرك في سواد وينظر في سواد فأنتي به ليضحى به» فقال لها: «يا عائشة هلّمي المديّة» ثم قال «أشحذها بحجر» ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه، ثم قال: «بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحى به. وقد اختلف العلماء في هذا فكان الحسن البصري يقول في الأضحية: بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان. وقال مالك: إن فعل ذلك فحسن، وإن لم يفعل وسمى الله أجزأه. وقال الشافعي: والتسمية على الذبيحة بسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئاً من ذكر الله، أو صلى على محمد عليه السلام لم أكرهه، أو قال اللهم تقبل مني، أو قال تقبل من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يكره أن يذكر مع أسم الله غيره؛ يكره أن يقول: اللهم تقبل من فلان عند الذبح. وقال: لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح. وحديث عائشة يردّ هذا القول. وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه: الله أكبر والحمد لله. فبقي سنة.

الثالثة عشرة - روى البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ سئل: ماذا يُتَقَى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: «أربعاً - وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول الله ﷺ - العرجاء البيّن ظلعها والعوراء البيّن عورّها والمريضة البيّن مرضها والعجفاء التي لا تُنقى»^(١) لفظ مالك ولا خلاف فيه. واختلف في اليسير من ذلك. وفي الترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ^(٢) العين والأذن والآ نضحّي بمقابلة ولا مُدَابَرَة ولا شَرْقَاء ولا خَرْقَاء. قال: والمقابلة ما قطع طرف أذنها، والمُدَابَرَة ما قطع من جانب الأذن، والشَرْقَاء المشقوقة، والخَرْقَاء المثقوبة؛ قال هذا حديث حسن صحيح. وفي «الموطأ» عن نافع: أن عبد الله بن عمر كان يَتَّقِي من الضحايا والبدن التي لم تُسَنَّ والتي نقص من خلقها. قال مالك: وهذا أحب ما سمعت إلّاي. قال

(١) النقي: مخ العظام وشحمها. يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها.

(٢) نستشرف؛ يعني نتطلع العين والأذن، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب.

القتبي: لم تُسنَّن أي لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَّ أسناناً. وهذا كما يقال: فلان لم يُلبَّن أي لم يُعطَّ لبناً، ولم يُسمَّن أي لم يُعطَّ سمناً، ولم يُعسل أي لم يُعطَّ عسلاً^(١). وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهتماء. قال أبو عمر: ولا بأس أن يضحي عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة، فإن كانت ساقطة الأسنان وهي فتية لم يجز أن يضحي بها؛ لأنه عيب غير خفيف. والنقصان كله مكروه وشرحه وتفصيله في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبي ﷺ: «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم» ذكره الزمخشري.

الرابعة عشر - ودلت الآية على أن من نذر نحر أبنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فدى به إبراهيم أبنه؛ قاله ابن عباس. وعنه رواية أخرى: ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب أبنه. روى الروائتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يجزيه كفارة يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه. وقال الشافعي: هو معصية يستغفر الله منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء. وقال محمد: عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث. وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث فعليه هدي. قال: ومن نذر أن ينحر أبنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراد فلا شيء عليه. قال: ومن جعل أبنه هدياً أهدي عنه؛ قال القاضي ابن العربي: يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فالزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة، وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة؛ لأن الله تعالى قال:

(١) عقب صاحب لسان العرب في مادة «سنن» على رواية القتبي وتفسيره بقوله: «وقد وهم القتبي في الرواية والتفسير؛ لأنه روى الحديث «لم تسنن» بفتح النون الأولى، وإنما حفظه من محدث لم يضبطه، وأهل الثبت والضبط روه «لم تسنن» بكسر النون وهو الصواب في العربية، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف لسكون النون الأخيرة، كما يقال: لم يجلل. وإنما أراد ابن عمر أنه يضحي بأضحية لم تن؛ أي لم تصر ثنية وإذا أثنت فقد أسنت. ثم قال: وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقلوه: سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح، وقوله: لم يلبن ولم يسمن أي لم يعط لبناً وسمناً غير صحيح، وإنما معناهما لم يطعم سمناً ولم يسق لبناً.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ والإيمان التزام أصلي والنذر التزام فرعي فيجب أن يكون محمولاً عليه. فإن قيل كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز. قلنا هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَعَلَ مَا تُؤْمَرُ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وأبتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية. فإن قيل: كيف يصير نذراً وهو معصية. قلنا إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء؟ فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟ قلنا: لو قصد ذلك لم يضره في قصده ولا أثر في نذره؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعاً.

الخامسة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي على إبراهيم ثناء جميلاً في الأمم بعده، فما من أمة إلا تصلي عليه وتحبه. وقيل: هو دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾. وقال عكرمة: هو السلام على إبراهيم أي سلاماً منا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ حسب ما تقدم. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى.

السادسة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: بشر بنبوته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين^(١)؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحاق بشر بنبوته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه وأستسلامه له. ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أي ثنينا عليهما النعمة. وقيل كثرتنا ولدتهما؛ أي باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني

(١) ف، حاشية الجمل، نقلاً عن القرطبي: بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين.

إسرائيل من صلبه. وقد قيل: إن الكناية في ﴿عَلَيْهِ﴾ تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح. قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآنه أنه إسماعيل وذلك أنه قصّ قصة الذبيح، فلما قال في آخر القصّة: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: ﴿وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إسماعيل ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ كنى عنه؛ لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدل على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة.

قلت: قد ذكرنا أولاً ما يدل على أن إسحاق أكبر من إسماعيل، وأن المبشر به هو إسحاق بنص التنزيل؛ فإذا كانت البشارة بإسحاق نصّاً فالذبيح لا شك هو إسحاق، وبشر به إبراهيم مرتين؛ الأولى بولادته والثانية بنبوته؛ كما قال ابن عباس، ولا تكون النبوة إلا في حال الكبر و﴿نَبِيًّا﴾ نصب على الحال والهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدة إلى إبراهيم وليس لإسماعيل في الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه. وأما ما روي من طريق معاوية قال: سمعت رجلاً يقول للنبي ﷺ يا ابن الذبيحين؛ فضحك النبي ﷺ. ثم قال معاوية: إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحداً ولده الله، فسهّل الله عليه أمرها، فوقع السهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم؛ وقالوا: أفد أبناك؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيح الثاني فلا حجة فيه؛ لأن سنده لا يثبت على ما ذكرناه في كتاب «الأعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام»؛ ولأن العرب تجعل العم أبا؛ قال الله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهما أبوه وخالته. وكذلك ما روي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ لو صح إسناده فكيف والفرزدق في نفسه مقال.

السابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لما ذكر البركة في الذرية والكثرة قال: منهم محسن ومنهم مسيء، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة، فاليهود والنصارى

وإن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ الآية؛ أي أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلاً. وقد تقدم^(١).

[١١٤] ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

[١١٥] ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

[١١٦] ﴿وَنَصَّرْنَاهُمْ فَاكْفَرْنَا لَهُمُ الْفَلِيلِينَ﴾.

[١١٧] ﴿وَأَيَّلْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾.

[١١٨] ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

[١١٩] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾.

[١٢٠] ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

[١٢١] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

[١٢٢] ﴿إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ لما ذكر إنجاء إسحاق من الذبح، وما من به عليه بعد النبوة، ذكر ما من به أيضاً على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قيل: من الرق الذي لحق بني إسرائيل. وقيل من الغرق الذي لحق فرعون. ﴿وَنَصَّرْنَاهُمْ﴾ قال الفراء: الضمير لموسى وهارون وحدهما؛ وعلى هذا إن الاثنين جمع؛ دليله قوله: ﴿وَأَيَّلْنَاهُمَا﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾. وقيل: الضمير لموسى وهارون وقومهما وهذا هو الصواب؛ لأن قبله ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾. و﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة؛ يقال أستبان كذا أي صار بيّناً، وأستبانه فلان مثل تبين الشيء بنفسه وتبينه فلان. و﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الدّين القويم الذي لا أعوجاج فيه وهو دين الإسلام. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾ يريد الثناء الجميل. ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تقدم.

[١٢٣] ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[١٢٤] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ أَكْثَرُ﴾ .

[١٢٥] ﴿أَنْتُمْ دَعَوْتُمْ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ .

[١٢٦] ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

[١٢٧] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ مَحْضُرُونَ﴾ .

[١٢٨] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ .

[١٢٩] ﴿وَرَزَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ .

[١٣٠] ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْلَاسِينَ﴾ .

[١٣١] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

[١٣٢] ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون: إلياس نبي من بني إسرائيل. وروي عن ابن مسعود قال: إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس. وقرأ ﴿وَإِنَّ إِدْرِيْسَ﴾ وقاله عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله ﴿وَإِنَّ إِدْرِيْسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عم اليسع^(١). وقال ابن إسحاق وغيره: كان القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث الله إليهم إلياس نبياً وتبعه اليسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعاربه أن يريحه منهم فقبل له: أخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شيء فاركه ولا تهبه. فخرج ومعه اليسع فقال: يا إلياس ما تأمرني. فغذف إليه بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخر العهد به. وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش وألبسه النور، فطار مع الملائكة، فكان إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً. قال ابن قتيبة: وذلك أن الله تعالى قال لإلياس: «سلني أعطك». قال: ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت. فصار يطير مع الملائكة. وقال بعضهم: كان قد مرض وأحس الموت فبكى، فأوحى الله إليه، لم تبك؟ حرصاً على الدنيا، أو جزعاً من الموت، أو خوفاً من النار؟ قال: لا ولا شيء من هذا وعزتك، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمذك، ويذكرك

(١) قال بعض المفسرين هو ابن عم اليسع.

الذاكرون بعدي ولا أذكرك، ويصوم الصائمون بعدي ولا أصوم، ويصلي المصلون ولا أصلي. فقيل له: «يا إيلياس وعزتي لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرني فيه ذاكر». يعني يوم القيامة. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: إن إيلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان في كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم في كل عام. وذكر ابن أبي الدنيا؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل. وقد مضى في ﴿الكهف﴾^(١). وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بفجّ الناقة عند الحجر، إذا نحن بصوت يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة، المغفورة لها، المتوب عليها، المستجاب لها. فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس أنظر ما هذا الصوت» فدخلت الجبل، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس، عليه ثياب بيض، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع، فلما نظر إلي قال: أنت رسول النبي؟ قلت نعم؛ قال: ارجع إليه فأقرئه مني السلام وقل له: هذا أخوك إيلياس يريد لقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريباً منه، تقدّم النبي ﷺ وتأخرت، فتحدّثا طويلاً، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السفرة فدعواني فأكلت معهما، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس، فلما أكلت قمت فتنحيت، وجاءت سحابة فاحتلمته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به؛ فقلت للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي! هذا الطعام الذي أكلنا من السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: «سألته عنه فقال يأتيني به جبريل في كل أربعين يوماً أكلة وفي كل حول شربة من ماء زمزم وربما رأيته على الحبّ يملأ بالدلو فيشرب وربما سقاني».

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني لبني إسرائيل. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني الله عز وجل وتخافون عقابه. ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك.

قال ثعلب: اختلف الناس في قوله عز وجل هاهنا ﴿بَعْلًا﴾ فقالت طائفة: البعل هاهنا الصنم. وقالت طائفة: البعل هاهنا ملك. وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها. والأول أكثر. وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: صنماً. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: ربًا. النحاس: والقولان صحيحان؛ أي أَدْعُونَ صنماً عملتموه ربًا. يقال: هذا بعل الدار أي ربها. فالمعنى أَدْعُونَ ربًا أختلقتموه، و ﴿أَتَدْعُونَ﴾ بمعنى أَتُسَمُّونَ. حكى ذلك سيويه. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: البعل الرب بلغة اليمن. وسمع ابن عباس رجلًا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال: من بعل هذه؟ أي من ربها ومنه سمي الزوج بعلًا. قال أبو دؤاد^(١):

وَرَأَيْتُ بَعْلَكَ فِي الْوَعَى مُتَقَلِّدًا سِيفًا وَرُمْحًا

مقاتل: صنم كسره إلياس وهرب منهم. وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعًا، وله أربعة أوجه، فُتِنُوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربعمائة سادٍ وجعلوهم أنبياء، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي أحسن من يقال له خالق. وقيل: المعنى أحسن الصانعين؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وقاب والأعمش وحمزة والكسائي. وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عبيد أنها على النعت. النحاس: وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت هاهنا؛ لأنه ليس بتخلية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو الله ربكم. قال النحاس: وأولى مما قال إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

(١) هكذا في كل نسخ الأصل ونسبه في الكامل لعبد الله بن الزبيرى ورواه كما في المعاجم: يَا لَيْتَ زَوْجَكَ فِي الْوَعَى الْخِ وَقَدْ مَضَى لِلْمَصْنُفِ.

أولى وأحسن؛ لأن قبله رأس آية فلاستئناف أولى. ابن الأنباري: من نصب أو رفع لم يقف على ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ على جهة التمام؛ لأن الله عز وجل مترجم عن ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه. ﴿فَأَنَّهُمْ لَمُخَضَّرُونَ﴾ أي في العذاب. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي من قومه فإنهم نجوا من العذاب. وقرىء ﴿المُخْلَصِينَ﴾ بكسر اللام وقد تقدم. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ تقدم. ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع. وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿سلام على إلياسين﴾. وقرأ الحسن ﴿سلام على الياسين﴾ بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التي للتعريف. والمراد إلياس عليه السلام وعليه وقع التسليم ولكنه أسم أعجمي. والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين وإلياس والياسين شيء واحد. الزمخشري: وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع. وقرىء ﴿على إلياسين﴾ و ﴿إِذْرِيسِينَ وَإِذْرِيسِينَ﴾ على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والتون في السريانية معنى. النحاس: ومن قرأ ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ فكأنه والله أعلم جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله؛ أي أهل دينه ومن كان على مذهبه، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل في السلام؛ كما قال النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» وقال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. ومن قرأ ﴿إلياسين﴾ فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له. وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جمع جمع التسليم على أنه وأهل بيته سلم عليهم؛ وأنشد:

قَدَرْنِي مِنَ نَضْرِ الْخُبَيْيْنِ قَدِي^(١)

(١) تمامه:

ليس الإمام بالشحيح الملحد

والبيت من أرجوزة لحمد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان، ويعرض بعبد الله بن الزبير؛ يرميه بالبخل والإلحاد في الحرم. وقيل هو لأبي بحدلة.

يقال: قَدْنِي وَقَدِّي لغتان بمعنى حَسَب. وإنما يريد أبا حُثَيْب عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه. وغير أبي عبيدة يرويه: الحُثَيْبَيْنِ على الثنية، يريد عبد الله ومُضْعَبَا. ورأيت عليّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا؛ [قال] ^(١) فإن العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا ﴿سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ﴾ سُمِّي كل رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه في كتابه شيئاً من هذا، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة، فيقولون: الأشعرون يريدون به النسب. المهدوي: ومن قرأ ﴿إِلْيَاسِينَ﴾ فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسيّ فحذفت ياء النسبة؛ كما حذفت ياء النسبة في جمع المكسّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ، كذلك حذفت في المسلّم فقليل المهلبون. وقد حكى سيبويه: الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين. السهيلي: وهذا لا يصح بل هي لغة في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَى الْإِلْيَاسِينَ﴾ لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام؛ لا تقول: سلام على زيدين، بل على الزيدتين بالألف واللام. فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات. النحاس: وأحتج أبو عبيد في قراءته ﴿سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ﴾ وأنه أسمه كما أن أسمه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلام على ﴿آل﴾ لغيره من الأنبياء صلى الله عليه وسلم، فكما سُمِّي الأنبياء كذا سُمِّي هو. وهذا الاحتجاج أصله لأبي عمرو وهو غير لازم؛ لأننا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه. والقول بأن أسمه ﴿إِلْيَاسِينَ﴾ يحتاج إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال. قال الماوردي: وقرأ الحسن ﴿سَلَامٌ عَلَى يَاسِينَ﴾ بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان: أحدهما - أنهم آل محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. الثاني - أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: أحدهما - أنها زيدت لتساوي الآي، كما قال في موضع: ﴿طَوْرٍ سَيْنَاءَ﴾ وفي موضع آخر ﴿طَوْرٍ سَيْنِينَ﴾ فعلى هذا يكون

السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفاً له . الثاني - أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم . قال السهيلي : قال بعض المتكلمين في معاني القرآن آل ياسين آل محمد عليه السلام ، ونزع إلى قول من قال في تفسير ﴿يَس﴾ يا محمد ؛ وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة : أحدها - أن سياقة الكلام في قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون وأن التسليم راجع عليهم ، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل في تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضاً ؛ فإن ﴿يَس﴾ و ﴿حَم﴾ و ﴿آلَم﴾ ونحو ذلك القول فيها واحد ، إنما هي حروف مقطعة ، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس ، وإما من صفات القرآن ، وإما كما قال الشعبي : لله في كل كتاب سر ، وسره في القرآن فواتح القرآن . وأيضاً فإن رسول الله ﷺ قال : «لي خمسة أسماء» ولم يذكر فيها ﴿يَس﴾ . وأيضاً فإن ﴿يَس﴾ جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف ، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال ﴿يَسَنُّ﴾ بالضم ؛ كما قال تعالى : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه ف ﴿إلياسين﴾ هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مثل إدريس وإدراسين ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ثم قال : ﴿سلام على إدراسين﴾ . ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم .

[١٣٣] ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[١٣٤] ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ .

[١٣٥] ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِغِينَ﴾ .

[١٣٦] ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ .

[١٣٧] ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لَهُمْ عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ﴾ .

[١٣٨] ﴿وَيَا لَيْلٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ تقدم قصة لوط ^(١) . ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ أي بالعقوبة . ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لَهُمْ مُصِيبَاتٌ﴾

خاطب العرب أي تمرون على منازلهم وآثارهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ تمرون عليهم أيضاً. وتم الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي تعتبرون وتتدبرون.

- [١٣٩] ﴿وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .
 [١٤٠] ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْهُونَ﴾ .
 [١٤١] ﴿فَسَاءَ مَا كَانُوا مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ .
 [١٤٢] ﴿فَالنَّعْمَةُ لِلْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ .
 [١٤٣] ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ .
 [١٤٤] ﴿لَلِّتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

فيه ثمان مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يوسف هو ذو النون، وهو ابن متى، وهو أبن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها. ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يوسف، فخرجت في إثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيي لها ولدها؛ فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوماً من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يوسف بن متى بدعوة إلياس عليه السلام. وأرسل الله يوسف إلى أهل نينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدم بيانه في سورة ﴿يونس﴾^(١) ومضى في ﴿الأنبياء﴾^(٢) قصة يوسف في خروجه مغاضباً. واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده. قال الطبري عن شهر بن حوشب: إن جبريل عليه السلام أتى يوسف فقال: أنطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم. قال: ألتمس دابة. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: ألتمس جذاء. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدم ولا تتأخر. قال: فتساهموا،

(١) ٣٨٤/٨ طبعة أولى أو ثانية. (٢) ٣٢٩/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قال: فسُهم، فجاء الحوت يصبص بذنبه؛ فنودي الحوت: أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقاً؛ إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأُبُلَّة، ثم أنطلق به حتى مر به على دجلة، ثم أنطلق حتى ألقاه في نينوى. حدَّثنا الحرث قال حدَّثنا الحسن قال حدَّثنا أبو هلال قال حدَّثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذ الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضباً لربه. فكان ما جرى منه قبل النبوة. وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقته لهم، ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلم القوم العذاب وغشيهم - كما قال الله تعالى في تنزيله - تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جرّبوا عليه الكذب. رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وقد مضى هذا في ﴿الأنبياء﴾ وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾. ولم ينصرف يونس؛ لأنه أسم أعجمي ولو كان عربياً لانصرف وإن كانت في أوله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفَعِّل كما أنك إذا سميت بِيُعْفَر صرفته^(١) وإن سميت بِيُعْفَر لم تصرفه.

الثانية - قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ قال المبرد: أصل أبق تباعد ومنه غلام أبق. وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء. ﴿وَالْفُلْكِ﴾ يذكر ويؤنث ويكون واحداً وجمعاً وقد تقدم^(٢). قال الترمذي الحكيم: سماه أبقاً لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عندما اشتدت عليه العزيمة من الملك حسب ما تقدّم بيانه في ﴿الأنبياء﴾، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزيمة الملك في أمر الله

(١) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فإنه على وزن يقتل فتمنع الصرف.

(٢) راجع ١٩٤/٢ طبعة ثانية.

لا في أمر نفسه؛ وبحظّ حقّ الله لا يحظّ نفسه، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه أبقاً ومُليماً.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال المبرد: فقارع قال: وأصله من السهام: التي تُجَال. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُذْخَضِينَ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفراء: دحضت حجته وأدحضها الله. وأصله من الزلق؛ قال الشاعر:

قَتَلْنَا الْمُذْخَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ فقد قَرَّتْ بِقَتْلِهِمُ الْعَيُونُ

أي المغلوبين.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي أتى بما يلام عليه. فأما الملموم فهو الذي يلام أستحق ذلك أو لم يستحق. وقيل: المليم المعيب. يقال لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائي: لم تكسر أن لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب لولا. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي من المصلّين ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي عقوبة له؛ أي يكون بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وأختلف كم أقام في بطن الحوت. فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. الضحاك: عشرين يوماً. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة. والله أعلم.

الخامسة - روى الطبري من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله - تعالى ذكره - حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر فلما أنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر» قال: «فسبح وهو في بطن الحوت» قال: «فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة» قال: «ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان

يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. وكان سقمه الذي وصفه به الله تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روي: أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى أنتهوا إلى البر، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا؛ ذكره الزمخشري في تفسيره. وقال ابن العربي: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أنه سئل عن الباري في جهة؟ فقال: لا؛ هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى» فقليل له: ما وجه الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أقول حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها ديناً. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشق عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فألتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفراف الأخضر وأرتقى به صعوداً، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صرير الأفلام، وناجاه ربه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظلمة البحر.

السادسة - ذكر الطبري: أن يونس عليه السلام لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت. وروي أنه لما ركب في السفينة تَقَنَّعَ ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

ريح كادت السفينة أن تغرق، فأجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعوا معنا؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح، ثم أنطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فأرتفعت الريح. قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم! هذا من أجلي فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر. قال: فتساهموا فوقع على يونس، فقال لهم: يا قوم أطرحوني فمن أجلي أوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم أطرحوني فمن أجلي أوتيتم. فذلك قول الله عز وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي وقع السهم عليه؛ فأنطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر فإذا بالحوت فاتح فاه، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً ولكن جعلت بطنك له وعاء. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنأدى في الظلمات ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فاستجبت له ونجّيناه من الغم وكذلك نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وقد تقدم ويأتي. ففي هذا من الفقه أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في ﴿آل عمران﴾^(١) قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن؛ الأول - كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، الثاني - أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم؛ فأعتق اثنين وأرق أربعة. الثالث - أن رجلين أختصما إليه في مواريث قد درست فقال: «أذهبا وتوخّيا الحق وأستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه». فهذه ثلاثة مواطن، وهي القسّم في النكاح والعقّ والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

وحسم داء التشهي. وأختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الإقراع. وبه قال فقهاء الأمصار؛ وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إثارة فلم يبق إلا القرعة. وكذلك في مسألة الأبعد الستة؛ فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر الذي يجوز له فيه العتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً، فلم يبق إلا القرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القرعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل. قال: والحق عندي أن تجري في كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق.

السابعة - الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يقتل ولا يرمى به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فأضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً؛ وهذا فاسد؛ فإنها لا تخفّ برمي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل.

الثامنة - أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبّحين، وأن تسبيحه كان سبب نجاته؛ ولذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر. قال ابن عباس: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلّين. قال قتادة: كان يصلي قبل ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجّاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال: ومكتوب في الحكمة - إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر. وقال مقاتل: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلّين المطيعين قبل المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدّم عملاً صالحاً في حال الرخاء فذكره الله به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكاً.

قلت: ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «من أستطاع منكم أن تكون له خبيثة من عمل صالح فليفعل» فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويذخرها ليوم فاوته وفقره، ويخبرها بجهد، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه. وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثة نفر - في رواية ممن كان قبلكم - يتماشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فأنحطت على فم الغار صخرة من الجبل فأنطقت عليهم فقال بعضهم لبعض أنظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فأدعوا الله بها لعله يفرجها عنكم» الحديث بكامله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه وقال سعيد بن جبير: لما قال في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قذفه الحوت. وقيل: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلين في بطن الحوت.

قلت: والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدل حديث أبي هريرة المذكور قبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة. وتكون ﴿كَانَ﴾ عل هذا القول زائدة. أي فلولا أنه من المسبحين. وفي كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاء ذي النون في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا أستجيب له» وقد مضى هذا في سورة ﴿الأنبياء﴾^(١) فيونس عليه السلام كان قبل مصلياً مسبحاً، وفي بطن الحوت كذلك. وفي الخبر: فنودي الحوت؛ إنا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناك له حِزْزاً ومسجداً. وقد تقدم.

[١٤٥] ﴿فَبَدَّلَ لَهُ بِأَمْرٍ آخَرَ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

[١٤٦] ﴿وَأَبْتَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾.

[١٤٧] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

[١٤٨] ﴿فَتَأْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. وقال ابن قُسيط عن أبي هريرة: طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة؛ فقلنا يا أبا هريرة: وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدُّبَاء؛ هيأ الله له أُرْوِيَّة^(١) وحشية تأكل من خَشَاش الأرض - أو هَشَاش الأرض - فَتَفْشِج^(٢) عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج به - يعني الحوت - حتى لَفَظَه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبي المنفوس لم ينقص من خلقه شيء. وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهي فيما ذكر شجرة القرع تنقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته. ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست، فحزن وبكى عليها فعوتب؛ فقليل له: أحزنت على شجرة وبكيت عليها، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيم خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردت إهلاكهم جميعاً. وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تَغْطِي بورتها، وأستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها. والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي. ثم إن الله تبارك وتعالى أجتنبه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمد إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم. فقال له: فأخبرهم أنني قد لقيت يونس. فقال: لا أستطيع إلا بشاهد. فسمى له عنراً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيت يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس. وأنه رجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونس فكذبوه وهموا به شراً فقال: لا تعجلوا عليّ حتى أصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس، وأستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاها أنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك

(١) الأروية: الأئني من الوعل.

(٢) تفشج: تفرج ما بين رجليها.

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله. ﴿فَبَنَدْنَاهُ﴾ طرحناه. وقيل: تركناه. ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالصحراء؛ قاله ابن الأعرابي. الأخفش: بالفضاء. أبو عبيدة: الواسع من الأرض. الفراء: العراء المكان الخالي. قال وقال أبو عبيدة: العراء وجه الأرض؛ وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها ونبتت بالبلد العراء ثيابي

وحكى الأخفش في قوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ جمع سقيم [سقمى^(١)] و[سقامى وسقام. وقال في هذه السورة: ﴿فَبَنَدْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ وقال في «نون والقلم»: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ والجواب أن الله عز وجل خبرها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبت بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس. وقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ يعني ﴿عَلَيْهِ﴾ أي عنده؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أي عندي. وقيل: ﴿عَلَيْهِ﴾ بمعنى له. ﴿شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ اليقطين شجر الدُّبَاءِ: وقيل: غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي. وفي الخبر: «الدُّبَاءُ والبطيخ من الجنة» وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال المبرد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدُّبَاءِ والبطيخ والحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم. قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ وروي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كل نبت يمتد ويبسط على الأرض ولا يبقى على استواء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مما له ساق. الجوهرى: واليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا قام به فهو يَفْعِل. وقيل: هو أَسَمُ أعجمي. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب. وقيل: ما كان ثمَّ يقطين

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس، وهي عبارته عن الأخفش.

فَأَنْبَتَهُ اللَّهُ فِي الْحَالِ . الْقَشِيرِي : وَفِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَفْرُوشاً لِيَكُونَ لَهُ ظِلٌّ . الثَّعْلَبِيُّ : كَانَتْ تَظَلُّهُ فَرَأَى خَضْرَتَهَا فَأَعْجَبَتْهُ ، فَبَيَّسَتْ فَجَعَلَ يَتَحَزَّنُ عَلَيْهَا ؛ فَقِيلَ لَهُ : يَا يُونُسُ أَنْتَ الَّذِي لَمْ تَخْلُقْ وَلَمْ تَسْقِ وَلَمْ تُنْبِتْ تَحْزَنُ عَلَى شَجِيرَةٍ ، فَأَنَا الَّذِي خَلَقْتُ مِائَةَ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ يَزِيدُونَ تَرِيدُ مِنِّي أَنْ أَسْتَأْصِلَهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَدْ تَابُوا وَتَبْتَ عَلَيْهِمْ ! فَأَيْنَ رَحْمَتِي يَا يُونُسُ أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ الشَّرِيدَ بِاللَّحْمِ وَالْقَرَعَ وَكَانَ يَحِبُّ الْقَرَعَ وَيَقُولُ : « إِنِّهَا شَجَرَةُ أَخِي يُونُسَ » وَقَالَ أَنَسٌ : قَدِمَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَرَقٌ فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ فَجَعَلَ يَتَّبِعُ الدُّبَّاءَ حَوْلِي الْقَضْعَةَ . قَالَ أَنَسٌ : فَلَمْ أَزَلْ أَحَبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ . أَخْرَجَهُ الْأَثَمَةُ .

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدّم عن ابن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذه الحوت . وليس له طريق إلا عن شهر بن حوشب . النحاس : وأجود منه إسناداً وأصح ما حدّثناه عن عليّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن بن محمد قال حدّثنا عمرو بن العنقريّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبي ﷺ قال : إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرّقوا بين كلّ والدّة وولدها ، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل وأستغفروا ، فكفّ الله عز وجل عنهم العذاب ، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئاً - وكان من كذب ولم تكن له بينة فُتِلَ - فخرج يونس مغاضباً ، فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركبت السفينة والسفن تسير يميناً وشمالاً ؛ فقالوا : ما لسفيتكم ؟ فقالوا : لا ندري . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبداً أبقاً من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبيّ الله فإننا لا نلّقيك . قال : فأقترعوا فمن قرع فليقع ، فأقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فأقترعوا ثلاثاً فمن قرع فليقع . فأقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثاً فوقع . وقد وكل الله به جل وعز حوتاً فأبتلعه وهو يهوي به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام

تَسْبِيحِ الْحَصَى ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال : ﴿فَنبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش . قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت ، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فبيست فبكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه : أتبكي على شجرة بيست ، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول الله يونس فإذا هو بسلام يرعى ؛ قال : يا غلام من أنت ؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس . قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كَذَب قُتِل إذا لم تكن له بَيِّنَةٌ فمن يشهد لي ؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فمرهما ؛ فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فأشهدا له . قالتا نعم . قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان في منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال : فأمر به أن يقتل ؛ فقالوا : إن له بَيِّنَةٌ فأرسلوا معه . فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أنني لقيت يونس ؟ قالتا : نعم ! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض ! فاتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان مني . قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين في هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذي لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والددة وولدها ، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل . وهذا هو الصحيح في الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية .

وقال بعض العلماء: إنهم رأوا مخائل العذاب فتأبوا. وهذا لا يمتنع؛ وقد تقدم ما للعلماء في هذا في سورة ﴿يونس﴾^(١) فليُنظر هناك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد مضى في ﴿البقرة﴾^(٢) محامل ﴿أو﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقال الفراء: ﴿أو﴾ بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فَلَمَّا أَشْتَدَّ أَمْرُ الْحَرْبِ فِينَا تَأَمَّلْنَا رِيحاً أَوْ رِزَاماً

أي ورزاما. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾. وقرأ جعفر بن محمد ﴿إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ﴾ بغير همز فـ ﴿يزيدون﴾ في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف أي وهم يزيدون. النحاس: ولا يصح هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كون ﴿أو﴾ بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأول والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك؛ والواو معناه خلاف معنى ﴿أو﴾ فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر. وقال المبرد: المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون. وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب. وقال الأخفش والزجاج: أي أو يزيدون في تقديرهم. قال ابن عباس: زادوا على مائة ألف عشرين ألفاً. ورواه أبي بن كعب مرفوعاً. وعن ابن عباس أيضاً: ثلاثين ألفاً. الحسن والربيع: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفاً. ﴿فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمْ إِلَى جِوْنٍ﴾ أي إلى منتهى آجالهم.

(١) راجع ٣٨٤/٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٤٦٣/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

- [١٤٩] ﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ .
- [١٥٠] ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ .
- [١٥١] ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ ﴾ .
- [١٥٢] ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .
- [١٥٣] ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ .
- [١٥٤] ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .
- [١٥٥] ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .
- [١٥٦] ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ .
- [١٥٧] ﴿ فَأَتُوا بِكُلِّكُم مِّنْ كُنُومٍ صٰدِقِينَ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلياً للنبي ﷺ أحتج على كفار قريش في قولهم: إن الملائكة بنات الله؛ فقال: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾. وهو معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهم المسافة؛ أي فسل يا محمد أهل مكة ﴿ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ ﴾. وذلك أن جُهَيْنَةَ وَخُرَاعَةَ وَبَنِي مُلَيْحٍ وَبَنِي سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله. وهذا سؤال توبيخ. ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أي حاضرون لخلقنا إياهم إناثاً. وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾. ثم قال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ يَقُولُونَ ﴾. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ في قولهم إن لله ولداً وهو الذي لا يلد ولا يولد. و ﴿ إِنَّ ﴾ بعد ﴿ أَلَا ﴾ مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أما مفتوحة أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أما بمعنى حقاً والكسر على أن تكون أما بمعنى ألا. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد ألا تشبيهاً بأمّا، وأما في الآية فلا يجوز إلا كسرهما؛ لأن بعدها الرفع. وتام الكلام ﴿ لَكَاذِبُونَ ﴾ ثم ابتدئ ﴿ أَصْطَفَى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: ويحكم ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ أي اختار البنات وترك البنين. وقراءة العامة «أصطَفَى» بقطع الألف؛ لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة على

حالتها مثل ﴿أُطْلِعَ الْغَيْبَ﴾ على ما تقدّم^(١). وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة ﴿أَضْطَفَى﴾ بوصل الألف على الخبر بغير أستفهام. وإذا ابتدأ كسر الهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها؛ لأن بعدها ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين: إحداهما - أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ منقطعاً مما قبله. والجهة الثانية - أنه قد حكى النحويون - منهم الفراء - أن التوبيخ يكون بأستفهام وبغير أستفهام كما قال جل وعز: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. وقيل: هو على إضمار القول؛ أي ويقولون ﴿أَضْطَفَى الْبَنَاتِ﴾. أو يكون بدلاً من قوله: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ لأن ولادة البنات وأتخاذهنّ اصطفاءً لهنّ، فأبدل مثال الماضي من مثال الماضي فلا يوقف على هذا على ﴿لَكَادِبُونَ﴾. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أنه لا يجوز أن يكون له ولد. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة وبرهان. ﴿فَأَنذَرْنَا بِكُتَابِكُمْ﴾ أي بحججكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم.

[١٥٨] ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

[١٥٩] ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

[١٦٠] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنة هاهنا الملائكة. روى ابن أبي نجيع عن مجاهد قال: قالوا - يعني كفار قريش - الملائكة بنات الله؛ جل وتعالى. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فمن أمهاتهن. قالوا: مخدرات الجن. وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم جنة لأنهم لا يُرَوْن. وقال مجاهد: إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة. وروى عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم جنة لأنهم خُزَان على الجنان والملائكة كلهم جنة. ﴿نَسْبًا﴾ مصاهرة، قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجن فكانت

الملائكة من بينهم. وقال مجاهد والسدي ومقاتل أيضاً: القائل ذلك كنانة وخزاعة؛ قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوَات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سَرَوَات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه.

قلت: قول الحسن في هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً. هو قولهم إن الله تعالى وإبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿لَمُخَضَّرُونَ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب. الثعلبي: الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر في هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزيهاً لله عما يصفون. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من النار.

[١٦١] ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾.

[١٦٢] ﴿مَا أَنشَأَ عَلَيْهِ يَفَتْنَيْنِ﴾.

[١٦٣] ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام. وقيل: أي فإنكم مع ما تعبدون من دون الله. يقال: جاء فلان وفلان. وجاء فلان مع فلان. ﴿مَا أَنشَأَ عَلَيْهِ﴾ أي على الله ﴿يَفَتْنَيْنِ﴾ بمضلين. النحاس. أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل. وقال الشاعر:

فَرَدَ بِنِعْمَتِهِ كَيْدَهُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَنَا فَاتِنَا

أي مضلاً.

الثانية - في هذه الآية ردُّ على القَدَرِية. قال عمرو بن ذر: قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذكر عنده القَدَر، فقال عمر: لو أراد الله ألا يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وأن في ذلك لعلماً في كتاب الله جلَّ وعز، عرفه من عرفه، وجهله من جهله؛ ثم قرأ ﴿فَاتَّكُم مَّا تَعْبُدُونَ. مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلى الجحيم. وقال: فصلت هذه الآية بين الناس، وفيها من المعاني أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدي لحال بينه وبينهم. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخِلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي لست تصل منهم إلى شيء إلا إلى ما في علمي. وقال لبيد بن ربيعة في تثبيت القَدَرِ فأحسن:

وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلُ	إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلٍ
بِإِذْنِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ	أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدْلُ
نَاعِمِ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضْلُ	مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدَى

قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنن الرجل وأهل نجد يقولون أفنتته.

الثالثة - روي عن الحسن أنه قرأ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ﴾ بضم اللام. النحاس: وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينة. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعت علي بن سليمان يقوله؛ قال: هو محمول على المعنى؛ لأن معنى ﴿من﴾ جماعة، فالتقدير صالون، فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصله فاعل إلا أنه قلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل ﴿شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾. ووجه ثالث أن تحذف لام صال تخفيفاً وتجري الإعراب على عينه، كما حذف من قولهم: ما باليت به بالة. وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى؛ ونظيره قراءة من قرأ ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ أجرى الإعراب على العين. والأصل في قراءة الجماعة صالِي بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها في اللفظ.

[١٦٤] ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ .

[١٦٥] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ .

[١٦٦] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ .

هذا من قول الملائكة تعظيماً لله عز وجل، وإنكاراً منهم عبادة من عبدهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ قال مقاتل: هذه الثلاثة الآيات نزلت ورسول الله ﷺ عند سيّدة المنتهى، فتأخر جبريل، فقال النبي ﷺ: «أهنا تفارقني» فقال: ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الآيات. والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا من له مقام معلوم. فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين. وما منا ملك إلا له مقام معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبَيْر. وقال ابن عباس: ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي ويستبح. وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: «ما في السماء موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحقّ لها أن تيطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدَاتِ تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تُعَصَّد» خرج أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث [حسن]^(١) غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: لوددت أني كنت شجرة تُعَصَّد. ويروى عن أبي ذر موقوفاً. وقال قتادة: كان يصلي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. قال: فتقدم الرجال وتأخر النساء. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ قال الكلبي: صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن سمرّة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد؛ فقال: «ألا تُصَفُّون كما تُصَفّ الملائكة عند ربها» قلنا يا رسول الله كيف تصفّ الملائكة عند ربها؟ قال؟

(١) الزيادة من صحيح الترمذي.

«يُتِمُّونَ الصَّفُوفَ الْأَوَّلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ» وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هَذِي الملائكة عند ربها ويقرأ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ تأخر يا فلان تقدّم يلا فلان؛ ثم يتقدّم فيكبر. وقد مضى في سورة ﴿الحجر﴾^(١) بيانه. وقال أبو مالك: كان الناس يصلون متبدّدين فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ فأمرهم النبي ﷺ أن يصطفوا. وقال الشعبي: جاء جبريل أو ملك إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه؛ إن الملائكة لتصلي وتستبح ما في السماء ملك فارغ. وقيل: أي لنحن الصافون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظر ما نؤمر به. وقيل: أي نحن الصافون حول العرش. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المصلّون؛ قاله قتادة: وقيل: أي المنزهون الله عما أضافه إليه المشركون. والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله. وقيل: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي لكل واحد منا ومنكم في الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب. وقيل: أي منّا من له مقام الخوف، ومنّا من له مقام الرجاء، ومنّا من له مقام الإخلاص، ومنّا من له مقام الشكر. إلى غيرها من المقامات.

قلت: والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ والله أعلم.

[١٦٧] ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾.

[١٦٨] ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾.

[١٦٩] ﴿لَكِنَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

[١٧٠] ﴿فَكْفُرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي كانوا قبل بعثة محمد ﷺ إذا عُبِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لو بُعث إلينا نبيّ ببيان الشرائع لا تبعناه. ولما خففت ﴿إِنْ﴾ دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقاً بين النفي والإيجاب. والكوفيون

(١) راجع ١٩/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

يقولون: ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما واللام بمعنى إلا. وقيل: معنى ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ أي كتاباً من كتب الأنبياء ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله. ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي بالذكر. والفراء يقدره على حذف؛ أي فجاءهم محمد ﷺ بالذكر فكفروا به. وهذا تعجيب منهم، أي فقد جاءهم نبي وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج: يعلمون مغبة كفرهم.

- [١٧١] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١).
 [١٧٢] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢).
 [١٧٣] ﴿وَلَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْمُغَالِبُونَ﴾ (١٧٣).
 [١٧٤] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٤).
 [١٧٥] ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٥).
 [١٧٦] ﴿أَفِعْذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦).
 [١٧٧] ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١٧٧).
 [١٧٨] ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٨).
 [١٧٩] ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ قال الفراء: أي بالسعادة. وقيل: أراد بالكلمة قوله عز وجل ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ قال الحسن: لم يُقْتَل من أصحاب الشرائع قط أحد. ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أي سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة. ﴿وَلَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْمُغَالِبُونَ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل ﴿جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾. وقال الشيباني: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم. ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج: إلى الوقت الذي أمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل بيد. وقيل يعني فتح مكة. وقيل: الآية منسوخة بآية السيف. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار. وعسى من الله للوجوب وعبر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي عن قريب يبصرون. وقيل: المعنى فسوف يبصرون

العذاب يوم القيامة. ﴿أَفِعْذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هذا العذاب، أي لا تستعجلوه فإنه واقع بكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي العذاب. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل. ومعنى ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي بدارهم؛ عن السدي وغيره. والساحة والسَّحْسة في اللغة فناء الدار الواسع. الفراء: ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ ونزل بهم سواء. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي بش صباح الذين أُنذروا بالعذاب. وفيه إضممار أي فساء الصباح صباحهم. وخصّ الصباح بالذكر؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي، فقالوا: محمد والخميس^(١)، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» وهو يبين معنى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يريد النبي ﷺ. ﴿وَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ كرر تأكيداً وكذا ﴿وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيداً أيضاً.

[١٨٠] ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

[١٨١] ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾.

[١٨٢] ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ نزه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون. ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ على البدل. ويجوز النصب على المدح، والرفع بمعنى هو رب العزة. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي من الصاحبة والولد. وسئل رسول الله ﷺ عن معنى ﴿سبحان الله﴾ فقال: «هو تنزيه الله عن كل سوء» وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(٢) مستوفى.

الثانية - سئل محمد بن سحنون عن معنى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ لِمَ جاز ذلك والعزة من صفات الذات، ولا يقال رب القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال: العزة تكون

(١) الخميس الجيش.

(٢) راجع ٢٧٦/١ و ٢٨٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة و ٧٦/٢ وما بعدها طبعة ثانية.

صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وصفة الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ والمعنى ربّ العِزّة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل. قال وقد جاء في «التفسير»: إن العزة هاهنا يراد بها الملائكة. قال وقال بعض علمائنا: من حلف بعِزّة الله فإن أراد عزته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه. الماوردي: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما - مالك العِزّة، الثاني - ربّ كل شيء متعزّز من ملك أو متجبر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفارة إذا نواها الحالف.

الثالثة - روي من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يقول قبل أن يُسَلِّمَ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ إلى آخر السورة؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأت على الشيخ الإمام المحدث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمرو الكريّ بالجزيرة قُبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القاري، قال حدّثنا أبو الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسي، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفراييني، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي، قال حدّثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدّثنا هُشَيْم عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الماوردي: روى الشعبي قال قال رسول الله ﷺ «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ذكره الثعلبي من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعاً.

الرابعة . قوله تعالى : ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة . وقال أنس قال النبي ﷺ : «إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَمِنْكُمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ فَإِنَّمَا أَنَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» وقيل : معنى ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي أمن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر . ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين . وقيل : أي على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين . وقيل : أي على هلاك المشركين ؛ دليله ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

قلت : والكل مراد والحمد يعم . ومعنى ﴿يَصِفُونَ﴾ يكذبون ، والتقدير عما يصفون من الكذب . تم تفسير سورة الصافات .

سورة ص

مكية في قول الجميع ، وهي ست وثمانون آية . وقيل ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- [١] ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ .
 [٢] ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِيهِ﴾ .
 [٣] ﴿كَرَاهِلْكَأَمِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرْنَ فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ .

قوله تعالى : ﴿صَّ﴾ قراءة العامة ﴿صَّ﴾ بجزم الدال على الوقف ؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل ﴿الْمَ﴾ و ﴿الْمَرَّ﴾ . وقرأ أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحق ونصر بن عاصم ﴿صَادٍ﴾ بكسر الدال بغير تنوين . ولقراءته مذهبان : أحدهما - أنه من صادى يصادى إذا عارض ، ومنه ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي تعرّض . والمصاداة المعارضة ، ومنه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية . فالمعنى صاِدِ القرآنَ بملك أي عارضه بملك وقابله به ، فاعمل بأوامره ، وأنته عن نواهيه . النحاس : وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة . وعنه أن المعنى أتلّه وتعرّض

لقراءته. والمذهب الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر ﴿صَادَ﴾ بفتح الدال ومثله ﴿قَافَ﴾ و ﴿نُونَ﴾ بفتح آخرها. وله في ذلك ثلاثة مذاهب: أحدهن - أن يكون بمعنى أتل. والثاني - أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وأختار الفتح للإتباع؛ ولأنه أخف الحركات. والثالث - أن يكون منصوباً على القسم بغير حرف؛ كقولك: اللّهُ لأفعلنّ، وقيل: نصب على الإغراء. وقيل: معناه صَادَ محمداً قلوب الخلق وأستمالها حتى آمنوا به. وقرأ ابن أبي إسحق أيضاً ﴿صَادَ﴾ بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سيئويه قد أجاز مثله. ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها. وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السّمَيْقَعِ ﴿صَادُ﴾ و ﴿قَافُ﴾ و ﴿نُونُ﴾ بضم آخرهن؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال، نحو منذُ وقطُ وقبْلُ وبعْدُ و ﴿صَ﴾ إذا جعلته اسماً للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سميت مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلت حروفه. وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن ﴿صَ﴾ فقالا: لا ندري ما هي. وقال عكرمة: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن ﴿صَ﴾ فقال: ﴿صَ﴾ كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار. وقال سعيد بن جبیر: ﴿صَ﴾ بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين. وقال الضحاك: معناه صدق الله. وعنه أن ﴿صَ﴾ قَسَمَ أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى. وقاله السدي، وروي عن ابن عباس. وقال محمد بن كعب: هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدٌ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد. وقال قتادة: هو أسم من أسماء الرحمن. وعنه أنه أسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة. وقيل: هو مما أستأثر الله تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأول. وقد تقدّم جميع هذا في ﴿البقرة﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي ﷺ. ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو أسم معتل والأصل فيه ذَوَى عل فَعَلَ. قال ابن عباس ومقاتل: معنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي البيان. الضحاك:

ذي الشرف أي من آمن به كان شرفاً له في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي شرفكم. وأيضاً القرآن شريف في نفسه لإعجازه وأشماله على ما لا يشتمل عليه غيره. وقيل: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي فيه ذكر أسماء الله وتمجيده. وقيل: أي ذي الموعظة والذكر. وجواب القسم محذوف. وأختلف فيه على أوجه: فقيل جواب القسم ﴿صَ﴾؛ لأن معناه حق فهي جواب لقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ كما تقول: حقاً واللّه، نزل واللّه، وجب واللّه، فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ حسناً وعلى ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ تماماً. قاله ابن الأنباري. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء. وقيل: الجواب ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن ﴿بَلِ﴾ نفي لأمر سبق وإثبات لغيره؛ قاله القتيبي؛ فكانه قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ عن قبول الحق وعداوة لمحمد ﷺ. أو ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق. وهو كقوله: ﴿قَ﴾. وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا وقيل: الجواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كأنه قال: وَالْقُرْآنِ لَكُمْ أَهْلَكْنَا؛ فلما تأخرت ﴿كَمْ﴾ حذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي لقد أفلح. قال المهدوي: وهذا مذهب الفراء. ابن الأنباري: فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾. وقال الأخفش: جواب القسم ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ونحو منه قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾. إِنْ كُلُّ نَفْسٍ. ابن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص. وقال الكسائي: جواب القسم قوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ﴾. ابن الأنباري: وهذا أقبح من الأول؛ لأن الكلام أشد طولاً فيما بين القسم وجوابه. وقيل الجواب قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾. وقال قتادة: الجواب محذوف تقديره ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ لتبعث ونحوه.

قوله تعالى: ﴿بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ أي في تكبر وأمتناع من قبول الحق؛ كما قال جل وعز: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ والعِزَّة عند العرب الغلبة والقهر. يقال: من عَزَّ بَزٌّ يعني من غَلَبَ سَلَبَ. ومنه ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أراد غلبني. وقال جرير:

يَعُزُّ عَلَى الطَّرِيقِ بِمَنْكِبِيهِ كَمَا أَتَرَكَ الْخَلِيعُ عَلَى الْقِدَاحِ^(١)

أراد يغلب. ﴿وَشِقَاقِي﴾ أي في إظهار خلاف ومباينة. وهو من الشَّقْ كَانَ هَذَا فِي شَقٍّ وَذَلِكَ فِي شَقٍّ. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(٢) مستوفى.

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من قوم كانوا أمنع من هؤلاء. و﴿كَمْ﴾ لفظ التكثير ﴿فَنَادَوْا﴾ أي بالاستغاثة والتوبة. والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: «أَلْقِهْ عَلَى بِلَالٍ فَإِنَّهُ أُنْذَى مِنْكَ صَوْتًا» أي أرفع. ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ﴾ قال الحسن: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس: وهذا تفسير منه لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ﴾ فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحق عن التيمي عن ابن عباس ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ﴾ قال: ليس بحين نَزْوٍ^(٣) ولا فِرَار؛ قال: ضُيِّطَ الْقَوْمُ جَمِيعًا قَالَ الْكَلْبِيُّ: كانوا إذا قاتلوا فَأَضْطَرُّوا قال بعضهم لبعض مناص؛ أي عليكم بالفرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص؛ فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ﴾ قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير؛ فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه؛ أي ليس الوقت وقت ما تنادون به. وفي هذا نوع تحكم؛ إذ يبعد أن يقال: كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار. وقيل: المعنى ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ﴾ أي لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه. قال القشيري: وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو في ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ﴾

(١) البيت في وصف جمل؛ يقول: يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق؛ فشبّه حرصه على لزوم الطريق، وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله. والخليع المخلوع المقمور ماله.

(٢) راجع ١٤٣/٢ طبعة ثانية.

(٣) النزو: ضرب من العدو.

مَنَاصٍ ﴿١﴾ وقال الجرجاني: أي فنادوا حين لا مناص؛ أي ساعة لا منجى ولا فوت، فلما قدم ﴿لَا﴾ وآخر ﴿حِينَ﴾ أقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبراً أقتضى الواو مثل جاءني زيد وهو راكب، فحين ظرف لقوله ﴿فَنَادَوْا﴾ والمناص بمعنى التأخر والفرار والخلاص؛ أي نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفراء:

أَمِنْ ذَكَرَ لَيْلَى إِذْ نَأَتْكَ تَنْوُصُ^(١)

يقال: ناص عن قِزْنه يُنَوِّصُ تَوْصاً وَمَنَاصاً أي قَرَّ وزاغ. النحاس: ويقال: ناص ينوص إذا تقدم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والتَّوُصُ الحمار الوحشي وأستناص أي تأخر؛ قاله الجوهري. وتكلم النحويون في ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ وفي الوقف عليه، وكثر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلام في كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيراً مردود. فقال سيبويه: ﴿لَات﴾ مشبهة بليس والاسم فيها مضمَر؛ أي ليست أحياناً حين مناص. وحكي أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حِينَ مناص. وحكي أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفاً كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي ولات حِينَ مناصٍ لنا. والوقف عليها عند سيبويه والفراء ﴿وَلَات﴾ بالتاء ثم تبدى ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ وهو قول ابن كيسان والزجاج. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء وَلَاه. وهو قول المبرّد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحجة في ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال ثُمَّةٌ وَرُبَّةٌ. وقال القشيري: وقد يقال ثُمْتُ بمعنى ثُم، وَرُبْتُ بمعنى رُب؛ فكأنهم زادوا في لا هاء فقالوا لَاه، كما قالوا في ثُم ثُمَّةٌ ثم عند الوصل صارت تاء. وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة و ﴿لَاتَ حِينَ﴾ مفتوحتان كأنهما

(١) تمامه:

فَتَقْصُرُ عَنْهَا خُطْوَةً وَتَبْـُوصُ

والبوص بالباء الموحدة التقدم.

كلمة واحدة، وإنما هي ﴿لا﴾ زيدت فيها التاء نحوربت ورُبَّتْ وثم وثُمَّتْ. قال أبو زيد الطائي

طَلَبُوا صَلَحْنَا وَلَا تَأْوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءٍ

وقال آخر:

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لَا تَحِينَا وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا

ومن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلَتَعْرِفَنَّ خَلَأَقًا مَشْمُولَةً وَلَتَنْدَمَنَّ وَلَا تَسَاعِدِ مَنْدَمٌ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن ﴿ولات﴾ التاء منقطعة من حين، ويقولون معناها وليست. وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام. الوقف عندي على هذا الحرف ﴿ولا﴾ والابتداء ﴿تَحِينَنَّ مَنَاصِرَ﴾ فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: ﴿ولات﴾ ثم يبتدىء فيقول ﴿حِينَ مَنَاصِرَ﴾. قال المهدوي: وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين، وهو خلاف قول المفسرين. ومن حجة أبي عبيد أن قال: إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن. وأنشد لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِيِّ:

الْعَاطِفُونَ تَحِينَنَّ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانًا أَيْنَ الْمُطْعِمُ

وأنشد لأبي زيد الطائي:

طَلَبُوا صَلَحْنَا وَلَا تَأْوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءٍ

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عبيد: ومن إدخالهم التاء في الآن، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذكر مناقبه ثم قال: أَذْهَبَ بِهَا تَلَانٌ مَعَكَ. وكذلك قول الشاعر^(١):

نَوَلِّي قَبْلَ نَأْيٍ دَارِي جُمَانَا وَصَلِينَا كَمَا زَعَمَتِ تَلَانَا

(١) هو جميل بن معمر وبعده:

إِنْ خَيْرَ الْمَوَاصِلِينَ صَفَاءٍ مِنْ يَوَافِي خَلِيلِهِ حَيْثُ كَانَا

قال أبو عبيد: ثم مع هذا كله إني تعمدت النظر في الذي يقال له الإمام - مصحف عثمان - فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين. قال أبو جعفر النحاس: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وَجْزَة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العَاطِفُونَ وَلَاتَ مَا مِنْ عَاطِفٍ

والرواية الثانية:

العَاطِفُونَ وَلَاتَ حِينَ عَاطِفٍ

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان:

العَاطِفُونَ حِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ

جعلها هاء في الوقف وتاء في الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث. والرواية الرابعة:

العَاطِفُونَ حِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ

وفي هذه الرواية تقديران: أحدهما - وهو مذهب إسماعيل بن إسحق أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيداً فإذا كنيت قلت الضاربوه. وأجاز سيبويه في الشعر الضاربونه، فجاء إسماعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه في إجازته مثله. والتقدير الآخر العاطفونه على أن الهاء لبيان الحركة، كما تقول: مرّ بنا المسلمونة في الوقف، ثم أجريت في الوصل مجراها في الوقف؛ كما قرأ أهل المدينة ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾ وأما البيت الثاني فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئاً مشكلاً؛ لأنه يروى (ولات أوان) بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً. وإن كان قد روي عن عيسى بن عمر أنه قرأ ﴿ولاتٍ حِينَ مناصٍ﴾ [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبوت عنه أنه قرأ ﴿ولاتٍ حِينَ مناصٍ﴾^(١) فبني ﴿لاتٍ﴾ على الكسر ونصب ﴿حِينَ﴾ فأما (ولات أوان) ففيه تقديران؛ قال الأخفش: فيه مضمّر أي ولات حين أوان.

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس.

قال النحاس: وهذا القول بين الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحق قال: تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين. وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوان) بالرفع. وأما البيت الثالث فبيت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة. على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الآن). وقال غيره: المعنى كما زعمت أنت الآن. فأسقط الهمزة من أنت والنون. وأما احتجاجه بحديث ابن عمر، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له: أذهب بها تَلَان إلى أصحابك فلا حجة فيه؛ لأن المحدث إنما يروي هذا على المعنى. والدليل على هذا أن مجاهدًا يروي عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه: أذهب فأجهد جهدك. ورواه آخر: أذهب بها الآن معك. وأما احتجاجه بأنه وجدها في الإمام ﴿تَحِين﴾ فلا حجة فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفاً لها فليس بإمام لها، وفي المصاحف كلها ﴿ولات﴾ فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعاً. وجمع مناص مناوص.

[٤] ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝١﴾.

[٥] ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ ﴿أن﴾ في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم. قيل: هو متصل بقوله ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي في عز وشقاق وعجبوا، وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ معترض. وقيل: لا بل هذا ابتداء كلام؛ أي ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم. ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ﴾ أي يجيء بالكلام المموه الذي يخدع به الناس؛ وقيل: يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿كَذَّابٌ﴾ أي في دعوى النبوة.

قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ مفعولان أي صير آلها إلهًا واحدًا. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي عجيب. وقرأ السلمي ﴿عُجَابٌ﴾ بالتشديد. والعُجَاب والعُجَاب

والعَجَب سواء. وقد فَرَّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال: العَجِيب العَجَب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العَجَب، والطويل الذي فيه طول، والطَّوَال، الذي قد تجاوز حدَّ الطَّوَل. وقال الجوهري: العَجِيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال مقاتل: ﴿عُجَابٌ﴾ لغة أزد شنوءة. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبي ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها الجزية المعجم» فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ قال: فنزل فيهم القرآن ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْتِلَاقٌ﴾ خرَّجه الترمذي أيضاً بمعناه. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقيل: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شقَّ على قريش إسلامه فأجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: أقض بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال: يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء^(١)، فلا تمل كل الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني» قالوا: أرفضنا وأرفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك. فقال النبي ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها المعجم» فقال أبو جهل: لله أبوك! لنعطينكها وعشر أمثالها. فقال النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقاموا؛ فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد. فأنزل الله فيهم هذا الآيات إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

(١) في نسخ الأصل: يسألك ذا السواء. وفي أبي السعود: يسألونك السواء والإنصاف. وفي «البيضاوي» كما في «الكشاف»: يسألونك السؤال. وعلق عليه الشهاب بقوله: والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أي العدل كما وقع في غيره من التفاسير اهـ.

- [٦] ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ .
 [٧] ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلِلٌ﴾ .
 [٨] ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ .
 [٩] ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ .
 [١٠] ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ .
 [١١] ﴿جُنُدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا﴾ ﴿الملا﴾ الأشراف، والانطلاق الذهاب بسرعة؛ أي أنطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض ﴿أَنْ آمْسُوا﴾ أي أمضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ . وقيل : هو إشارة إلى مشيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق . وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبة وعتبة أبنا ربيعة ابن عبد شمس، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو معيط ؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا : أنت سيدنا وأنصفنا في أنفسنا، فأكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلِهتنا وطعنوا في ديننا. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ ؛ فقال له : إن قومك يدعونك إلى السوء والنِّصْفَةِ . فقال النبي ﷺ : « إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة » فقال أبو جهل وعشرا. قال: «تقولون لا إله إلا الله» فقاموا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الآيات . ﴿أَنْ آمْسُوا﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب والمعنى بأن أمشوا. وقيل : ﴿أَنْ﴾ بمعنى أي؛ أي ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي أمشوا؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ. وقيل: المعنى وأنطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام: ﴿آمْسُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ أي على عبادة آلِهَتكم ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي هذا الذي جاء به محمد عليه السلام ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

وغير تنزل بهم. وقيل: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ كلمة تحذير؛ أي إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد، فأحذروا أن تطيعوه. وقال مقاتل: إن عمر لما أسلم وقوي به الإسلام شق ذلك على قريش فقالوا: إن إسلام عمر في قوة الإسلام لشيء يراد.

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقرطبي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي: يعنون ملّة عيسى النصرانية وهي آخر الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلهاً. وقال مجاهد وقتادة أيضاً: يعنون ملّة قريش. وقال الحسن: ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول حق. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي كذب وتخوّص؛ عن ابن عباس وغيره. يقال: خلق وأخترق أي أبدع، وخلق الله عز وجل الخلق من هذا؛ أي أبدعهم على غير مثال.

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو استفهام إنكار، والذكر هاهنا القرآن. أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي من وحيي وهو القرآن. أي قد علموا أنك لم تزل صدوقاً فيما بينهم، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا. ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي إنما أغتروا بطول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك، ولما قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ. و﴿لَمَّا﴾ بمعنى لم وما زائدة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ و﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ قيل: أم لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة. و﴿أَمْ﴾ قد ترد بمعنى التقرّيع إذا كان الكلام متصلاً بكلام قبله؛ كقوله تعالى: ﴿الَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾. وقد قيل إن قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ متصل بقوله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء؛ لأن خزائن السموات والأرض له. ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

أَيِ فَإِنْ أَدْعُوا ذَلِكَ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أَيِ فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد. يقال: رَقِيَ يَرْقَى وَارْتَقَى إِذَا صَعِدَ. وَرَقَى يَرْقِي رَقِيًّا مِثْلَ رَمَى يَرْمِي رَمِيًّا مِنَ الرِّقِيَّةِ. قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الْأَسْبَابُ أَرْقٌ مِنَ الشَّعْرِ وَأَشَدُّ مِنَ الْحَدِيدِ وَلَكِنْ لَا تَرَى. وَالسَّبَبُ فِي اللُّغَةِ كُلُّ مَا يُوَصِّلُ بِهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ مِنْ حَبْلٍ أَوْ غَيْرِهِ. وَقِيلَ: الْأَسْبَابُ أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ مِنْهَا؛ قَالَه مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. قَالَ زَهِيرٌ:

وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ^(١)

وقيل: الأسباب السموات نفسها؛ أي فليصعدوا سماء سماء. وقال السدي: ﴿فِي الْأَسْبَابِ﴾ فِي الْفَضْلِ وَالدِّينِ. وَقِيلَ: أَيِ فليعلوا فِي أَسْبَابِ الْقُوَّةِ إِنْ ظَنُّوا أَنَّهَا مَانِعَةٌ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَقِيلَ: الْأَسْبَابُ الْحَبَالُ؛ يَعْنِي إِنْ وَجَدُوا حَبْلًا أَوْ سَبَبًا يَصْعَدُونَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ فَلْيَرْتَقُوا؛ وَهَذَا أَمْرٌ تَوْبِيخٌ وَتَعْجِيزٌ. ثُمَّ وَعَدَ نَبِيَهُ ﷺ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾ ﴿مَا﴾ صِلَةٌ وَتَقْدِيرُهُ هُمْ جُنْدٌ، فَ﴿جُنْدٌ﴾ خَبَرُ ابْتِدَاءٍ مَحْذُوفٍ. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أَيِ مَقْمُوعٌ ذَلِيلٌ قَدْ انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا هَذَا لَنَا. وَيُقَالُ: هُزِمَتِ الْقَرْيَةُ إِذَا انْكَسَرَتْ، وَهَزِمْتُ الْجَيْشُ كَسْرَتُهُ. وَالْكَلَامُ مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلُ؛ أَيِ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وَهُمْ جُنْدٌ مِنَ الْأَحْزَابِ مَهْزُومُونَ، فَلَا تَغْمَكْ عَزَّتَهُمْ وَشِقَاقَهُمْ، فَإِنِّي أَهْزَمُ جَمْعَهُمْ وَأَسْلَبُ عِزَّهُمْ. وَهَذَا تَأْنِيسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ فُعِلَ بِهِمْ هَذَا فِي يَوْمِ بَدْرٍ. قَالَ قَتَادَةُ: وَعَدَ اللَّهُ أَنَّهُ سَيَهْزِمُهُمْ وَهُمْ بِمَكَّةَ فَجَاءَ تَأْوِيلُهَا يَوْمَ بَدْرٍ. وَ﴿هُنَالِكَ﴾ إِشَارَةٌ لِبَدْرٍ وَهُوَ مَوْضِعُ تَحْزِيبِهِمْ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَحْزَابِ الَّذِينَ أَتَوْا الْمَدِينَةَ وَتَحْزَبُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَقَدْ مَضَى ذَلِكَ فِي ﴿الْأَحْزَابِ﴾^(٢). وَالْأَحْزَابُ الْجُنْدُ، كَمَا يُقَالُ جُنْدٌ مِنْ قِبَائِلٍ شَتَّى. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَحْزَابِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْكُفَّارِ. أَيِ هَؤُلَاءِ جُنْدٌ عَلَى طَرِيقَةِ أَوْلَئِكَ؛ كَقَوْلِهِ

(١) صدر البيت:

وَمِنْ هَابِ أَسْبَابِ الْمَنَایَا يَنْلَنَّهُ

(٢) راجع ١٤/١٢٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

تعالى : ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي على ديني ومذهبي . وقال الفراء: المعنى هم جند مغلوب؛ أي ممنوع عن أن يصعد إلى السماء . وقال القتيبي: يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم، فهم لا يقدرّون على أن يدعّوا الشيء من آلهتهم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا من ملك السموات والأرض .

[١٢] ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ .

[١٣] ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ الْأَنْحَرَابِ ﴾ .

[١٤] ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكرها تعزية للنبي ﷺ وتسلية له، أي هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدمين الذي تحزّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا. وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، وأختلف أهل العربية في ذلك على قولين: أحدهما - أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث . الثاني - أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمّر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ ولم يقل ذكرها؛ لأنه لما كان المضمّر فيه مذكراً ذكره، وإن كان اللفظ مقتضياً للتأنيث . ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد . وقد اختلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى ذو البناء المحكم . وقال الضحاك: كان كثير البنيان والبنيان يسمى أوتاداً . وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعب له عليها. وعن الضحاك أيضاً: ذو القوّة والبطش . وقال الكلبي ومقاتل: كان يعذب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت . وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ : كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتَد من حديد ويتركه حتى يموت . وقيل : ذو الأوتاد أي ذو الجنود الكثيرة فسميت

الجنود أوتاداً؛ لأنهم يقوون أمره كما يقوِّي الوتد البيت. وقال ابن قتيبة: العرب تقول هم في عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائماً شديداً. وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَغْفَر:

ولقد غَنَوْنَا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

وواحد الأوتاد وَتِدٌ بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال وَتَدٌ وَتَدٌ وَتَدٌ كما يقال شغل شاغل. وأنشد^(١):

لَا قَتَّ عَلَى الْمَاءِ جُذَيْلًا وَاتِدَا وَلَسْمَ يَكُنْ يُخْلِفُهَا الْمَوَاعِدَا

قال: شبه الرجل بالجذل. ﴿وَتُمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي الغيضة. وقد مضى ذكرها في ﴿الشعراء﴾^(٢). وقرأ نافع وأبن كثير وأبن عامر ﴿لَيْكَةً﴾ بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء. وقد تقدّم هذا. ﴿أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ﴾ أي هم الموصوفون بالقوّة والكثرة؛ كقولك فلان هو الرجل. ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ بمعنى ما كل. ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ أي فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب. وأثبت يعقوب الياء في ﴿عذابي﴾ و﴿عقابي﴾ في الحاليين وحذفها الباقون في الحاليين. ونظير هذه الآية قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْرَابِ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتُمُودَ﴾ فسمى هذه الأمم أخراباً.

[١٥] ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ﴾.

[١٦] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿يَنْظُرُ﴾ بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني كفار مكة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً

(١) البيت لأبي محمد الفقعسي. والضمير في لاقت ضمير الإبل.

(٢) راجع ١٣/١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وَاحِدَةً أَي نَفْخَةُ الْقِيَامَةِ. أَي مَا يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ مَا أَصِيبُوا بِبَدْرٍ إِلَّا صِيْحَةُ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: مَا يَنْتَظَرُ أَحْيَاؤُهُمُ الْآنَ إِلَّا الصَّيْحَةُ الَّتِي هِيَ النَفْخَةُ فِي الصُّورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ قُرْبِ الْقِيَامَةِ وَالْمَوْتِ. وَقِيلَ: أَي مَا يَنْتَظِرُ كُفَّارَ آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُتَدَيِّنِينَ بِدِينِ أَوَّلِكَ إِلَّا صِيْحَةً وَاحِدَةً وَهِيَ النَفْخَةُ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَمْ تَكُنْ صِيْحَةُ فِي السَّمَاءِ إِلَّا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ. ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أَي مِنْ تَرْدَادٍ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. مُجَاهِدٌ: مَا لَهَا رَجُوعٌ. قَتَادَةُ: مَا لَهَا مِنْ مَثْنِيَةٍ. السَّيِّ: مَا لَهَا مِنْ إِفَاقَةٍ. وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ بِضَمِّ الْفَاءِ. الْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ. الْجَوْهَرِيُّ: وَالْفَوَاقُ وَالْفَوَاقُ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ مِنَ الْوَقْتِ؛ لِأَنَّهَا تُحَلَّبُ ثُمَّ تَتْرَكُ سَوِيْعَةً يَرْضَعُهَا الْفَصِيلُ لَتَدِرَّ ثُمَّ تُحَلَّبُ. يُقَالُ: مَا أَقَامَ عِنْدَهُ إِلَّا فَوَاقًا؛ وَفِي الْحَدِيثِ: «الْعِيَادَةُ قَدْرُ فَوَاقٍ النَّاقَةِ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يَقْرَأُ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ أَي مَالَهَا مِنْ نَظَرَةٍ وَرَاحَةٍ وَإِفَاقَةٍ. وَالْفَيْقَةُ بِالْكَسْرِ أَسْمُ اللَّبَنِ الَّذِي يَجْتَمِعُ بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ: صَارَتْ الْوَاوُ يَاءً لِكَسْرِ مَا قَبْلَهَا؛ قَالَ الْأَعَشَى يَصِفُ بَقْرَةً:

حَتَّى إِذَا فَيْقَةٌ فِي ضَرْعِهَا أَجْتَمَعَتْ جَاءَتْ لِتَرْضِعَ شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعَا
وَالْجَمْعُ فَيْقٌ ثُمَّ أَفَوَاقٌ مِثْلُ شَيْبَرٍ وَأَشْبَارٍ ثُمَّ أَفَاقِيْقٌ. قَالَ ابْنُ هَمَّامٍ السَّلُولِيُّ:
وَدَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَاقِيْقٌ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُغْلُ^(١)

وَالْأَفَاقِيْقُ أَيْضًا مَا أَجْتَمَعَ فِي السَّحَابِ مِنْ مَاءٍ، فَهُوَ يَمُطِرُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ. وَأَفَاقَتِ النَّاقَةُ إِفَاقَةً أَي أَجْتَمَعَتِ الْفَيْقَةُ فِي ضَرْعِهَا، فَهِيَ مُفَيْقٌ وَمُفَيْقَةٌ - عَنْ أَبِي عَمْرٍو - وَالْجَمْعُ مَفَاقِيْقٌ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا: ﴿مِنْ فَوَاقٍ﴾ بِفَتْحِ الْفَاءِ أَي رَاحَةً لَا يَفِيقُونَ فِيهَا، كَمَا يَفِيقُ الْمَرِيضُ وَالْمَغْشَى عَلَيْهِ. وَ﴿مِنْ فَوَاقٍ﴾ بِضَمِّ الْفَاءِ مِنْ أَنْتَظَارٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمَا بِمَعْنَى وَهُوَ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ.

(١) البيت في ذم علماء الدنيا. والثلل زيادة في أطباء الناقة والبقرة والشاة؛ وهو لا يدر وإنما ذكره للمبالغة.

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدة لا تقطع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه؛ الحديث. وفيه «يأمر الله عز وجل إسرئيل بالنفخة الأولى فيقول أنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدها ويديمها ويطولها يقول الله عز وجل: ﴿مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾» وذكر الحديث، خرجه علي بن معبد وغيره كما ذكرناه في كتاب التذكرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لتنتعم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جبیر. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِطٌّ. قال الفراء: القِطُّ في كلام العرب الحظّ والنصيب. ومنه قيل للصك قِطٌّ. وقال أبو عبيدة والكسائي: القِطُّ الكتاب بالجوائز والجمع القُطوط؛ قال الأعشى:

وَلَا الْمَلِكُ التَّغْمَانُ يَوْمَ لَقِيَتْهُ
بِغِبْطَتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفِقُ

يعني كتب الجوائز. ويروى: بِأَمَّتِهِ بدل بغبطته، أي بنعمته وحاله الجليلة، ويأفق يصلح. ويقال في جمع قِطٍّ أيضاً قِطْطَةٌ وفي القليل أَقْطٌ وَأَقْطَاط. ذكره النحاس. وقال السدي: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا. وقيل: معناه عجل لنا ما يكفيننا؛ من قولهم: قَطَّنِي؛ أي يكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالاً لكتبهم التي يعطونها بأيامانهم وشمالهم حين تلي عليهم بذلك القرآن. وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾. وأصل القِطِّ القِطُّ وهو القطع، ومنه قِطُّ القلم؛ فالقِطُّ أسم للقطعة من الشيء كالقِسْمِ والقِسْمِ فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالاً وأقوى حقيقة. قال أمية بن أبي الصلت:

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ وَمَا
يُجْبَى إِلَيْهِ وَالْقِطُّ وَالْقَلَمُ

﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد. وكل هذا أستهزاء منهم.

[١٧] ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أمر نبيه ﷺ بالصبر لما أستهزؤا به. وهذه منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلاهم بكل ما تقدم ذكره. ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم؛ وليعلم أن له في الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء. وقيل: المعنى أصبر على قولهم، وأذكر لهم أقاصيص الأنبياء؛ لتكون برهاناً على صحة نبوتك. ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة في العبادة. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشد الصوم وأفضله؛ وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، وكان قوياً في الدعاء إلى الله تعالى. وقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ إظهاراً لشرفه بهذه الإضافة. ويقال: الأيدُ والآدُ كما تقول العيب والعاب. قال^(١):

لَمْ يَكْ يَنْأَدْ فَأَمْسَى أَنْأَادَا

ومنه رجل أي قوي. وتأيد الشيء تقوى؛ قال الشاعر:

إِذَا الْقَوْسُ وَتَرَهَا أَيَّدَ رَمَى فَأَصَابَ الْكُلِّيَّ وَالذُّرَا

يقول: إذا الله وتَر القوس التي في السحاب رمى كلِّي الإبل وأسمنتها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي تواب. وعن غيره: أنه كلما ذكر

(١) هو المعراج. وأناد العود يناد أنياداً فهو مناد إذا اتنى وأعوج. وصدر البيت:

مَنْ أَنْ تَبَدَّلَتْ بِبَادَى آدَا

ذنبه أو خطر على باله أستغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة». ويقال آب يؤوب إذا رجع؛ كما قال^(١):

وكلُّ ذي غِيَّةٍ يُووبُ وغائب الموت لا يؤوبُ

فكان داود رجّاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به.

[١٨] ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ في موضع نصب على الحال. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال. وقال ابن عباس: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يصلين. وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن، وما تصغي لحسنه [الطير]^(٢) وتصوت معه، فهذا تسبيح الجبال والطير. وقيل: سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين. وقد مضى القول في هذا في ﴿سَبَّأً﴾^(٣) وفي ﴿سَبْحَانَ﴾^(٤) عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم. ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ الإشراق أيضاً أبيضاض الشمس بعد طلوعها. يقال: شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها.

الثانية - روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ولا أدري ما هي، حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله ﷺ دخل عليها،

(١) هو عبيد بن الأبرص.

(٢) زيادة يقتضيها المعنى.

(٣) راجع ٢٦٥/١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٤) راجع ٢٦٨/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق». وقال عكرمة قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتُها في القرآن ﴿يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يصلي صلاة الضحى ثم صلاها بعد. وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هي صلاة الأوابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن؛ ذلك في قصة داود ﴿يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

الثالثة - صلاة الضحى نافلة مستحبة، وهي في الغداة بإزاء العصر في العشي، لا ينبغي أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة؛ ويرتفع كدرها؛ وتشرق بنورها؛ كما لا تصلى العصر إذا أصفرت الشمس. وفي «صحيح مسلم» عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفِصَالُ» الفصال والفصلان جمع فصيل، وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل. والرمضاء شدة الحر في الأرض. وخصّ الفصال هنا بالذكر؛ لأنها هي التي تَرْمَضُ قبل أنتهاء شدة الحر التي تَرْمَضُ بها أمهاتها لقلّة جلدها، وذلك يكون في الضحى أو بعده بقليل، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك أستعجالاً؛ لأجل شغله فيخسر عمله؛ لأنه يصليها في الوقت المنهي عنه ويأتي بعمل هو عليه لا له.

الرابعة - روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرًا من ذهب في الجنة» قال حديث غريب. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليل صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». وفي «الترمذي» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على شَفْعَةِ الضحى غُفِرَ له ذنوبُه وإن كانت مثل زبد البحر». وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة

قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر» لفظ البخاري. وقال مسلم: «وركعتي الضحى» وخرجه من حديث أبي الدرداء كما خرجه البخاري من حديث أبي هريرة. وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة. والله أعلم. وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم أستعمل في سائر عظام الجسد. ومفاصله. وروى من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله وأستغفر الله وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار» قال أبو توبة: وربما قال «يمسى» كذا خرجه مسلم. وقوله: «ويجزى من ذلك ركعتان» أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم.

[١٩] ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لِّأَوتَابٍ﴾.

[٢٠] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَآمَنَّا بِكُمْ أَلْحِمَكُم مِّنْ لِّطَافِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء: ولو قرئ «وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةً» لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل. قال ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال وأجتمعت إليه الطير فسبحت معه. فأجتماعها إليه حشرها. فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه. وقيل: أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور ﴿كُلُّ لَّهُ﴾ أي لداود ﴿أَوَابٍ﴾ أي مطيع؛ أي تأتية وتسبح معه. وقيل: الهاء لله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ أي قويناه حتى ثبت. قيل: بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب. وقيل: بكثرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنصر. وهذا اختيار ابن العربي.

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعَانٍ. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان داود أشد ملوك الأرض سلطاناً. كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: أرجعوا فقد رضي عنكم نبي الله. والمُلك عبارة عن كثرة الملك، فقد يكون للرجل ملك ولكن لا يكون ملكاً حتى يكثر ذلك؛ فلو ملك الرجل داراً وأمرأة لم يكن ملكاً حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورته الآدمية. وقد مضى هذا المعنى في ﴿براءة﴾^(١) وحقيقة الملك في ﴿النمل﴾ مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة؛ قاله السدي. مجاهد: العدل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شريح: العلم والفقه. ﴿وَفَضَّلَ الْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقاتدة: يعني الفصل في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيان الكلام. علي بن أبي طالب: هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وقاله شريح والشَّعْبِي وقاتدة أيضاً. وقال أبو موسى الأشعري والشَّعْبِي أيضاً: هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها. وقيل: ﴿فَضَّلَ الْخِطَابِ﴾ البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وقول علي رضي الله عنه يجمعه؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية - قال القاضي أبو بكر بن العربي: فأما علم القضاء فَلَعَمْرُؤُا إلهك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث «أفضاكم عليّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل» وقد يكون الرجل بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء. يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن حفر قوم زُبَيْةً للأسد،

فوقع فيها الأسد، وأزدهم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال؛ قال فأتيتهم فقلت: أقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس! تعالوا أقض بينكم بقضاء؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحق بالقضاء. فجعل للأول ربع الدية، وجعل للثاني ثلث الدية، وجعل للثالث نصف الدية، وجعل للرابع الدية، وجعل للديات على من حفر الزبية على قبائل الأربع؛ فسخط بعضهم ورضي بعضهم، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقصوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن علينا قد قضى بيننا. فأخبروه بما قضى علي؛ فقال رسول الله ﷺ: «القضاء كما قضى علي» في رواية: فأمضى رسول الله ﷺ قضاء علي. وكذلك يروى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال: إن ابن أبي ليلى - وكان قاضياً بالكوفة - جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يأبى الزانيين حدّين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه. قال ابن العربي: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالرواية إلا العلماء. فأما قضية علي فلا يدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرن في الأحكام إلا العاكف المتماذي. وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولون خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجاذبة، فله الدية بما قُتل، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالإثنين اللذين قتلها بالمجاذبة. وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحداً بالمجاذبة فوقع في المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط. وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعاني المتعلقة فرأها ستة: الأول أن المجنون لا حدّ عليه؛ لأن الجنون يسقط التكليف. وهذا إذا كان القذف في حالة الجنون، وأما إذا كان يجنّ مرة ويفيق أخرى فإنه يحدّ بالقذف في حالة إفاقته. والثاني قولها يأبى الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه في أن حدّ

القذف يتداخل؛ لأنه عنده حق الله تعالى كحدّ الخمر والزنى، وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحدّ بالقذف حقّ للآدمي، فيتعدد بتعدد المقدوف. الثالث أنه جلدّ بغير مطالبة المقدوف، ولا تجوز إقامة حدّ القذف بإجماع من الأمة، إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حقّ لله تعالى ومن يقول إنه حقّ للآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقّ للآدمي؛ إذ لو كان حقاً لله لما توقف على المطالبة كحدّ الزنى. الرابع أنه والى بين الحدّين، ومن وجب عليه حدّان لم يُؤالَ بينهما، بل يحدّ لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب، [أو يستبل المضروب]^(١) ثم يقام عليه الحدّ الآخر. الخامس أنه حدّها قائمة، ولا تحدّ المرأة إلا جالسة مستورة؛ قال بعض الناس: في زنبيل. السادس أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعاً. وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف. قال القاضي: فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ «أقضاكم عليّ». وأما من قال؛ إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بين هذا بقوله: «وأوتيت جوامع الكلم». وأما من قال: إنه قوله أما بعد؛ فكان النبي ﷺ يقول في خطبته «أما بعد». ويروى أن أول من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أول من آمن بالبعث، وأول من توكأ على عصا، وعمّر مائة وثمانين سنة. ولو صح أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم.

[٢١] ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ سَوَّرُوا لِلْخَرَابِ﴾.

[٢٢] ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

[٢٣] ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَلِيَ نَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿ ٢٤ ﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِنِّي نَجْمٌ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿ ٢٥ ﴾ .

﴿ ٢٥ ﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لِمَ عِنْدَنَا لَازِقِي وَحُسْنَ مَتَابٍ ﴿ ٢٥ ﴾ .

فيه أربع وعشرون مسألة.

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ﴿الْخَضْمُ﴾ يقع على الواحد والاثنين والجماعة؛ لأن أصله المصدر. قال الشاعر:

وَخَضْمٌ غَضَابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمْ
كَنْفِضِ الْبَرَادِيزِ الْعِرَابِ الْمَخَالِيَا

النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا مَلَكَان. وقيل: ﴿تَسَوَّرُوا﴾ وإن كانا اثنين حملاً على الخصم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الركب والصحب. وتقديره للاثنين ذوا خصم وللجماعة ذوو خصم. ومعنى ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أتوه من أعلى سوره. يقال: تسَوَّر الحائط تسلقه، والسور حائط المدينة وهو بغير همز؛ وكذلك السَّوَر جمع سورة مثل بُسْرَةٍ وبُسْرٍ وهي كل منزلة من البناء. ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى. وقد مضى في مقدمة الكتاب بيان هذا^(١). وقول النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً
تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ

يريد شرفاً ومنزلة. فأما السُّور بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء. ابن العربي: والسُّور الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: إن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب «إن جابراً قد صنع لكم سوراً فَحَيَّاهُ بِكُمْ» والمحراب هنا الغرفة؛ لأنهم تسَوَّرُوا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقد مضى القول فيه في غير موضع^(٢). ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ جاءت ﴿إِذْ﴾ مرتين؛ لأنهما فعلان. وزعم

(١) راجع ٦٥/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) راجع ٧١/٤ و ٨٤/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الفراء: أن إحداهما بمعنى لما. وقول آخر أن تكون الثانية مع ما بعدها تبييناً لما قبلها. قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقاش. وقيل: ملكين؛ قاله جماعة. وعينهما جماعة فقالوا: إنهما جبريل وميكائيل. وقيل: ملكين في صورة إنسيين بعثهما الله إليه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس الدخول، فتسوّروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وسبب ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدث نفسه إن أبتلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ جذرك. فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يدرج بين يديه، فهم أن يتناوله بيده، فأستدرج حتى وقع في كوة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار، فأطلع ليبصره فأشرف على امرأة تغتسل، فلما رآته غطت جسدها بشعرها. قال السدي: فوقعت في قلبه. قال ابن عباس: وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أوريا بن حنان، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حَمَلَة التابوت، وكان حَمَلَة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدمه فيهم فقتل، فلما أنقضت عدتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتاباً، وأشهدت عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشَبَّ، وتسوّر المَلَكُان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه. ذكره الماوردي وغيره. ولا يصح، قال ابن العربي: وهو أمثل ما روي في ذلك^(١).

(١) ما أورده القرطبي هنا في حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لها، وهو هراء وأقترأ كما قال البيضاوي، ومما يقدح في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول: ويعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها، ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم، فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى، وما حكى القصص مما فيه غرض من منصب النبوة طرحناه؛ ونحن كما قال الشاعر:

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة إذ أثر الأخبار جلاس قصاص
والرفاشي مطروح الرواية عند التحقيق. وسبأتي للمؤلف أن ينقل عن النحاس في صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أورده.

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيد الرقاشي، سمع أنس بن مالك يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بعتاً وأوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو قُرب فلاناً وسماء قال فقربه بين يدي التابوت - قال - وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يُستنصر به فمن قُدّم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فُقُدّم فقُتِل زوجُ المرأة ونزل الملكان على داود فقصّا عليه القصة». وقال سعيد عن قتادة: كتب إلى زوجها وذلك في حصار عمّان مدينة بلقاء^(١) أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدّم فقتل. وقال الثعلبي قال قوم من العلماء: إنما أمتحن الله داود بالخطيئة؛ لأنه تمنى يوماً على ربه منزلة إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو ما أمتحنهم، ويعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله. وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب. فقال: يا رب! إن الخير كله قد ذهب به آبائي؛ فأوحى الله تعالى إليه: إنهم أبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها؛ أبتلي إبراهيم بنمرود وبالنار وبذبح ابنه، وأبتلي إسحق بالذبح وأبتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فأبتلني بمثل ما أبتليتهم وأعطني مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه، وأغلق بابيه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور. فبينما هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فيها من كل لون حسن، فوقفت بين رجله، فمدّ يده ليأخذها فیدفعها لابن له صغير، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة، فذهب ليأخذها فطارت ونظر داود يرتفع في إثرها ليعث إليها من يأخذها، فنظر امرأة في بستان على شط بركة

(١) مدينة بلقاء يريد بها قصبة بلقاء.

تغتسل؛ قاله الكلبي. وقال السدي: تغتسل عريانة على سطح لها؛ فرأى أجمل النساء خلقاً، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنهما، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجها أوريا بن حنان، في غزوة مع أيوب بن سوريا ابن أخت داود، فكتب داود إلى أيوب أن أبعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقدمه قبل التابوت، وكان من قدم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد. فقدمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك. قال الكلبي: وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضرب ضربة وكبر كبر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، وكبرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتكبر ملائكة العرش بتكبيره. قال: وكان سيوف الله ثلاثة^(١)؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطلب في زمن رسول الله ﷺ. فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه: أن أبعثه في بعث كذا وقدمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقتل في الثالثة شهيداً. فتزوج داود تلك المرأة حين أنقضت عدتها. فهي أم سليمان بن داود. وقيل: سبب امتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شيء. قال الحسن: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء؛ جزءاً لنسائه، وجزءاً للعبادة، وجزءاً لبني إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويكفونهم ويكيهم، ويوماً للقضاء، فتذاكروا هل يمرّ على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك، فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكب على قراءة الزبور، ف وقعت حمامة من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدّم. قال علماؤنا: وفي هذا دليل وهي:

الثانية - على أنه ليس على الحاكم أن يتتصب للناس كل يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه، وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضى هذا المعنى في ﴿النساء﴾^(٢). وحكم كعب بذلك في زمن عمر بمحضرة رضي الله عنهما. وقد قال عليه السلام

(١) في النسخة الخيرية: وكان سيوف الله هكذا ثلاثة.

(٢) راجع ١٩/٥ طبعة أولى أو ثانية.

لعبد الله بن عمر: «إِنَّ لزوجك عليك حقاً» الحديث. وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين أَسْتَخْلَفَ: والله لأعدلنَّ بينكم، ولم يستثن فابتلي بهذا. وقال أبو بكر الورّاق: كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال: هل في الأرض أحد يعمل كعملي. [فأرسل]^(١) الله إليه جبريل؛ فقال إن الله تعالى يقول لك: عَجِبْتَ بعبادتك، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب، فإن أعجبتَ ثانية وَكَلَنْتَ إلى نفسك. قال: يا رب كَلْنِي إلى نفسي سنة. قال: إن ذلك لكثير. قال: فشهرأ. قال: إن ذلك لكثير. قال: فيوما. قال: إن ذلك لكثير. قال: يا رب فِكَلْنِي إلى نفسي ساعة. قال: فشأنك بها. فوَكَّلَ الأحراس، ولبس الصوف، ودخل المحراب، ووضع الزُّبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائر بين يديه، فكان من أمر المرأة ما كان. وقال سفيان الثوري قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داود منك ذلك أو مني؟ وعزتي لأكلنك إلى نفسك. قال: يا رب أعف عني. قال: أكلنك إلى نفسك سنة. قال: لا بعزتك. قال: فشهرأ. قال: لا بعزتك. قال: فأسبوعاً. قال: لا بعزتك. قال: فيوماً. قال: لا بعزتك. قال: فساعة. قال: لا بعزتك. قال: فلحظة. فقال له الشيطان: وما قدر لحظة. قال: كَلْنِي إلى نفسي لحظة. فوكله الله إلى نفسه لحظة. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة، ووكل الأحراس حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفاً أو ثلاثة وثلاثين ألفاً. وخلا بعبادة ربه، ونشر الزُّبور بين يديه، فجاءت الحمامة فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسل الله عز وجل إليه المَلَكَيْن بعد ولادة سليمان، وضربا له المثل بالنعاج، فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجداً أربعين ليلة على ما يأتي.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب.

(١) في «الأصول»: «فأوحى».

قال ابن العربي: وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة إلا أن يقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جَمَّة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبراً عن ذلك ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال تسوّر المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازاً؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعاً أنهما مَلَكَان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا عُلوِي. قال الثعلبي: وقد قيل كان المتسوّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داود بينهما بقضية قال له ملك من الملائكة: فهلا قضيت بذلك على نفسك يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسن أنهما كانا ملكين نبيها داود على ما فعل.

قلت: وعلى هذا أكثر أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وذلك كذب والملائكة عن مثله منزّهون. فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالوا: قدّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحق، وعلى ذلك يحمل قولهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم.

الرابعة - إن قيل: لم فزع داود وهو نبيّ، وقد قويت نفسه بالنبوة، وأطمأنت بالوحي، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟ قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والإذابة ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ فقال الله عز وجل ﴿لَا تَخَافَا﴾. وقالت الرسل للوط: ﴿لَا تَخَفْ﴾. ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وكذا قال الملكان هنا: ﴿لَا تَخَفْ﴾. قال محمد بن إسحق: بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو في محرابه - مثلاً ضربه الله له ولأوريا - فرآهما واقفين على رأسه فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ فجنناك لتقضي بيننا.

الخامسة - قال ابن العربي: فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه: الأول - أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام، وقد كان ذلك في ابتداء شرعنا مهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان. الثاني - أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتمل أن يكون الفرع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له. الثالث - أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترون بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما أنكشف أنه بلاء ومحنة، ومثل ضربه الله في القصة، وأدب وقع على دعوى العصمة. الرابع - أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد.

قلت: وقول خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالوا: لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسور، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا. فقبل داود عذرهم، وأصغى إلى قولهم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ إن قيل: كيف قال ﴿خَصْمَانِ﴾ وقبل هذا ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ فقليل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خبراً، فلما أنقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبر الاثنين عن أنفسهما فقالا خصمان. وقال الزجاج: المعنى نحن خصمان. وقال غيره: القول محذوف؛ أي يقول: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ قال الكسائي: ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز. الماوردي: وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغيين، ولا يأتي منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول: إن أذاك خصمان قالاً بغى بعضنا على بعض. وقيل: أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض. وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع. ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة

مع كل واحد من الفريق الآخر، فحضروا الخصومات ولكن أبتدأ منهم أثنان، فعرف داود بذكر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرض للخصومات الأخر. والبغي التعدي والخروج عن الواجب. يقال بنى الجُرح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة.

السابعة - قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تجز؛ قاله السدي. وحكى أبو عبيد: شططت عليه وأشططت أي جرت. وفي حديث تميم الداري: «إنك لشاطي» أي جائر علي في الحكم. وقال قتادة: لا تمل. الأخفش: لا تُسْرِف. وقيل: لا تفرط. والمعنى متقارب. والأصل فيه البعد من شطط الدار أي بعدت؛ شطط الدار تشط وشطاً وشطوطاً بعدت. وأشط في القضية أي جاز، وأشط في السؤم وأشطت أي أبعد، وأشطوا في طلي أي أمعنوا. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر في كل شيء. وفي الحديث: «لها مهر مثلها لا وكس ولا شطط» أي لا نقصان ولا زيادة. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي جوراً من القول وبُعداً عن الحق. ﴿وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي أرشدنا إلى قصد السبيل.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي قال الملك الذي تكلم عن أوريا ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ أي على ديني، وأشار إلى المدعى عليه. وقيل: أخي أي صاحبي. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وقرأ الحسن: ﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ بفتح التاء فيهما وهي لغة شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس. والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لما هي عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب. وقد يكنى عنها بالبقرة والحجيرة والناقعة؛ لأن الكل مركوب قال ابن عون:

أنا أبوهن ثلاث هنة	رابعة في البيت صغراً هنة
ونعجتي خمسا توفيهنة	ألا فتى سمح يغذيهنه
طي الثقا في الجوع يطويهنة	ويل الرغيف ويله منهنة

وقال عنترة:

يا شاةَ ما قَتَصَ لِمَن حَلَّتْ لَهُ حَرُمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْزُمِ
فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا أَذْهَبِي فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَأَعْلَمِ
قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الْأَعَادِي غِرَّةً وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَن هُوَ مُرْتَمٍ
فَكَأَنَّمَا التَّفَتُّ بِجِيدٍ جَدِيدٍ رَشًا مِنَ الْغَزْلِ لَانٍ حُرٌّ أَرْثَمِ

وقال آخر^(١):

فَرَمَيْتُ عَقْلَةً عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطَحَّالَهَا

وهذا من أحسن التعريض حيث كني بالنعاج عن النساء. قال الحسين بن الفضل: هذا من الملكين تعريض وتنبه كقولهم ضرب زيد عمراً، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال نحن خصمان هذه حالنا. قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل في هذا أن المعنى؛ يقول خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة؛ كما تقول: رجل يقول لامرأته كذا؛ ما يجب عليه؟.

قلت: وقد تأول المزي صاحب الشافعي هذه الآية، وقوله ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرجه «الموطأ» وغيره: «هو لك يا عبدُ بن زُمعة» على نحو هذا؛ قال المزي: يحتمل هذا الحديث عندي - والله أعلم - أن يكون النبي ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أن هذا يكون إذا ادعى صاحب فراش وصاحب زنى، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد، ولا على زُمعة قول ابنه إنه ولد زنى^(٢)، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثل ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه ففرع منهم، قالوا لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه. فيحتمل أن يكون النبي ﷺ

(١) هو الأعشى.

(٢) قوله: «إنه ولد زنى» أولى بقول سعد بن أبي وقاص. راجع الحديث في «الموطأ» ٤/٦ طبعة السلطان عبد الحفيظ.

حكم في هذه القصة على المسألة، وإن لم يكن أحد يؤنسني على هذا التأويل في الحديث؛ فإنه عندي صحيح. والله أعلم.

التاسعة - قال النحاس: وفي قراءة ابن مسعود ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أَثْنَى﴾ و ﴿كَانَ﴾ هنا مثل قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فأما قوله: ﴿أثْنَى﴾ فهو تأكيد، كما يقال: هو رجل ذكر وهو تأكيد. وقيل: لما كان يقال هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير، جاز أن يقال أثنى ليعلم أنه لا ذكر فيها. وفي «التفسير»: له تسع وتسعون امرأة. قال ابن العربي: إن كان جميعهن أحراراً فذلك شرعه، وإن كنَّ إماء فذلك شرعنا. والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد، وإنما الحصر في شريعة محمد ﷺ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار. وقال القشيري: ويجوز أن يقال لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مائة مرة لم أقض حاجتك، أي مراراً كثيرة. قال ابن العربي: قال بعض المفسرين لم يكن لداود مائة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً؛ المعنى: هذا غني عن الزوجة وأنا مفتقر إليها، وهذا فاسد من وجهين: أحدهما - أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصوراً من النساء على ما في شرعنا. الثاني - أنه روى البخاري وغيره أن سليمان قال: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله» وهذا نص.

العاشرة - قوله تعالى: ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي امرأة واحدة: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي أنزل لي عنها حتى أكفلها. وقال ابن عباس: أعطينها. وعنه: تحوّل لي عنها. وقاله ابن مسعود. وقال أبو العالية: ضمها إليّ حتى أكفلها. وقال ابن كيسان: أجعلها كِفلي ونصيب. ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أي غلبني. قال الضحاك: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني. يقال: عَزَّهُ يَعُزُّهُ (بضم العين في المستقبل) عَزًّا غلبه. وفي المثل: مَنْ عَزَّ بَرٌّ؛ أي من غَلَبَ سَلَبَ. والاسم العِزَّة وهي القوة والغلبة. قال الشاعر:

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير ﴿وَعَاذَنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غالبني؛ من المعازة وهي المغالبة؛ عاذه أي غالبه. قال ابن العربي: وأختلف في سبب الغلبة؛ فقليل: معناه غالبني ببيانه. وقيل: غالبني بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه. كان ببلادنا أمير يقال له سير بن أبي بكر^(١) فكلمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها. فقلت: أما إذا كان عدلاً فلا. فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي له وأستغربه.

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ قال النحاس: فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول.

وسياتي بيانه في المسألة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل أنزل لي عن أمراتك. قال أبو جعفر: فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونّبّه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن». وقال في كتاب «معاني القرآن» له بمثله. قال رضي الله عنه: قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد داود عليه السلام على أن قال: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي أنزل لي عنها. وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ، قال أبو جعفر: فهذا أجل ما روي في هذا، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق أمراته، كما يسأل الرجل الرجل أن يبيعه جاريته، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده. اهـ نفع الطيب.

عز وجل على ذلك، وعاتبه لما كان نبياً وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزويد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجترار عليه. قال ابن العربي: وأما قولهم إنها لما أعجبه أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعاً؛ فإن داود عليه السلام لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: أنزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما: إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك. وما يجوز فعله ابتداءً يجوز طلبه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يروى هذا ويسند؟! وعلى من في نقله يعتمد، وليس يأتريه عن الثقات الأثبات أحد. أما أن في سورة ﴿الأحزاب﴾ نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة، وذلك قوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق، بل أمره بالتمسك بزوجه، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها. فكانت هذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية عليه السلام. ولكن قد قيل: إن معنى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصح الأقوال. وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة؛ وهذا نص القرآن. وروي أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية؛ وربك أعلم. وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآية؛ ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر، أن داود عليه

السلام كان قد أقدم على خطبة امرأة قد خطبها غيره، يقال هو أوريا؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأول، ولم يكن بذلك داود عارفاً، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفاً أو مشاهدة على غير تعمد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير، وذلك الخاطب لا امرأة له، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسوّر الملكين، وما أوردها من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة - قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين أدعى والآخر سلم في الدعوى، ف وقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر» وقيل: إن داود لم يقض للآخر حتى أترف صاحبه بذلك. وقيل: تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك. والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماوردي وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ﴾ من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد أعترافه. وقد روي هذا وإن لم تثبت روايته؛ فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكت بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه. قال ويحتمل أن يقال: كان من شرعهم التعويل على قول المدعي عند سكوت المدعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول. وقال الحلبي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين» له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافية فظهرت السجود لله عز وجل. قال والأصل في ذلك قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

الْخَصْمَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ . أَخْبَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّهُ سَمِعَ قَوْلَ الْمُتَظَلِّمِ مِنَ الْخَصْمِينَ ، وَلَمْ يُخْبِرْ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ الْآخَرَ ، إِنَّمَا حَكَى أَنَّهُ ظَلَمَهُ ، فَكَانَ ظَاهِرَ ذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى فِي الْمُتَكَلِّمِ مَخَائِلَ الضَّعْفِ وَالْهُضِيمَةِ ، فَحَمَلَ أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ مَظْلُومٌ كَمَا يَقُولُ ، وَدَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى أَلَّا يَسْأَلَ الْخَصْمَ ؛ فَقَالَ لَهُ مُسْتَعْجِلًا : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ مَعَ إِمْكَانِ أَنَّهُ لَوْ سَأَلَهُ لَكَانَ يَقُولُ : كَانَتْ لِي مِائَةُ نَعْجَةٍ وَلَا شَيْءَ لِهَذَا ، فَسَرَقَ مِنِّي هَذِهِ النَّعْجَةَ ، فَلَمَّا وَجَدَتْهَا عِنْدَهُ قُلْتُ لَهُ أَرَدَدَهَا ، وَمَا قُلْتُ لَهُ أَكْفَلْنِيهَا ، وَعَلِمَ أَنِّي مُرَافِعُهُ إِلَيْكَ ، فَجَرَّنِي قَبْلَ أَنْ أُجَرَّهُ ، وَجَاءَكَ مُتَظَلِّمًا مِنْ قَبْلِ أَنْ أَحْضَرَهُ ، لِتُظَنَّ أَنَّهُ هُوَ الْمُحَقِّقُ وَأَنِّي أَنَا الظَّالِمُ . وَلَمَّا تَكَلَّمَ دَاوُدُ بِمَا حَمَلْتَهُ الْعَجَلَةُ عَلَيْهِ ، عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَّاهُ وَنَفْسَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهُوَ الْفِتْنَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَنْ تَقْصِيرٍ مِنْهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا اللَّهُ تَعَالَى شُكْرًا عَلَى أَنْ عَصَمَهُ ، بِأَنْ أَقْتَصَرَ عَلَى تَظْلِيمِ الْمَشْكُوعِ ، وَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ أَنْتِهَارٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ غَيْرِهِمَا ، مِمَّا يَلِيقُ بِمَنْ تَصَوَّرَ فِي الْقَلْبِ أَنَّهُ ظَالِمٌ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِعَاتِبِهِ ؛ فَقَالَ : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فَبَانَ بِمَا قَصَصَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ ، الَّتِي تَوَخَّاهُ بِهَا بَعْدَ الْمَغْفَرَةِ ، أَنَّ خَطِيئَتَهُ إِنَّمَا كَانَتْ التَّقْصِيرَ فِي الْحُكْمِ ، وَالْمُبَادَرَةَ إِلَى تَظْلِيمِ مَنْ لَمْ يَثْبِتْ عِنْدَهُ ظُلْمَهُ . ثُمَّ جَاءَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ سَجَدَهَا دَاوُدُ شُكْرًا ، وَسَجَدَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَتْبَاعًا ، فَثَبِتَ أَنَّ السَّجُودَ لِلشُّكْرِ سُنَّةٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . ﴿ سُبُّوَالِ نَعَجَتِكَ ﴾ أَيُّ بِسْوَالِهِ نَعَجَتِكَ ؛ فَأَضَافَ الْمَصْدَرَ إِلَى الْمَفْعُولِ ، وَأَلْقَى الْهَاءَ مِنَ السُّوَالِ ؛ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أَيُّ مِنْ دُعَائِهِ الْخَيْرِ .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ يُقَالُ : خَلِيطَ وَخُلُطَاءُ وَلَا يُقَالُ طَوِيلٌ وَطَوَلَاءُ ؛ لِثِقَلِ الْحَرَكَةِ فِي الْوَاوِ . وَفِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا - أَنَّهُمَا الْأَصْحَابُ . الثَّانِي - أَنَّهُمَا الشُّرَكَاءُ .

قلت: إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد اختلف العلماء في صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كل واحد بغنمه فيجمعها راع واحد والدلو والمراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخلطاء إلا الشركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ: «لا يُجَمَّع بين مفترق ولا يَفَرَّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية» وروي «فإنهما يتراذان الفضل» ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء؛ فأعلمه. وأحكام الخلطة المذكورة في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمع من العلماء لا يرون [الصدقة]^(١) على من ليس في حصته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المصدِّق بهذا تراذوا بينهم للاختلاف في ذلك، وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

الرابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي يتعدى ويظلم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين أي قليل هم ف ﴿مَا﴾ زائدة. وقيل: بمعنى الذي وتقديره قليل الذين هم. وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه: اللهم أجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟. فقال أردت قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقال عمر: كل الناس أफقه منك يا عمر.

الخامسة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَزَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ﴾ أي أبتليناه. ﴿وَزَنَ﴾ معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المعايين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين. والقراءة ﴿فَتْنَاهُ﴾ بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿فَتْنَاهُ﴾ بتشديد التاء والنون على المبالغة. وقرأ قتادة وعبيد بن عمير وأبن السَّمِيعِ ﴿فَتْنَاهُ﴾ بتخفيفهما. ورواه علي بن نصر عن أبي عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام.

السادسة عشرة - قيل: لما قضى داود بينهما في المسجد، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، فلم يفتن داود؛ فأحبا أن يعرفهما، فصعدا إلى السماء حيال وجهه، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى أبتلاه بذلك، ونبيه على ما أبتلاه.

قلت: وليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدل من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لما أقرهم داود على ذلك. ويقول: أنصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبي ﷺ والخلفاء يقضون في المسجد، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يجلس في رحبته؛ ليصل إليه الضعيف والمشرک والحائض، ولا يقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحب.

السابعة عشرة - قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم، وأول من استقضى معاوية. قال مالك: وينبغي للقضاة مشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضى حتى يكون عالماً بآثار من مضى، مستشيراً لذوي الرأي، حليماً نزهاً. قال: ويكون ورعاً. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظاً كثير التحذر من الحيل، وأن يكون عالماً بالشروط، عارفاً بما لا بد له منه من العربية؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبل إنجاز الحكم للمطلوب: أبقيت لك حجة؟ فإن قال لا حكم عليه، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجه أو بينة. وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة - قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة؛ الأول - أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها. قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة. قال أبو إسحاق: ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، فصارت الأولى له والثانية عليه. الثاني - أنه أغرى زوجها في حملة التابوت. الثالث -

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع - أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته، فأغتم لذلك أوريا، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخطبها، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة. الخامس - أنه لم يجزع على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هلك من الجند، ثم تزوج أمرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله. السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر. قال القاضي ابن العربي: أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريض زوجها للقتل؛ وأما من قال: إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب! وحكى السدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً لجلدته ستين ومائة؛ لأن حدّ [قاذف] الناس ثمانون وحدّ [قاذف] الأنبياء ستون ومائة. ذكره الماوردي والثعلبي أيضاً. قال الثعلبي وقال الحرث الأعور عن علي: من حدث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقداً جلده حدّين؛ لعظم ما ارتكب برمي من قد رفع الله محله، وأرتضاه من خلقه رحمة للعالمين، وحجة للمجتهدين. قال ابن العربي: وهذا مما لم يصح عن علي. فإن قيل: فما حكمه عندهم؟ قلنا: أما من قال إن نبياً زنى فإنه يقتل، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملازمة، فقد اختلف [نقل] ^(١) الناس في ذلك؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته، فإنه يناقض التعزير المأمور به، فأما قولهم: إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة، فلما رآته أسبلت شعرها فسترت جسدها، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأئمة؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يَأْثُم الناظر بها، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها. وأما قولهم: إنه [نوى] ^(٢) إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرضه للموت، وأما قولهم: إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يردّه القرآن والآثار التفسيرية كلها.

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي.

وقد روى أشهب عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريباً من داود عليه السلام وهي من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت وأتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموع عينيه. قال ابن العربي وأما قول المفسرين: إن الطائر درج عنده فهمم بأخذه وأتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله، لا سيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما أتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه، وإنما ذكرهم لحسن الطائر خرقاً في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في «الصحيح»: «إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عرياناً فخر عليه رجل من جراد [من ذهب]»^(١) فجعل يحثي منه ويجعل في ثوبه». فقال الله تعالى له: «يا أيوب ألم أكن أغنيك» قال: «بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك» وقال القشيري: فهم داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كوة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضاً وقد تقدّم.

التاسعة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ أي خر ساجداً، وقد يعبر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرٌ على وجهه راكِعاً وتاب إلى الله من كل ذنب

قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هاهنا السجود؛ فإن السجود هو الميل، والركوع هو الانحناء، وأحدهما يدخل على الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمي السجود ركوعاً. وقال المهدي: وكان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجداً لله عز وجل. أي لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتغالهما جميعاً على الانحناء. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله.

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي.

وقال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾ فهل يقال للراكم حَرٌّ؟ قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها فخر بعد أن كان راکعاً أي سجد.

الموفية عشرين - وأختلف في سجدة داود هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قرأ على المنبر ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأ بها فتشرون^(١) الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنها توبة نبي ولكني رأيتكم تشرون للسجود» ونزل وسجد. وهذا لفظ أبي داود. وفي «البخاري» وغيره عن ابن عباس أنه قال: ﴿صَ﴾ ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها. وقد روي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: ﴿صَ﴾ توبة نبي ولا يسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبة نبي ونيكم ممن أمر أن يقتدى به. قال ابن العربي: والذي عندي أنها ليست موضع سجود، ولكن النبي ﷺ سجد فيها فسجدنا بالافتداء به. ومعنى السجود أن داود سجد خاضعاً لربه، معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي أتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا؟ فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون - قال ابن خُوَيزَمَنْدَاد: قوله ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ فيه دلالة على أن السجود للشكر مفرداً لا يجوز؛ لأنه ذكر معه الركوع، وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتي رسول الله ﷺ والأئمة بعده، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكراً، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لنقل نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قرينة.

(١) التشرون التأهب والتهيؤ للشيء.

قلت: وفي سنن أبْنِ ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ صَلَّى يوم بُشِّرَ برأس أبي جهل ركعتين. وخرَجَ من حديث أبي بكره أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره - أو يسره به - خر ساجداً شكراً لله. وهذا قول الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون - روى الترمذي وغيره واللفظ للغير: أن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ كان يصلي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهم أعظم لي بهذه السجدة أجراً، وأرزقني بها شكراً.

قلت: خرَجَ أبْنِ ماجه في سننه عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ فأثابه رجل فقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم، كأنني أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة [فسجدت] ^(١) فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول: اللهم أحطط بها عني وزراً، وأكتب لي بها أجراً، وأجعلها لي عندك ذخراً. قال ابن عباس: فرأيت رسول الله ﷺ قرأ ﴿السجدة﴾ فسجد، فسمعتة يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة. ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلت يا رسول الله رأيتني في النوم كأنني تحت شجرة والشجرة تقرأ ﴿ص﴾ فلما بلغت السجدة سجدت فيها، فسمعتها تقول في سجودها: اللهم أكتب لي بها أجراً، وحُطَّ عني بها وزراً، وأرزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدة. فقال لي النبي ﷺ «أفسجدت أنت يا أبا سعيد» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «لقد كنت أحقّ بالسجود من الشجرة» ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ص﴾ حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ما قالت الشجرة.

الثالثة والعشرون - قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي فغفرنا له ذنبه. قال أبْنِ الأنباري: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ تام، ثم تبتدىء ﴿وإنَّ له﴾ وقال القشيري: ويجوز الوقف على ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ ثم تبتدىء ﴿ذَلِكَ وإنَّ له﴾ كقوله: ﴿هَذَا وإنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ أي الأمر ذلك.

(١) الزيادة من سنن أبْنِ ماجه.

وقال عطاء الخراساني وغيره: إن داود سجد أربعين يوماً حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، فنودي: أجاج فتطعم وأعار فتكسى؛ فنحب نجة هاج المرعى من حرّ جوفه، فغفر له وسرّ بها. فقال: يا رب هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرته، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاماً، ونساءهم أرمال؟ قال: يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة. قال: يا رب هكذا تكون المغفرة الهينة. ثم قيل: يا داود أرفع رأسك. فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد نُسب في الأرض، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها. رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن عطاء. قال الوليد: وأخبرني مُنير بن الزبير، قال: فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد قال ابن لهيعة: فكان يقول في سجوده سبحانك هذا شرابي دموعي، وهذا طعامي في رماد بين يدي. في رواية: إنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العشب من دموعه. وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن داود مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده: يا رب داود زلّ زلّة بعد بها ما بين المشرق والمغرب ربّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهمّ الذي هممت به» وقال وهب: إن داود عليه السلام نودي إني قد غفرت لك. فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال: لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك؟ قال: يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً. فقال الله لجبريل: أذهب إلى داود فقل له يذهب إلى قبر أوريا فيتحلل منه، فأنا أسمع نداءه. فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا، ونادى يا أوريا فقال: لبيك! من هذا الذي قطع عليّ لذتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داود أسألك أن تجعلني في حلّ فإنني عرّضتك للقتل؛ قال: عرّضتني للجنة فأنت في حلّ. وقال الحسن وغيره: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخطاء، ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قَصْعة فلا يزال

يبكي حتى يبتل بدموعه، وكان يذّر عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكل الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله، وقال: يا رب أجعل خطيئتي في كَفِّي فصارت خطيئته منقوشة في كَفِّه، فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شيء إلا رآها فأبكته، وإن كان ليؤتى بالقدرح ثلثاء ماء، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه. وروى الوليد بن مسلم: حدثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل عيني داود مثل القربتين تَنْطَفَأْنَ ولقد خدّد الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض». قال الوليد: وحدثنا عثمان بن أبي العاتكة أنه كان في قول داود إذ هو خلوّ من الخطيئة شدة قوله في الخاطئين أن كان يقول: اللهم لا تغفر للخطئين. ثم صار إلى أن يقول: اللهم رب أغفر للخطئين لكي تغفر لداود معهم؛ سبحانه خالق النور. إلهي! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني. إلهي! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصاها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها؛ سبحانه خالق النور. إلهي! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت الأرض برحبها عليّ، وإذا ذكرت رحمتك أرتد إليّ روحي. وفي الخبر: إن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته؛ فكان ينادي: إلهي! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك أرتد إليّ روحي؛ رب! أغفر للخطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجله حتى تنفذ من الأفرشة كلها. وكان إذا كان يوم نوحه نادى مناديه في الطرق والأسواق والأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إن هذا يوم نوح داود، فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعه؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عكف، وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العويل والنوح، وأثارت الحركات منابع دموعه، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحاً وبكاءً، حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم. ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه وينزل؛

فقال: جئت لأقبض روحك. فقال: دعني حتى أنزل أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها أثراً. قال: فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة.

الرابعة والعشرون - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قرينة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ قالوا: والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود. وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة. وعن مجاهد: يبعث داود يوم القيامة وخطيبته منقوشة في يده؛ فإذا رأى أهوايل يوم القيامة لم يجد منها محرراً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيبته فيقلق فيقال له هاهنا؛ ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا؛ [حتى يقرب فيسكن]^(١) فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدثنا الفضل بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن الأصبح، قال حدثنا الوليد بن مسلم، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن مجاهد فذكره. قال الترمذي: ولقد كنت أمرُّ زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾ والقط الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ تلا عليهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال لهم «إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم» فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾ أي صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ فقص قصة خطيبته إلى منتهائها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود فأني شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف اتصل هذا بذاك؟ فلا أفق على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني الله له

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام ويدل عليها ما ورد في آخر القصة.

يوماً فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم أستهزاء بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فأوجعه ذلك من أستهزائهم، فأمره بالصبر على مقاتلتهم، وأن يذكر عبده داود؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدرح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ^(١) سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى أسمه يستوبه منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فروية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحل بأعداء الله وبمعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روي في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق حتى يُقرب فيسكن.

[٢٦] ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(٢) القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

(١) لعل الأصل: حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ.

(٢) راجع ٢٦٣/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

الثانية - قوله تعالى : ﴿ فَأَخْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل . وهو أمر على الوجوب وقد أرتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذي عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقليل له بعد هذا فأحكم بين الناس بالعدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ أي لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي عن طريق الجنة . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي يحيدون عنها ويتركونها ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في النار ﴿ بِمَا نَسُوا ﴾ أي تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا طريق الله ؛ فقلوه : ﴿ نَسُوا ﴾ أي تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين . ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة - الأصل في الأقضية قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَخْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَتَأَخْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ الآية . وقد تقدّم الكلام فيه ^(١) .

الرابعة - قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَخْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال : إن أرتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى ، فلا تشته في نفسك الحق له ليفلج على صاحبه ^(٢) ، فإن فعلت محوئ أسمك من نبوتي ، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي . فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وآلا يميل إلى أحد الخصمين لقراءة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة ، أو غيرهما . وقال ابن عباس : إنما أبطل سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوي أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل ، بلغ من أجهاده أن طلب إلى ربه

(١) راجع ٣٧٥/٥ وما بعدها و ١٠٩/٦ وما بعدها وص ٢١٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) يفلج على صاحبه : يظفر ويفوز .

أن يجعل بينه وبينه علماً، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك؛ وإذا هو قصر عرف ذلك، فقليل له: أدخل منزلك، ثم مَدَّ يدك في جدارك، ثم أنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فأخطط عندها خطأ؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فأرجع إلى ذلك الخط فأمدد يدك إليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وإن قصرت عن الحق قصر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضي إلا بحق، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاماً ولا شرباً، ولم يفض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب. فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه، فوقع في نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما له صديق وخذن، فتحرَّك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضي له، فلما أن تكلموا دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم، فمدَّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمر إلى السقف، وإذا هو لا يبلغه فخرَّ ساجداً وهو يقول: يا ربَّ شيئاً لم أتعلمه ولم أرْهُ فبينه لي. فقليل له: أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضي له به، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردَّ الحق إلى أهله وأنت كاره. وعن ليث قال: تقدَّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقليل له في ذلك فقال: تقدَّما إليَّ فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما. وقال الشعبي: كان بين عمر وأبي خصومة، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أول جورك؛ أجلسني وإياه مجلساً واحداً؛ فجلسا بين يديه.

الخامسة - هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكم لو مكنوا أن يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليَّه ويهلك عدوَّه إلا أدعى علمه فيما حكم به. ونحو ذلك روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود

الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري. وروي أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له: أحكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده. فقال لها: إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا. وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد؛ وروي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحدته البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال: «من يشهد لي» فقام خزيمة فشهد فحكم. خرّج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في «البقرة»^(١).

[٢٧] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

[٢٨] ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

[٢٩] ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا فِيهِ وَلَسْتَ تَرَى الْأَلْبَابَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي هزلاً ولعباً. أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا. ﴿ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي حسابان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلاً. ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والميم صلة تقديره؛ أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فكان في هذا ردّ على المرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه. وبعده أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن، وهو ردّ على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

قوله تعالى: ﴿كَتَابٌ﴾ أي هذا كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ يا محمد ﴿لِيَتَذَبَّرُوا﴾ أي ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهمد^(١)؛ إذ لا يصح التدبر مع الهمد على ما بيناه في كتاب التذكار. وقال الحسن: تدبر آيات الله أتباعها. وقراءة العامة ﴿لِيَتَذَبَّرُوا﴾. وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿لِيَتَذَبَّرُوا﴾ بناء وتخفيف الدال، وهي قراءة علي^(٢) رضي الله عنه، والأصل لتدبروا فحذف إحدى التائين تخفيفاً ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي أصحاب العقول واحدها لُبٌّ، وقد جمع على أَلْبٌ، كما جمع بُؤْسٌ على أبؤسٍ، ونُعم على أنعم؛ قال أبو طالب:

قلبي إليه مُشْرِفُ الْأَلْبِ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكميت:

إليكم ذوي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ
نوازغُ من قلبي ظمَاءٌ وَالْبُؤْبُ

[٣٠] ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ دَسَلِينَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

[٣١] ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِثَاتُ الْجِيَادُ﴾.

[٣٢] ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

[٣٣] ﴿رُدُّوهُمَا عَلَىٰ صَلَافٍ مَّنْ سَا بِلِلسُوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان. و﴿أَوَّابٌ﴾ معناه مطيع. ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِثَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر؛ كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها؛ يقال: قوم أجواد وخيل جِيَاد، جاد الرجلُ بماله يجود جُوداً فهو جَوَاد، وقوم جُود مثال

(١) الهمد: سرعة القراءة.

(٢) وفي «الألوسي» أن علياً قرأ «ليتدبروا» بناء بعد الياء آخر الحروف وكذا في «البحر» لأبي حيان.

قَذَالٍ وَقَذَلٍ، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاود وجُوداء، وكذلك امرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر^(١):

صَنَاعٌ يَاشِفَاها حَصَانٌ بِشَكْرِها جَوَادٌ بِقُوْتِ الْبَطْنِ وَالْعِرْقُ زَاخِرُ

وتقول: سِرنا عُقْبَة جَوَادا، وَعُقْبَتَيْنِ جَوَادَيْنِ، وَعُقْبًا جِيَادا. وجاد الفرس أي صار رائعاً يَجُود جُودَة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جِياد وأجِياد وأجاويد. وقيل: إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [في] الخيل من صفات فَرَاهَتها. وفي الصافنات أيضاً وجهان: **أحدهما** - أن صفونها قيامها. قال القتيبي والفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار» أي يديمون له القيام؛ حكاها قطرب أيضاً وأنشد قول النابغة:

لَنَا قُبَّةٌ مَضْرُوبَةٌ بِفَنَائِها عِتَاقُ الْمَهَارَى وَالْجِيَادِ الصَّوَافِنِ

وهذا قول قتادة. **الثاني** - أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر:

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَانَهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا^(٢)
وقال عمرو بن كلثوم:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقْلَدَةً أَعْتَتَهَا صُفُونًا

وهذا قول مجاهد. قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس. وقال مقاتل: ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلاً أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة. ابن زيد: أخرج

(١) هو أبو شهاب الهذلي ورواه ابن السكيت: والعرض وافر، وروى: جواد يزداد الركب والعرق زاخِر. وأمرأة صَنَاع أي ماهرة حاذقة عمل الديدن، والإشفي المخفض للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفي. والشكر الفرج. والعرق زاخِر أراد به الجوع يعني تجود بقوتها مع شدة الجوع.

(٢) ورد في «اللسان» في مادة صفن أن قوله مما يقوم لم يزد من قيامه، وإنما أراد من الجنس الذي يقوم على الثلاث، وجعل «كسيرا» حالاً من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور.

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال علي رضي الله عنه: كانت عشرين فرساً ذوات أجنحة. وقيل: كانت مائة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفاً؛ فالله أعلم. فقال: ﴿إِنِّي أُحِبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل والعرب تسميها كذلك، وتعاقب بين الرء واللام؛ فتقول: أنهملت العين وأنهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت. قال الفراء: الخير في كلام العرب والخيل واحد. النحاس: في الحديث «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» فكأنها سميت خيراً لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي ﷺ قال له: «أنت زيد الخير» وهو زيد بن مهلهل الشاعر. وقيل: إنما سميت خيراً لما فيها من المنافع. وفي «الخبر»: إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له: اختر منها واحداً فاختر الفرس؛ فقبل له: اخترت عرك؛ فصار أسمه الخير من هذا الوجه. وسمي خيلاً؛ لأنها موسومة بالعز. وسمي فرساً لأنه يفترس مسافات الجوّ افتراس الأسد وثبناً، ويقطعها كاللثام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولاً. وسمي عربياً لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسماعيل عربي فصارت له نخلة من الله؛ فُسِّمِيَ عربياً. و ﴿حُبَّ﴾ مفعول في قول الفراء. المعنى إني أثرت حب الخير. وغيره يقدره مصدراً أضيف إلى المفعول؛ أي أحببت الخير حباً فألهاني عن ذكر ربي. وقيل: إن معنى ﴿أُحِبِّتُ﴾ قعدت وتأخرت من قولهم: أَحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر. وأحب فلان أي طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال بعير مُحِبٌّ وقد أَحَبَّ إجاباً وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضاً للبعير الحسير مُحِبٌّ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي. و ﴿حُبَّ﴾ على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: أحببت بمعنى لزمته من قوله^(١):

مَثَلُ بَعِيرٍ السَّوءِ إِذَا أَحَبَّ

(١) هو أبو محمد الفقيهي؛ وصدر البيت:

حلت عليه بالفقيل ضرباً

والفقيل السوط. وفي كتب اللغة: ضرب بعير السوء... الخ.

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردة أي هاجت الريح باردة. وقال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَزْمِي بَشْرِيرَ كَالْقَصْرِ﴾ ولم يتقدم للنار ذكر. وقال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾. والعشي ما بعد الزوال، والتواري الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلاتق؛ قاله قتادة وكعب. وقيل: هو جبل قاف. وقيل: جبل دون قاف. والحجاب الليل سمي حجاباً؛ لأنه يستر ما فيه. وقيل: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أي الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر. وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان في صلاة، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُئِمَتْ فأشار بيده، لأنه كان يصلي حتى توارت الخيل، وسترتها جُدُودُ الأصطبلات، فلما فرغ من صلاته قال: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي فأقبل يمسحها مسحاً. وفي معناه قولان: أحدهما - أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله. وقال قائل هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له. وقيل: المسح هاهنا هو القطع أذن له في قتلها. قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه، وكانت ألف فرس، فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يعلم بذلك هيبه له فاغتم؛ فقال: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ فردت فعقرها بالسيف؛ قربة لله وبقي منها مائة، فما في أيدي الناس من الخيل العتاق اليوم فهي من نسل تلك الخيل. قال القشيري: وقيل ما كان في ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها. وكان سليمان عليه السلام رجلاً مهيباً، فلم يذكره أحد ما نسي من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحاً، فتذكر سليمان تلك

الصلاة الفائتة، وقال على سبيل التلّهف: ﴿إِنِّي أَخْبِيتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي عن الصلاة، وأمر برد الأفراس إليه، وأمر بضرب عراقبيها وأعناقها، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة. ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار، ثم ذبحها في الحال ليتصدق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفتها لما شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأثنى الله عليه بهذا، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يوم ما يقطع مثله على الخيل في شهرين عُذْوًا وَرَوَاحًا. وقد قيل: إن الهاء في قوله: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ للشمس لا للخيّل. قال ابن عباس: سألت علياً عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت سمعت كعباً يقول: إن سليمان لما أشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاته الصلاة، قال: ﴿إِنِّي أَخْبِيتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي أثرت ﴿حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ الآية ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ يعني الأفراس وكانت أربع عشرة؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوماً؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب؛ لكن سليمان أشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت أي غربت الشمس بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس: ﴿رُدُّوَهَا﴾ يعني الشمس فردوها حتى صلى العصر في وقتها، وأن أنبياء الله لا يظلمون؛ لأنهم معصومون.

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها؛ حسب ما تقدّم بيانه. وكثيراً ما يضمرون الشمس؛ قال ليبد:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الشُّغُورِ ظَلَامُهَا

والهاء في ﴿رُدُّوَهَا﴾ للخيّل، ومسحها قال الزهري وأبن كيسان: كان يمسح سوقها وأعناقها، ويكشف الغبار عنها حُبّاً لها. وقاله الحسن وقتادة وأبن عباس. وفي الحديث أن النبي ﷺ رُؤي وهو يمسح فرسه بردائه. وقال: «إني عوتبت الليلة في الخيل»

خَرَّجَهُ الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلًا. وهو في غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس. وقد مضى في ﴿الأنفال﴾^(١) قوله عليه السلام: «وأمسحوا بنواصيها وأكفأها» وروى أبْن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف.

قلت: وقد أستدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلال فاسد؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبيٍّ معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسح على أعناقها وسوقها إكراماً لها وقال أنت في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عرقها ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز. وقد مضى في ﴿النحل﴾^(٢) بيانه. وعلى هذا فما فعل شيئاً عليه فيه جناح. فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون في شرعنا. وقد قيل: إنما فعل بالخيول ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك. وقد قيل: إن مسحه إياها وسُمُّها بالكَيِّ وجعلها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث أن السوق ليست بمحل للوسم بحال. وقد يقال: الكي على الساق علاطٌ، وعلى العنق وثاق. والذي في «الصحيح» للجوهري: عَلَطَ البعيرَ عَلَطًا كَوَاهِ فِي عُنْقِهِ بِسْمَةِ الْعِلَاطِ. وَالْعِلَاطَانُ جَانِبَا الْعُنُقِ.

قلت: ومن قال إن الهاء في ﴿رُدُّوَهَا﴾ ترجع للشمس فذلك من معجزاته. وقد اتفق مثل ذلك لنبينا ﷺ. خرج الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْسٍ من طريقين أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر عليٍّ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا عليٍّ» قال: لا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فأردد عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها بعدما غربت طلعت على الجبال والأرض، وذلك بالصُّهْبَاءِ فِي خَيْبَرِ. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان. ورواهما ثقات.

(١) راجع ٣٦/٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قلت: وضعف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث فقال: وغلّو الرافضة في حب عليّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليا عليه السلام العصر فردّت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدّد لا يرّد الوقت. ومن قال: إن الهاء ترجع إلى الخيل، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان في السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع. وقد مضى القول فيه في ﴿يوسف﴾^(١).

[٣٤] ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(٢١).

[٣٥] ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْتَغِي لِأحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٢٢).

[٣٦] ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٢٣).

[٣٧] ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾^(٢٤).

[٣٨] ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٢٥).

[٣٩] ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢٦).

[٤٠] ﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ وَحُشْنٌ مَتَابٍ﴾^(٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ قيل: فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكره الزمخشري. و﴿فَتَنَّا﴾ أي أبتلينا وعاقبنا. وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يحبها فهو أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى. وقال سعيد بن المسيّب: إن سليمان عليه السلام أحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد، ولا ينصف مظلوماً من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي، ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم.

وقال شهر بن حوشب ووهب بن منبه: إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزا في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون، فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شزراً، ولا تكلمه إلا نزرأ، وكان لا يرقأ لها دمع حزناً على أبيها، وكانت في غاية من الجمال، ثم أنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه، فأمر فصنع لها فعظمته وسجدت له، وسجدت معها جواريتها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر. وقيل: إن سليمان لما أصاب أبنه ملك صيدون وأسمها جرادة - فيما ذكر الزمخشري - أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت: أقتلني ولا أسلم، فتزوجها وهي مشركة، فكانت تعبد صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خفية من سليمان؛ إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر ألا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غيرهم فعوقب على ذلك؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قيل: شيطان في قول أكثر المفسرين؛ ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه، وأسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت. قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان أم ولد له يقال لها الأمانة؛ قاله شهر ووهب. وقال ابن عباس وأبن جبير: أسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى رد الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته.

وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف: كيف تضلون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسي سليمان، متشبهاً بصورته، داخلاً على نسائه، يقضي بغير الحق، ويأمر بغير الصواب^(١). وأختلف في إصابته لنساء سليمان، فحكى عن ابن عباس ووهب بن منبه أنه كان يأتيهن في حيزهن. وقال مجاهد: منع من إتيانهن. وزال عن سليمان ملكه فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيّف الناس؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه؛ قال قتادة: ثم إن سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوته من صياد. قيل: إنه أستطعماها. وقال ابن عباس: أخذها أجرة في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها، وذلك بعد أربعين يوماً من زوال ملكه، وهي عدد الأيام التي عُبد [فيها] الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يعث بخاتمه، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه. وقال جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ: «كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله». وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن

(١) هذه الأقوال لا تصح قطعاً لمنافاتها للعصمة التي هي من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولو صح شيء منها لكان الوحي محل الشك والارتباب؛ وقد قال أبو حيان في تفسيره: نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. إلى أن قال: لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكره، كتمثل الشيطان بصورة نبي، حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي. ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها.

وقال الألوسي: ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئنهن وهن حيز. الله أكبر!! هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم. وسيأتي للمؤلف تضعيف هذا القول أيضاً.

سليمان لما ردّ الله عليه ملكه، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه، ونقر له صخرة وأدخله فيها، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر؛ وقال: هذا محبسك إلى يوم القيامة. وقال عليّ رضي الله عنه: لما أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله، فأتى جزيرة في البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يرد عينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً، ولا نقدر عليه حتى يسكرا! قال: فنزع سليمان ماءها وجعل فيها خمراً. فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمّر، فقال: والله إنك لشراب طيّب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً. ثم عطش عطشاً شديداً ثم أتاها فقال مثل مقالته، ثم شربها فغلبت على عقله؛ فأروه الخاتم فقال: سمعاً وطاعة. فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا: إن الدخان الذي ترون من نفسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بوله. وقال مجاهد: أسم ذلك الشيطان آصف. وقال السدي أسمه حقيق؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبهم في حق، وهم مع الشيطان في باطل. وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وَلَدٌ لسليمان، وأنه لما ولد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إن عاش له أبن لم ننكح مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا تقتل ولده أو نخبله. فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا أبنه في السحاب خوفاً من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾.

وحكى النقاش وغيره: أن أكثر ما وطىء سليمان جواريه طلباً للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه، جاءت به القابلة فألقته هناك. وفي «صحيح البخاري ومسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان لأطوفن الليلة على

تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعاً فلم تحمل منهنّ إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصديق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون ولذلك لا يتماسك في يدك، ففِرّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك، وأنا أقوم مقامك في عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتننت أربعة عشر يوماً. ففِرّ سليمان هارباً إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علم من الكتاب. وقام آصف في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى، وردّ الله عليه ملكه؛ فأقام آصف في مجلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم. وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى.

صفة كرسي سليمان وملكه

روي عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة كرسي، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتي أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فتظللهم، ثم يدعو الريح فتقلّهم، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر. وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب، فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُقَصَّصة بالدّر والياقوت والزبرجد، وأن يحفّ بنخيل الذهب؛ فحف بأربع نخلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسي أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر، وأخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي كله بما فيه دوران الرحي المسرعة؛ وتنشر تلك الثُسر والثواويس أجنحتها، ويسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذناهما. وكذلك يفعل في كل درجة يصعدا سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ الثُسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعا على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه الثُسران والثواويس والأسدان مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء. قالوا: ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر، وهي ألف كرسي عن يمينه، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسي، ثم تحف بهم الطير تظلهم، ويتقدم الناس لفصل القضاء. فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسي بما فيه وعليه دوران الرحي المسرعة، ويسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذناهما، وينشر الثُسران والثواويس أجنحتها، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق. وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسي تثن من ذهب ذلك الكرسي عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنى؛ فإذا أحست بدورانه تلك الثُسر والأسد والثواويس التي في أسفل الكرسي إلى أعلاه درن معه، فإذا وقفن وقفن كلهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهن من المسك والعنبر. فلما توفي سليمان بعث بُخْتَنَصْر فأخذ الكرسي فحملة إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعاً. ومات بُخْتَنَصْر وحمل الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره ولعله رُفِع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى الله وتاب. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي اغفر لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ يقال: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا، مع ذمها من الله تعالى، وبغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته؛ ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكته الله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها الله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة. وقد قيل: إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عبادته، أو أراد أن يقول ملكاً عظيماً فقال: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ وهذا فيه نظر. والأول أصح. ثم قال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الحسن: ما من أحد إلا والله عليه تبعة في نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الآية.

قلت: وهذا يردّ ما روي في الخبر: إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفاً، ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه، لأنه من طريق المنّة، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة، وهو سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. وفي «الصحيح»: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبيّ دعوته» الحديث. وقد تقدّم فجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية، فلذلك لم تكن عليه تبعة. ومعنى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي أن يسأله. فكانه سأل منع السؤال بعده، حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إن سؤاله ملكاً لا ينبغي

لأحد من بعده؛ ليكون محله وكرامته من الله ظاهراً في خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس في المحل عنده، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محله عنده، ولهذا لما أخذ النبي ﷺ العفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فردّه خاسئاً. فلو أعطي أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية، فكانه كره ﷺ أن يزاحمه في تلك الخصوصية، بعد أن علم أنه شيء هو الذي حُصِّرَ به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رُحَاءِ﴾ أي لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضر بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روي فرسخاً في فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، في كل درجة صنف من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه؛ صلوات الله وسلامه عليه. وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدثنا أحمد بن جعفر، قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدثنا أبو بكر بن عيَّاش عن إدريس بن وهب بن منبه، قال حدثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد، فركب الريح يوماً فمر بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً! فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لثلاث تمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسيحة واحدة يقبلها الله منك لخير مما أوتي آل داود. فقال الحرّاث: أذهب الله همّك كما أذهبت همّي.

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي أراد؛ قاله مجاهد. والعرب تقول: أصاب الصواب وأخطأ الجواب. أي أراد الصواب وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي. وقال الشاعر:

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصَلِ

وقيل: أصاب أراد بلغة حُمير. وقال قتادة: هو بلسان هَجَر. وقيل: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيثما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ بدل من الشياطين أي كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال (١):

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَأَخَذُوهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَحَيْسَ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرُ بِالصُّفَّاحِ وَالْعُمْدِ

﴿وَعَوَّاصٍ﴾ يعني في البحر يستخرجون له الدر. فسلیمان أول من أستخرج له اللؤلؤ من البحر. ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وسخرنا له مَرْدَة الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقبود الحديد؛ قاله قتادة. السدي: في الأغلال. ابن عباس: في وثاق. ومنه قول الشاعر (٢):

فَأَبَوْا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُنْشَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم. قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الإشارة بهذا إلى الملك؛ أي هذا الملك عطاؤنا، فأعط من شئت أو أمنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما. قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت له ثلثمائة امرأة وسبعمائة سريّة، وكان في ظهره ماء مائة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن (٣) عباس. ومعناه في «البخاري». وعلى هذا ﴿فَامْنُنْ﴾ من المنيّ؛ يقال: أَمْنَى يُمْنِي وَمَنَى يَمْنِي لَغْتَانِ، فإذا أمرت من أمني قلت أَمْنٍ، ويقال: من مَنَى يَمْنِي في الأمر أَمْنٍ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت أَمْنِ. ومن

(١) هو النابغة الذبياني: ويروى إذ قال المليك له. ويروى فأزجرها عن الفند. أي الخطأ. وخيس أي ذلل والصفاح جمع صفحة بشد الفاء وهي حجارة رقاق عراض.

(٢) هو عمرو بن كلثوم والبيت من معلقته. (٣) قال أبو حيان في تفسيره: ولعله لا يصح عن ابن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء، ولا ما أوتي من القدرة على ذلك.

ذهب به إلى المِنة قال: مَنْ عَلَيْهِ؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين؛ لأنه كان مضاعفاً فقال أَمُنُّ. فيروى في الخبر أنه سخر له الشياطين فمن شاء مَنْ عَلَيْهِ بالعتق والتخلية ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدي. وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس: أي جامع من شئت من نساءك وأترك جماع من شئت منهم لا حساب عليك. ﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ أي إن أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قربة وحسن مرجع.

[٤١] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

[٤٢] ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

[٤٣] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ أمر للنبي ﷺ بالاعتداء بهم في الصبر على المكاره. ﴿أَيُّوبَ﴾ بدل. ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر ﴿إني﴾ بكسر الهمزة أي قال. قال الفراء: وأجمعت القراء على أن قرؤوا ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلط وبعده مناقضة وغلط أيضاً؛ لأنه قال أجمعت القراء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ ﴿بِنُصْبٍ﴾ بفتح النون والصاد فغلط على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون والصاد؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروي عن الحسن. فأما ﴿بِنُصْبٍ﴾ فقراءة عاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي. وقد رويت هذه القراءة عن الحسن. وقد حكى ﴿بِنُصْبٍ﴾ بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصْبِ؛ فَنُصْبٌ وَنُصْبٌ كَحُزْنٌ وَحَزْنٌ. وقد يجوز أن يكون نُصْبٌ جمع نَصَبٍ كَوُثْنٌ وَوَتْنٌ؛ ويجوز أن يكون نُصْبٌ بمعنى نُصْبٌ حذفته منه الضمة، فأما ﴿وَمَا دُبِجَ عَلَى النَّصْبِ﴾ فقليل؛ إنه جمع نصاب. وقال أبو عبيدة وغيره: النَّصْبُ الشر والبلاء والنَّصْبُ التعب والإعياء. وقد قيل في معنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم.

ذكره النحاس . وقيل : إن النصب ما أصابه في بدنه ، والعذاب ما أصابه في ماله ؛ وفيه بعد . وقال المفسرون : إن أيوب كان رومياً^(١) من البَشِيَّة وكنيته أبو عبد الله في قول الواقدي ؛ أصطفاه الله بالنبوة ، وآتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع الأموال والأولاد . وكان شاكراً لأنعم الله ، مواسياً لعباد الله ، برا رحيماً . ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر . وكان لإبليس موقف من السماء السابعة في يوم من العام ، فوقف به إبليس على عادته ؛ فقال الله له أو قيل له عنه : أَقْدَرْتَ من عبدي أيوب على شيء ؟! فقال : يا رب ! وكيف أقدر منه على شيء ، وقد أبتليت به بالمال والعافية ، فلو أبتليت بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك . قال الله قد سلطتك على أهله وماله . فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم ، وقال قائل منهم : أكون إعصاراً فيه نار أهلك ماله فكان ؛ فجاء أيوب في صورة قَيم ماله فأعلمه بما جرى ؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه . ثم جاء قصره بأهله وولده ، فاحتل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبته توبة أيوب . قال : يا رب سلطني على بدنه . قال : قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره ، فنفخ في جسده نفخة أشتعل [منها]^(٢) فصار في جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت ، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه . وقال عند ذلك ﴿مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ . ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن ؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب ، فمكث كذلك ثلاث سنين . فلما غلبه أيوب أعترض لامرأته في هيئة أعظم من هيئة بني آدم في القدر والجمال ، وقال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله وهم عندي . وعرض لها في بطن الوادي ذلك كله في صورته ؛ أي أظهره لها ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاماً طويلاً في [سبب^(٣) بلاته و] مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي

(١) صحح المحققون أنه من بني إسرائيل كما جزم به الألوسي وغيره . والبشية بالتحريك وكسر النون رياء مشددة قرية بدمشق بينها وبين أذرعات .

(٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبي . (٣) زيادة يقتضيها السياق .

نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه؛ وقيل: استعان به مظلوم فلم ينصره فأبتلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوماً الناس فمنع فقيراً الدخول فأبتلي بذلك. وقيل: كان أيوب يغزو ملكاً وكان له غنم في ولايته، فذاهته لأجلها بترك غزوه فأبتلي. وقيل: كان الناس يتعدون أمراته ويقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها؛ فهذا قال: ﴿مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ﴾. وأمراته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه أبنة لوط. وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله. قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم. وأما قولهم: إن الله تعالى قال له هل قدرت من عبدي أيوب على شيء فباطل قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟! وأما قولهم: إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعد، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقر له - لعنة الله عليه - عينٌ بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهلهم وأنفسهم. وأما قولهم: إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تركت ذكر الله وسجدت أنت لي لعافيته، فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يعافي من البلاء، فكيف أن تستريب زوجة نبي؟! ولو كانت زوجة سوادني أو قديم^(١) بربري ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل في وإد للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه.

(١) القدم من الناس القليل الفهم والفتنة.

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره. قال القاضي: والذي جراًهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٌ﴾ فلما رآوه قد شكّا من الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال. وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكراً، وإن كان موجوداً منه خلقاً؛ أدباً أدبنا به، وتحميداً علّمناه، وكان من ذكر محمد ﷺ لربه به قوله من جملة: «والخير في يديك والشر ليس إليك» على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَا أُنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ وأما قولهم: إنه استعان به مظلوم فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزّه عن ذلك. أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطل عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه. وأما قولهم: إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل داري. ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام. قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه: ولم يصبح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾ والثانية في ﴿ص﴾ «أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٌ». وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بيننا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رجل من جرّاد من ذهب» الحديث. وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

وفي «الصحيح» واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه مخضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءة التوراة.

قوله تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرّكض الدفع بالرجل. يقال: رَكَضَ الدابة ورَكَض ثوبه برجله. وقال المبرد: الرّكض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال رُكِضَتِ الدابة ولا يقال رَكَضَتْ هي؛ لأن الركض إنما هو تحريك راکبها رجله ولا فعل لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضَتِ الدابة فركضت مثل جَبَرْتُ العظم فَجَبَرَ وَحَزَنَتْه فحزن؛ وفي الكلام إضمار أي قلنا له ﴿أَرْكُضْ﴾ قاله الكسائي. وهذا لما عافاه الله. ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فركض فنبعت عين ماء فأغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه. وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجايبة، فأغتسل من إحداها فأذهب الله تعالى ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه. ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل: نبعت عين حارّة وأغتسل فيها فخرج صحيحاً، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده، والمغتسل الماء الذي يغتسل به؛ قاله القتيبي. وقيل: إنه الموضع الذي يغتسل فيه؛ قاله مقاتل. الجوهري: وأغتسلت بالماء، والغسُول الماء الذي يغتسل به، وكذلك المغتسل، قال الله تعالى: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمغتسل أيضاً الذي يغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل الموتى والجمع المغاسل. وأختلف كم بقي أيوب في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب بن منبه: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين

وَعُذِبَ بُخْتَنَصْرٌ وَحُوْلٌ^(١) فِي السَّبَاعِ سَبْعَ سِنِينَ . ذَكَرَهُ أَبُو نَعِيمٍ . وَقِيلَ : عَشْرَ سِنِينَ . وَقِيلَ : ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً . رَوَاهُ أَنَسٌ مَرْفُوعاً فِيمَا ذَكَرَ الْمَاورِدِي .

قلت : وذكره ابن المبارك ؛ أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة . وذكر الحديث القشيري . وقيل أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ تقدم في ﴿ الأنبياء ﴾^(٢) الكلام فيه . ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي نعمة منا . و﴿ ذِكْرِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي عبرة لذوي العقول .

[٤٤] ﴿ وَخُذْ بِدِرْكٍ ضَعِيفًا فَاُضْرِبْ بِهٖ وَلَا تَحْتِمْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(٣) .

فيه سبع مسائل .

الأولى - كان أيوب حلف في مرضه أن يضرب أمرأته مائة جلدة ؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها - ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداداة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتني ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقال ؛ وَيَحْكُ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ . **الثاني** - ما حكاه سعيد بن المسيّب أنها جاءت بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز ، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . **الثالث** - ما حكاه يحيى بن سلام وغيره أن الشيطان أغواها ؛ أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرباً إليه وأنه يبرأ ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة . **الرابع** - قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضعفاً فيضرب به ،

(١) حول بمعنى مسخ ؛ راجع قصة دانيال في قصص الأنبياء للثعلبي .

(٢) راجع ٣٢٣/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إكثال النخل الجامع بشماريخه.

الثانية - تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديباً. وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لثلاث يضرب امرأته فوق حد الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب؛ ولهذا قال عليه السلام: «وأضربوهن ضرباً غير مبرح» على ما تقدم في «النساء»^(١) بيانه.

الثالثة - وأختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي. وحكى عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب. وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة يبر. وروى نحوه الشافعي. وروى نحوه عن النبي ﷺ في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وقال القشيري: وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع. ابن العربي: وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبر. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا. قال ابن المنذر: وقد روي عن علي أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: «فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» وهذا مذهب أصحاب الرأي. وقد احتج الشافعي لقوله بحديث، وقد تكلم في إسناد؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، قال حدثنا ابن وهب، قال أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال أخبرني

أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه أشتكى رجل منهم حتى أضنى، فعاد جلدة على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوق عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: أستفتوا لي رسول الله ﷺ؛ فإني قد وقعت على جارية دخلت عليّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة. قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة، أو ضرباً ولم يقل ضرباً شديداً ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنث. قال ابن المنذر؛ وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضرباً خفيفاً فهو بارّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس بالضرب إلا الضرب الذي يؤلم.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليل على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراجحاً. وقد مضى القول فيه في ﴿المائدة﴾^(١) يقال: حنث في يمينه يحنث إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أي فأضرب لا تحنث.

الخامسة - قال ابن العربي قوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ يَهْ وَلَا تَحْنَثْ﴾ يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارة، وإنما كان البرّ والحنث. والثاني - أن يكون صدر منه نذر لا يمين، وإذا كان النذر معيناً فلا كفارة فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقي في البلاء ثمان عشرة سنة، كما في حديث ابن شهاب، قال له صاحباؤه: لقد أذنبت ذنباً ما أظنّ أحداً بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أنّ ربي

عز وجل يعلم أنني كنت أمرّ على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأقلب إلى أهلي، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق^(١) فنأدى ربه ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُورِ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وذكر الحديث. فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة - أستدل بعض جهال المتزهدة، وطغاة المتصوفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جواز الرقص. قال أبو الفرج الجوزي: وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحاً كان لهم فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء. قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ دالة على ضرب المحاذ^(٢) بالقضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع. وقد أحتج بعض قاصريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت متي وأنا منك» فَحَجَلَ. وقال لجعفر: «أشبهت خلقتي وخلقتي» فَحَجَلَ. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فَحَجَلَ. ومنهم من أحتج بأن الحبشة زفنت والنبى ﷺ ينظر إليهم. والجواب - أما الحجل فهو نوع من المشي يُفعل عند الفرح فأين هو والرقص، وكذلك زفن الحبشة نوع من المشي يُفعل عند اللقاء للحرب.

السابعة - قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أي على البلاء. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي تواب رجاء مطيع. وسئل سفيان عن عبيد بن أبي ربيعة أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبيد، أحدهما صابر والآخر شاعر ثناء واحداً؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

(١) في نسخة إلا نحن.

(٢) كذا في «الأصل» وفي بعض النسخ «بالمخاد» بالخاء المعجمة.

قلت: وقد ردّ هذا الكلام صاحب «القوت» وأستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني. وذكر كلاماً كثيراً شيد به كلامه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومحبة السالكين والزهاد». وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما أتلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به أمتحنوا وفُتِنوا. فأَيُوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مقال، فقد اجتمع^(١) مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم. وفي حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ: «إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه ﴿أَرْكُضْ يَرْجُلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فَأَغْتَسَلَ فَأَعَادَ اللَّهُ لَحْمَهُ وَشَعْرَهُ وَبَشَرَهُ عَلَى أَحْسَنَ مَا كَانَ ثُمَّ شَرِبَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ كُلَّ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ مِنْ أَلَمٍ أَوْ ضَعْفٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ثَوْبَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ أَيْضِينَ فَأَتْتَزَرُ بِأَحَدِهِمَا وَأَرْتَدِي بِالْآخَرِ ثُمَّ أَقْبَلَ يَمْشِي إِلَى مَنْزِلِهِ وَرَأَتْ^(٢) عَلَى أَمْرَاتِهِ فَأَقْبَلَتْ حَتَّى لَقِيَتْهُ وَهِيَ لَا تَعْرِفُهُ فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ وَقَالَتْ أَيُّ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هَلْ رَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الْمَبْتَلَى قَالَ مَنْ هُوَ قَالَتْ نَبِيُّ اللَّهِ أَيُوبُ أَمَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا قَالَ فَإِنِّي أَيُوبُ وَأَخَذَ ضِغْثًا فَضَرِبَهَا بِهِ» فزعم ابن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُماماً^(٣). وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم، فأقبلت سحابة حتى سَجَلَتْ^(٤) فِي أَنْدَرٍ^(٥) قَمَحِهِ ذَهَبًا حَتَّى أَمْتَلَأَ، وَأَقْبَلَتْ سَحَابَةٌ أُخْرَى إِلَى أَنْدَرٍ شَعِيرِهِ وَقَطَّائِيهِ^(٦) فَسَجَلَتْ فِيهِ وَرَقًا حَتَّى أَمْتَلَأَ.

(١) الضمير يعود على سليمان عليه السلام.

(٢) راث: أبطأ.

(٣) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص.

(٤) السجل الانصباب المتواصل.

(٥) الأندر: الموضع الذي يدرس فيه القمح وغيره.

(٦) القطاني: الحبوب التي تدخر كالحمص والعدس واللوبياء وما شاكلها.

[٤٥] ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾.

[٤٦] ﴿إِنَّا اخْتَصَمْتُمْ بِمِثْلِ ذِكْرِ الدَّارِ﴾.

[٤٧] ﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿عِبْدَنَا﴾ بإسناد صحيح؛ رواه ابن عيينة عن عمرو عن عطاء عنه، وهي قراءة مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿إبراهيم﴾ بدلاً من ﴿عبدنا﴾ و﴿إسحاق ويعقوب﴾ عطف. والقراءة بالجمع أبين، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، ويكون ﴿إبراهيم﴾ وما بعده على البدل. النحاس: وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيت أصحابنا زيداً وعمراً وخالداً، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيداً وعمراً وخالداً فزيد وحده بدل وهو صاحبنا، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسوا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخل في العبودية. وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام». ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ قال النحاس: ﴿أما الْأَبْصَارِ﴾ فمتفق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما ﴿الْأَيْدِي﴾ فمختلف في تأويلها؛ فأهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين. وقوم يقولون: ﴿الْأَيْدِي﴾ جمع يد وهي النعمة؛ أي هم أصحاب النعم؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيراً. وهذا اختيار الطبري. ﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ﴾ أي الذين أصطفاهم من الأنداس وأختارهم لرسالته. ومصطفين جمع مصطفى والأصل مصطفى وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(١) عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ﴾ و﴿الآخِيَارِ﴾ جمع خير. وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

(١) راجع ١٣٣/٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد أصطفينا في الدنيا﴾ ففيه الكلام على اشتقاق اللفظ وليس في الآية المذكورة.

وعيسى الثقفي ﴿أُولِي الْأَيْدِ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولي القوة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذفت الياء تخفيفاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ﴾ قراءة العامة ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ منونة وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر ﴿بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ﴾ بالإضافة فمن نون خالصة فـ ﴿ذُكِّرَى الدَّارِ﴾ بدل منها؛ التقدير: إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها، ويَرْغَبُوا فيها وَيُرْغَبُوا الناس فيها. ويجوز أن يكون ﴿خالصة﴾ مصدراً لخلص و ﴿ذكرى﴾ في موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار؛ أي تذكير الدار الآخرة. ويجوز أن يكون ﴿خالصة﴾ مصدراً لأخلصت فحذفت الزيادة، فيكون ﴿ذكرى﴾ على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار. والدار يجوز أن يراد بها الدنيا؛ أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر؛ أي بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم. وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم أي بذكر الآخرة؛ أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى؛ إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم.

[٤٨] ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ (١٨).

[٤٩] ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِن لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ (١٩).

[٥٠] ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (٢٠).

[٥١] ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ (٢١).

[٥٢] ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَرْزَابُ﴾ (٢٢).

[٥٣] ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢٣).

[٥٤] ﴿إِنَّ هَذَا الرَّزْقُ مَالٌ لِّمَن نَّفَادِ﴾ (٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ لِسَمِيعٍ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ مضى ذكر اليسع في ﴿الأنعام﴾^(١) وذكر ذي الكفل في ﴿الأنبياء﴾^(٢). ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي ممن أختير للنبوّة. ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به في الدنيا أبداً. ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة. ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ﴾ والعَذْن في اللغة الإقامة؛ يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمر: إن في الجنة قصراً^(٣) يقال له عَذْنٌ حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حَبْرَةٍ^(٤) لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ حال ﴿لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ رفعت الأبواب لأنه أَسَم ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: أي مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفراء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفراء: ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ بالنصب. قال الفراء: أي مفتحة الأبواب ثم جثت بالتونين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

ونأخذ بعده بِذَنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظَّهَرُ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ^(٥)

وإنما قال ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ولم يقل مفتوحة؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تَكَلَّم: أَنْفَتَحِي فتفتح أنغلقي فتغلق. وقيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب.

قوله تعالى: ﴿مُتَكِّئِينَ فِيهَا﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي يدعون في الجنات متكئين فيها. ﴿بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي بالوان الفواكه. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى في ﴿الصفات﴾^(٦). ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي على سن واحد، وميلاد امرأة واحدة، وقد

(١) راجع ٣٣/٧ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٣٢٧/١١ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) تقدّمت هذه الرواية في ٣١١/٩ بهذا اللفظ وهي توافق ما في «تفسير الطبري» وغيره عن عبد الله بن عمرو، ولفظ الأصل هنا «جنة عدن قصر في الجنة» الخ.

(٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنية مخطط. (٥) البيت للنايفة والشاهد فيه نصب الظهر بأجب على نية التونين؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس في أسوأ حال وأضيق عيش، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذي لا سنام له من الهزال. (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء.

تساوين في الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ابن عباس: يريد الآدميات. و ﴿أَتَرَابٌ﴾ جمع ترب وهو نعت لقاصرات؛ لأن ﴿قَاصِرَاتٌ﴾ نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مَحْوِلٌ
مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِثْبِ مِنْهَا لَأَثَرًا^(١)

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به. وقراءة العامة بالتاء أي ما توعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر، وهي قراءة السلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّآبٍ﴾ فهو خبر. ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهِنِينَ مَا لَهُمْ لِيَزْمَانَ السَّ
سوء حتى إذا أفاق أفاقوا

أي في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

[٥٥] ﴿هَذَا وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَشَرٌّ مَقَابٍ﴾.

[٥٦] ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَكْسُوْنَهَا﴾.

[٥٧] ﴿هَذَا قَلْبُكَ وَقُوتُ جَيْبِكَ وَضَاقَ﴾.

[٥٨] ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾.

[٥٩] ﴿هَذَا قَوْحٌ مَقْنَعُهُمْ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارَ﴾.

[٦٠] ﴿قَالُوا هَلْ أَتَيْنَا لَكُمْ مَرْجَأًا بَعْدَ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَكْسُ الْقَرَارُ﴾.

[٦١] ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَّآبٍ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للظالمين.

قال الزجاج: ﴿هَذَا﴾ خبر ابتداء محذوف أي الأمر هذا فيوقف على «هذا». قال ابن الأنباري: «هذا» وقف حسن ثم تبدى ﴿وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الذين كذبوا الرسل.

(١) قائله أمرؤ القيس. المحول؛ الصغير. والإثب: درع المرأة. وبردة تشق فتلبس من غير كمين ولا

﴿لَشَرٌّ مَّآبٍ﴾ أي منقلب يصيرون إليه. ثم بين ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا فَيُشَرُّ الْمِهَادُ﴾ أي بشس ما مهدوا لأنفسهم، أو بشس الفراش لهم. ومنه مهد الصبي. وقيل: فيه حذف أي بشس موضع المهاد. وقيل: أي هذا الذي وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على ﴿هذا﴾ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ ﴿هذا﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿حَمِيمٌ﴾ على التقديم والتأخير؛ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه. ولا يوقف على ﴿فَلْيَذوقُوهُ﴾ ويجوز أن يكون ﴿هذا﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿فَلْيَذوقُوهُ﴾ في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في ﴿هذا﴾ فيوقف على ﴿فَلْيَذوقُوهُ﴾ ويرتفع ﴿حميم﴾ على تقدير هذا حميم. قال النحاس: ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغساق إذا لم تجعلهما خبراً فرفعهما على معنى هو حميم وغساق. والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غساق وأنشد:

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الضُّبْحُ^(١) فِي غَلَسٍ وَغُرُورِ الْبَقْلِ مَلُوءٍ وَمَخْصُودُ
وَقَالَ آخِرًا^(٢):

لَهَا مَتَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ بِهِ قَتَبٌ وَغَزَبٌ إِذَا مَا أَفْرَغَ أَنْسَحَقًا

ويجوز أن يكون ﴿هذا﴾ في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ﴿فَلْيَذوقُوهُ﴾ كما تقول زيداً أضربه. والنصب في هذا أولى فيوقف على ﴿فَلْيَذوقُوهُ﴾ وتبتدىء ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ على تقدير الأمر حميم وغساق. وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في ﴿وَغَسَّاقٌ﴾. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد في قول الأخفش. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفف فهو أسم مثل عذاب وجواب وصواب، ومن شدد قال: هو أسم فاعل نقل إلى فعال للمبالغة، نحو ضراب وقتال وهو فعال من غَسَقَ يغسِقُ فهو غَسَّاقٌ وغاسِقٌ. قال ابن عباس: هو الزمهرير يخوفهم

(١) رواه السمين: أضواء البرق. (٢) قائله زهير بن أبي سلمى يصف الناقة التي يستقي عليها. وقب وغرب بيان للمتاع. والقَبْ أداة السانية، الغرب الدلو العظيمة. وأنسحقا أي مضى وبعد سيلانه.

ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحره. وقال عبد الله بن عمرو: هو قيق غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتن من في المشرق. وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن تنّ لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والتّنّ. وقال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غسّق الجرح يغسّق غسّقاً إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ الْحَيَاةَ وَطَيِّبَهَا إِلَيَّ جَرَى دَمْعٌ مِنَ اللَّيْلِ^(١) غَاسِقٌ

أي بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدي: الغساق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم. وقال ابن زيد: الحميم دموع أعينهم، يجمع في حياض النار فيسقونه، والصديد الذي يخرج من جلودهم. والاختيار على هذا ﴿وَعَسَاقٌ﴾ حتى يكون مثل سَيَّال. وقال كعب: الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي حُمَةٍ من عقرب وحية. وقيل: هو مأخوذ من الظلمة والسواد. والغسّق أول ظلمة الليل، وقد غسّق الليلُ يغسّق إذا أظلم. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لو أن دُلُوءاً من غساق يُهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا».

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأول كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلماً فيصح الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وَأَخْرُ﴾. جمع أخرى مثل الكبرى والكُبر. الباقون ﴿وَأَخْرُ﴾ مفرد مذكر. وأنكر أبو عمرو ﴿وَأَخْرُ﴾ لقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي لا يخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدري ﴿وَأَخْرُ﴾ قال: ولو كانت ﴿وَأَخْرُ﴾ لكان من شكلها. وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان. ﴿وَأَخْرُ﴾ أي وعذاب آخر سوى الحميم والغساق. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو

الزمهرير. وارتفع ﴿وآخر﴾ بالابتداء و ﴿أزواج﴾ مبتدأ ثانٍ و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ خبره والجملة خبر ﴿آخر﴾. ويجوز أن يكون ﴿وآخر﴾ مبتدأ والخبر مضمحل عليه ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ لأن فيه دليلاً على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر ويكون ﴿مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و ﴿أزواج﴾ مرفوع بالظرف. ومن قرأ ﴿وآخر﴾ أراد وأنواع من العذاب أخر، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً ثم جمع كما قالوا: شابت مفارقه. أو على أنه جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ والضمير في ﴿شَكْلِهِ﴾ يجوز أن يعود على الحميم أو العساق. أو على معنى ﴿وآخر مِنْ شَكْلِهِ﴾ ما ذكرنا، ورفع ﴿أخر﴾ على قراءة الجمع بالابتداء و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدأ و ﴿أزواج﴾ خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم آخر و ﴿من شكله﴾ صفة لآخر و ﴿أزواج﴾ مرتفعة بالظرف كما جاز في الأفراد؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ارتفع ﴿أزواج﴾ بالظرف ولا ضمير في الظرف والهاء في ﴿شكله﴾ لا تعود على ﴿آخر﴾ لأنه جمع والضمير مفرد؛ قاله أبو علي. و ﴿أزواج﴾ أي أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدل^(١).

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة ﴿هَذَا فَوْجٌ﴾ يعني الأتباع والفوج الجماعة ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي داخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ أي لا اتسعت منازلهم في النار. والرحب السعة، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لَا مَرْحَباً بِغَدٍ وَلَا أَهْلًا بِهِ إِنْ كَانَ تَفْرِيقُ الْأَحِبَّةِ فِي غَدٍ

(١) يقال امرأة ذات شكل (بالكسر) أي ذات دلال، وهو حسن الحديث وحسن المزج والهيئة.

قال أبو عبيدة العرب تقول: لا مرحباً بك؛ أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي إنهم صالوا النار كما صليناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ و﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هو من قول الأتباع. وحكى النقاش: إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم بيدر. والظاهر من الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع. ﴿أَنْتُمْ قَدْ مُتِمُّوهُ لَنَا﴾ أي دعوتونا إلى العصيان ﴿فَبَيَسَ الْفَرَّازُ﴾ لنا ولكم ﴿قَالُوا﴾ يعني الأتباع ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ قال الفراء: من سوغ لنا هذا وسَّته. وقال غيره: من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً. وقال ابن مسعود: معنى سذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾.

[٦٢] ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾.

[٦٣] ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾.

[٦٤] ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال أين صُهَيْبُ أين عَمَّارُ أولئك في الفردوس! واعجباً لأبي جهل! مسكين! أسلم ابنه عكرمة، وأبنته جُويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

وَنُورًا أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمٌ

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قال مجاهد: اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا في الدنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ فلم نعلم مكانهم. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيًّا، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا محقرة لهم. وقيل: معنى ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ أي أهم معنا في النار فلا

نراهم. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحزمة والكسائي يقرؤون ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد أستغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على ﴿الْأَشْرَارِ﴾ لأن ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ حال. وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً. ومن قرأ ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بقطع الألف وقف على ﴿الْأَشْرَارِ﴾ قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب. ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل. وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى والأعمش وحزمة والكسائي ﴿سُخِّرَ﴾ بضم السين. الباقون بالكسر. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿لَحَقٌّ﴾ خبر إن و ﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف بمعنى هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلاً من حق. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع. أي إن تخاصم أهل النار في النار لحق. يعني قولهم: ﴿لَا مَرْجَىٰ لَكُمْ﴾ الآية وشبهه من قول أهل النار.

[٦٥] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

[٦٦] ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

[٦٧] ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾.

[٦٨] ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

[٦٩] ﴿مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

[٧٠] ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدم. ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ﴾ أي معبود ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ ﴿١٠﴾ بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح. ﴿وَالْعَزِيزُ﴾ معناه المنيع الذي لا مثل له. ﴿الْعَفَّارُ﴾ الستار لذنوب خلقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي وقل لهم يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يُستخفَّ به. قال معناه قتادة. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾. وقال ابن عباس ومجاهد وقاتدة: يعني القرآن الذي أنبأكم به خبر جليل. وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملاء الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدي اختصموا في أمر آدم حين خلق ف ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وقال إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وفي هذا بيان أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾. وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «سألني ربي فقال يا محمد فيم اختصم الملاء الأعلى قلت في الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشي على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء في السُّبُرَاتِ^(١) والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس، وقال فيه حديث غريب. وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال حديث حسن صحيح. وقد كتبناه بكماله في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، وأوضحنا إشكاله والحمد لله. وقد مضى في ﴿يس﴾^(٢) القول في المشي إلى المساجد، وأن الخطأ تكفر السيئات، وترفع الدرجات. وقيل: الملاء الأعلى الملائكة والضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ لفرقتين يعني قول من قال منهم الملائكة بنات الله،

(١) السبرات جمع سبرة يسكون الباء وهي شدة البرد.

(٢) راجع ص ١٢ وما بعدها من هذا الجزء.

[ومن قال آلهة تعبد]^(١). وقيل: الملائة الأعلى ههنا قریش؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سرّاً، فأطلع الله نبيه على ذلك. ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إن يوحى إليّ إلا الإنذار. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ بكسر الهمزة؛ لأن الوحي قول، كأنه قال: يقال لي إنما أنت نذير مبين، ومن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها أسم ما لم يسم فاعله. قال الفراء: كأنك قلت ما يوحى إليّ إلا الإنذار، النحاس: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى إلا لأنما. والله أعلم.

[٧١] ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

[٧٢] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

[٧٣] ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

[٧٤] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿إِذْ﴾ من صلة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ المعنى؛ ما كان لي من علم بالملائة الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾. وقيل: ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ و ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يتعلق بمحذوف؛ لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملائة الأعلى وقت اختصامهم. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ﴾ ﴿إِذَا﴾ تردّ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه؛ أي خلقته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ رُوحِي﴾ أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيره. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مُجَوِّدًا في ﴿النساء﴾^(٢) في قوله في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجود تحية لا سجود عبادة. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(٣). ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي أمثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أنف من السجود له جهلاً بأن السجود له طاعة لله، والأنفة من طاعة الله استكباراً كفر، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلام في هذا في ﴿البقرة﴾^(٤) مستوفى.

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان في تفسيره.

(٢) راجع ٢٢/٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٢٩٣/١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٤) راجع ٢٩٦/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

- [٧٥] ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥).
- [٧٦] ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦).
- [٧٧] ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧).
- [٧٨] ﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨).
- [٧٩] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩).
- [٨٠] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠).
- [٨١] ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٨١).
- [٨٢] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢).
- [٨٣] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٨٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي صرفك وصدك ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ أي عن أن تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالق كل شيء. وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد، فخطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكريم، فذكر اليد هنا بمعنى هذا. قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد والصلة؛ مجازة لما خلقت أنا كقوله: ﴿وَيَتَقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ أي يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة، يقال مالي بهذا الأمر يد. ومالي بالحمل الثقيل يدان. ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحَمَّلْتُ مِنْ [عَفْرَاءٍ] ^(١) مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ

وقيل ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ لما خلقت بغير واسطة. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي عن السجود ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي المتكبرين على ربك. وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة ﴿بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ﴾ موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل ﴿أَمْ يَقُولُونَ

(١) في «الأصول» ذلفاء وهو تحريف. والبيت لعروة بن حزام.

أَفْتَرَاهُ ﴿ وشبهه. ومن أستفهم فأم معادلة لهزمة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ. أي أستكبرت بنفسك حين آبيت عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قال الفراء: من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال. ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فَضَّلَ النار على الطين وهذا جهل منه؛ لأن الجواهر متجانسة ففاس فأخطأ القياس. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾^(١) بيانه. ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة ﴿فإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم بالكواكب والشهب ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حيثئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجِبْ إلى ذلك، وأُخِّرَ إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأُخِّرَ إليه تهاوناً به. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبه عليهم، فمعنى ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يضل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذين أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم مني. وقد مضى في ﴿الحجر﴾^(٢) بيانه.

[٨٤] ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾.

[٨٥] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

[٨٦] ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

[٨٧] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

[٨٨] ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَ بَعْدِ جَعِنٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول. وأجاز الفراء فيه

الخفض. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوب بـ ﴿أَقُولُ﴾ ونصب الأول على الإغراء أي فأتبعوا الحق واستمعوا الحق، والثاني بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أحيى الحق أي أفعله. قال أبو علي: الحق الأول منصوب بفعل مضمر أي يحق الله الحق، أو على القسم وحذف حرف الجر؛ كما تقول: الله لأفعلن؛ ومجازه: قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه. ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ جملة أعترضت بين القسم والمقسم عليه، وهو تأكيد القصة، وإذا جعل الحق منصوباً بإضمار فعل كان ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على إرادة القسم. وقد أجاز الفراء وأبو عبيد أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقاً ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز زيداً لأضربن؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما لأملأن جهنم حقاً. ومن رفع ﴿الحق﴾ رفعه بالابتداء؛ أي فأنا الحق أو الحق مني. روياً جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق. وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحق لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم. وفي الخفض قولان وهي قراءة ابن السَّمِيقِ وطلحة بن مُصَرِّف: أحدهما أنه على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال كما يقول: الله عز وجل لأفعلن. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلظه فيه أبو العباس ولم يُجَزِ خفض؛ لأن حروف الخفض لا تضمّر، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم؛ كما أنشدوا^(١):

فَمِثْلِكَ حُبَلَى قَدْ طَرَفْتُ وَمُرْضِع

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أي من نفسك وذريتك ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ﴾ من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي من جعل على تبليغ الوحي وكفى به عن غير مذكور. وقيل هو راجع إلى قوله: ﴿أَنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أؤمر به. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال:

(١) البيت لامرئ القيس من معلقته وتمامه:

فَالْهَيْتَهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مَحُول

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف؛ فإن قوله لا أعلم عِلْمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينزع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم». وروى الدارقطني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقَرَّة^(١) له، فقال له عمر: يا صاحب المَقَرَّة أولغت السباع الليلة في مَقَرَّاتك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا صاحب المَقَرَّة لا تخبره هذا متكلف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور». وفي «الموطأ» عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: إن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض! هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تخبرنا، فإننا نرد على السباع وترد علينا. وقد مضى القول في المياه في سورة «الفرقان»^(٢). ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي نبا الذكر وهو القرآن أنه حق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال قتادة: بعد الموت. وقاله الزجاج: وقال ابن عباس وعكرمة وأبن زيد: يعني يوم القيامة. وقال الفراء: بعد الموت وقبله. أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين. قال السدي: وذلك يوم بدر. وكان الحسن يقول: يأبن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين. وسئل عكرمة عن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إن من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ومنه ما تدركه؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»^(٣) و «إبراهيم»^(٤) والحمد لله.

(١) المقرة الحوض الذي يجتمع فيه الماء. النهاية لابن الأثير.

(٢) راجع ٤٥/١٣ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٣٢١/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

(٤) راجع ٣٦٠/٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

سورة الزمر

ويقال سورة الغرغ. قال وهب بن منبه: من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرغ. وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والأخرى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية. وقال آخرون: إلا سبع آيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه على ما يأتي. روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل. وهي خمس وسبعون آية. وقيل: اثنتان وسبعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

[٢] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِغْ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

[٣] ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

[٤] ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى هذا تنزيل؛ قاله الفراء. وأجاز الكسائي والفراء أيضاً ﴿تَنْزِيلُ﴾ بالنصب على أنه مفعول به. قال الكسائي: أي أتبعوا وأقرؤوا ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾. وقال الفراء: هو على الإغراء مثل قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألزموا. والكتاب القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق؛ أي بالصدق وليس بباطل وهزل. ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً﴾ فيه مسألتان:

الأولى - ﴿مُخْلِصاً﴾ نصب على الحال أي موحداً لا تشرك به شيئاً ﴿لَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة. وقيل: العبادة وهو مفعول به. ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي الذي لا يشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئاً شورك فيه» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وقد مضى هذا المعنى في ﴿البقرة﴾^(١) و ﴿النساء﴾^(٢) و ﴿الكهف﴾^(٣) مستوفى.

الثانية - قال ابن العربي: هذه الآية دليل على وجوب النية في كل عمل، وأعظمه الوضوء الذي هو شرط الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام والخبر محذوف. أي قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالفكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا ليقرّبونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده. قال الكلبي: جواب هذا الكلام في الأحقاف ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً﴾ والزلفى القرية؛ أي ليقرّبونا إليه تقريباً، فوضع ﴿زُلْفَى﴾ في موضع المصدر. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ قالوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

(١) راجع ٣٠٧/٣ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٤٢٥/٥ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٦٩/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

زُلْفَى ﴿ وَفِي حَرْفِ أَبِي ﴾ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ذكره النحاس. قال: والحكاية في هذا بينة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخُكُم بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلًا بما يستحق. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد؛ أي للدين الذي أرتضاه وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وفي هذا ردّ على القدرية وغيرهم على ما تقدم^(١).

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاضْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لو أراد أن يسمى أحداً من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزيهاً له عن الولد ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

[٥] ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

[٦] ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَجُ يُخَلِّقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْصُرُونُ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي هو القادر على الكمال المستغني عن الصاحبة والولد، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به. ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل. قوله تعالى: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قال الضحاك: أي يلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال كَوَّرَ المتاع أي ألقى بعضه على بعض،

(١) تقدم في غير موضع فراجع ١٤٩/١ طبعة ثانية أو ثالثة و ٣٤٠/٩ طبعة أولى أو ثانية.

ومنه كور العمامة. وقد روي عن ابن عباس هذا في معنى الآية. قال: ما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾. وقيل: تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهذا قول قتادة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي بالطلوع والغروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة [حين]^(١) تنفطر السماء وتنتشر الكواكب. وقيل: الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها. قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يجاوزانه. وقد تقدم بيان هذا في سورة ﴿يس﴾^(٢). ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ﴿أَلَا﴾ تنبيه أي تنبهوا فإنني أنا ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْغَفَّارُ﴾ الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني ليحصل التناسل وقد مضى هذا في ﴿الأعراف﴾^(٣) وغيرها. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل. وهذا يسمى التدريج؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية. وقيل: أنزل أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جبير: خلق. وقيل: إن الله تعالى خلق هذه الأنعام في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد. وقيل: ﴿أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي أعطاكم. وقيل: جعل الخلق إنزالاً؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى خلق لكم كذا بأمره النازل. قال قتادة: من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد

(١) في نسخ الأصل: حتى.

(٢) راجع ص ٢٩ وما بعدها من هذا الجزء طبعه أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٣٣٧/٧ طبعه أولى أو ثانية.

زوج. وقد تقدّم هذا^(١). ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسدي: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً. ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب ثم خلقاً في بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع. ذكره الماوردي. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقاتدة والضحاك. وقال ابن جبير: ظلمة المشيمة وظلمة الرّجِم وظلمة الليل. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صُلْب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرّجِم. وهذا مذهب أبي عبيدة. أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿فَأَنَّى تُضْرَفُونَ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره. وقرأ حمزة ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم.

[٧] ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي أن يكفروا أي لا يحب ذلك منهم. وقال ابن عباس والسدي: معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي المؤمنون. وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة. وقيل: لا يرضى الكفر وإن أَرَادَهُ؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبارادته كفر لا يرضاه ولا يحبه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا. وهذا مذهب أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يرضى الشكر لكم؛ لأنَّ ﴿تَشْكُرُوا﴾ يدل عليه. وقد مضى القول في الشكر في ﴿البقرة﴾^(١) وغيرها. ويرضى بمعنى يثيب ويثني، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وإما ثناؤه فهو صفة ذات. و ﴿يرضه﴾ بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم. وأشيع الضمة أبن ذكوان وأبن كثير وأبن محيصن والكسائي وورش عن نافع^(٢). وأختلس الباقون. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدم في غير موضع^(٣).

[٨] ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(٤).

[٩] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلِيبٌ مِّنْ أِنَاءٍ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي شدة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي راجعاً إليه مخبتاً مطيعاً له مستغيثاً به في إزالة تلك الشدة عنه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه وملكه. يقال: خَوَّلَكَ الله للشيء أي ملكك إياه؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخَوَّلُوا الْمَالُ يُخَوَّلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُغَطُّوا وَإِنْ يَسِيرُوا يُغْلَوُا^(٦)

(١) راجع ٣٩٧/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة. و ١٧٢/٢ طبعة ثانية.

(٢) في «الأصول»: ورش عن نافع، وفي «البيضاوي»: وقرأ ابن كثير ونافع في رواية الخ يعني ورواية أخرى بالاختلاس كما هو المشهور في رواية ورش.

(٣) راجع ١٥٧/٧ طبعة أولى أو ثانية. و ٢٣٠/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٤) البيت لزهير، ويروى: هنالك إن يستخبلوا المال يخلوا. والإخبال الإعارة أي يستعيرون الناقة للانتفاع بألبانها وأوبارها والفرس للغزو عليها. وإن يسروا يغلوا: أي إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الإبل فيقامرون عليها.

وَحَوَّلَ الرَّجُلَ حَشَمَهُ الْوَاحِدَ خَائِلٌ . قَالَ أَبُو النَّجْمِ :

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يُبْخَلْ كَوْمُ الذَّرَى مِنْ حَوَّلِ الْمُحَوَّلِ

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل في كشف الضر عنه . فـ ﴿مَا﴾ على هذا الوجه لله عز وجل وهي بمعنى الذي . وقيل : بمعنى من كقوله : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ والمعنى واحد . وقيل : نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل . أي ترك كون الدعاء منه إلى الله ، فما والفعل على هذا القول مصدر . ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أي أوثاناً وأصناماً . وقال السدي : يعني أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم . ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي ليقنّدي به الجهال . ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي قل لهذا الإنسان ﴿تَمَتَّعْ﴾ وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل . ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي مصيرك إلى النار .

قوله تعالى : ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره . وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي ﴿أَمَنْ﴾ بالتشديد . وقرأ نافع وأبن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة ﴿أَمَنْ هُوَ﴾ بالتخفيف على معنى النداء ؛ كأنه قال يا من هو قانت . قال الفراء : الألف بمنزلة يا تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل . وحكي ذلك عن سيويه وجميع النحويين ؛ كما قال أوس بن حُجْر :

أُبَيِّنِي لُبَيْنَى لَسْتُ بِمُيِّدٍ إِلَّا يَدَا لَيْسَتْ لَهَا عَضْدُ

وقال آخر هو ذو الرُّمَّة :

أَدَارَا بِحُزْوَى هَجَتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً فَمَاءُ الْهَوَى يَرْفُضُ أَوْ يَتَرَفَّقُ

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة ؛ كما يقال في الكلام : فلان لا يصلي ولا يصوم ، فيا من يصلي ويصوم أبشر ، فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : إن الألف في ﴿أَمَنْ﴾ ألف أستفهام أي ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أفضل أم من جعل لله أنداداً ، والتقدير الذي هو قانت خير . ومن شدد

﴿أَمَّنْ﴾ فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ فالجملة التي عادت أم محذوفة، والأصل أم من فادغمت في الميم. النحاس: وأم بمعنى بل ومن بمعنى الذي؛ والتقدير: أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكر. وفي قانت أربعة أوجه: أحدها - أنه المطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني - أنه الخاشع في صلاته؛ قاله ابن شهاب. الثالث - أنه القائم في صلاته؛ قاله يحيى بن سلام. الرابع - أنه الداعي لربه. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل قنوت في القرآن فهو طاعة لله عز وجل» وروي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت» وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام. وروى عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع وغض البصر. وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غَضُّوا أبصارهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعشوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين. قال النحاس: أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلها داخلية في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر قم فصل، فقممت أصلي وكان علي ثوب خَلِقَ، فدعاني فقال لي: رأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزين قال: فالله أحق أن تتزين له. وأختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمان رضي الله عنه. وقال مقاتل: إنه عمار بن ياسر. الكلبي: صُهَيْب وأبو ذر وابن مسعود. وعن الكلبي أيضاً أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال. ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ جوف الليل. قال ابن عباس: من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة، فليره الله في ظلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه. وقيل: ما بين المغرب والعشاء. وقول الحسن عام. ﴿يَخْذُرُ الْآخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جبير: أي عذاب الآخرة. ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي

نعيم الجنة. وروي عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال: هذا مُتَمَنَّ. ولا يقف على قوله: ﴿رَحْمَةً رَّبِّهِ﴾ من خفف ﴿أَمِنْ هُوَ فَإِنَّتْ﴾ على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصل إلا أن يقدر في الكلام حذف وهو أيسر، على ما تقدم بيانه. قال الزجاج: أي كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم. ﴿إِنَّمَا يَنْذَكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين.

[١٠] ﴿قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم^(١). وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة. قال القشيري: والأول أصح؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا.

قلت: وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناء الحسن وفي الآخرة الجزاء. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضى القول في هذا مستوفى في ﴿النساء﴾^(٢). وقيل: المراد أرض الجنة؛ رغبتهم في سعتها وسعة نعيمها؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ والجنة قد تسمى أرضاً؛

(١) راجع ١٦١/١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع ٣٤٨/٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ والأول أظهر فهو أمر بالهجرة. أي أرحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا. الماوردي: ويحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان.

قلت : فتكون الآية دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية ، إلى الأرض الراحية ؛ كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزاً بدرهم. ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير. وقيل : يزداد على الثواب ؛ لأنه لو أعطى بقدر ما عمل لكان بحساب . وقيل : ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا. و﴿الصَّابِرُونَ﴾ هنا الصائمون ؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبراً عن الله عز وجل : « الصوم لي وأنا أجزي به » قال أهل العلم : كل أجر يكال كيلاً ويوزن وزناً إلا الصوم فإنه يُحْتَأَ حَتَوًّا وَيُغْرَفُ غَرَفًا ؛ وحكي عن علي رضي الله عنه . وقال مالك بن أنس في قوله : ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال : هو الصبر على فجاج الدنيا وأحزانها . ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك ما نُهي عنه ، فلا مقدار لأجره . وقال قتادة : لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان ، حدثني أنس أن رسول الله ﷺ قال : « تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبّ عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل». وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صَبًّا» ثم تلا النبي ﷺ

﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصي، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا؛ قاله النحاس. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(١) مستوفى.

[١١] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

[١٢] ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

[١٣] ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

[١٤] ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾.

[١٥] ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

[١٦] ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يُعْبَادُونَ فَاتَّقُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ تقدم أول السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه، وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إليه ﷺ. واللام في قوله: ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾ صلة زائدة؛ قاله الجرجاني وغيره. وقيل: لام أجل. وفي الكلام حذف أي أمرت بالعبادة ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذاب يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه. قاله أكثر أهل التفسير. وقال أبو حمزة الثمالي وأبن المسيب: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُوا﴾ ﴿الله﴾ نصب بـ ﴿أَعْبُدُوا﴾ ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾. وقيل: منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. في رواية عن ابن عباس: فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمي ما تحتهم ظللاً؛ لأنها تظل من تحتهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عام في المؤمن والكافر. وقيل: خاص بالكفار.

[١٧] ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

[١٨] ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأُولَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش: الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة. وقد تقدم^(١). أي تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن أسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت. وقيل: إنه أسم عربي مشتق من الطغيان، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بدلاً من الطاغوت، تقديره، والذين

أَجْتَنَّبُوا عِبَادَةَ الطَّاغُوتِ. ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي رجعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العقبى. روي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضي الله عنهم؛ سألوا أبا بكر رضي الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وغيرهما ممن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ. وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قال ابن عباس هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به. وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أي محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عزماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو. وقيل: إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام «لا إله إلا الله». وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، أجنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم، وأتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لما يرضاه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي الذين أنتفعوا بعقولهم.

[١٩] ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان. وكرر الاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ تأكيداً لطول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ على ما تقدم^(١). والمعنى ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أفأنت تنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير. قال الفراء: المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه

كلمة العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إن في الكلام حذفاً والتقدير: أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مستأنف. وقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقي بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي أفمن حق عليه قول العذاب.

[٢٠] ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ عَنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّيِّتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ﴾ لما بين أن للكفار ظلاً من النار من فوقهم ومن تحتهم بين أن للمتقين غرفاً فوقها غرف؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضاً و﴿لكن﴾ ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي كقوله: ما رأيت زيدا لكن عمراً، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك: جاءني زيد لكن عمرو لم يأت. ﴿غُرْفٌ مَّيِّتَةٌ﴾ قال ابن عباس: من زبرجد وياقوت ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي هي جامعة لأسباب النزهة. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى ﴿لَهُمْ﴾ ﴿غُرْفٌ﴾ وعدهم الله ذلك وعداً. ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ أي ما وعد الفريقين.

[٢١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهْدِيهِ فَنَرْتَهُ مُصْفًّى ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَبْلًا مَّائًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي إنه لا يخلف الميعاد في إحياء الخلق، والتمييز بين المؤمن والكافر، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء. ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب ﴿مَاءً﴾ أي المطر ﴿فَسَلَكَهُ﴾ أي فأدخله في الأرض

وَأَسْكَنَهُ فِيهَا؛ كما قال: ﴿وَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿يَنَابِيعُ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَنْفُوع من تَبَع يَنْبُع وَيَنْبُع بالرفع والنصب والخفض. النحاس: وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر^(١):

يَنْبَاعٌ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٌ

أن معناه يَنْبُع فأشبع الفتحة فصارت ألفاً، نبوعاً خرج. واليَنْبُوع عين الماء والجمع الينابيع. وقد مضى في ﴿سَبْحَانَ﴾^(٢)، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿زَرْعاً﴾ هو للجنس أي زروعاً شتى لها ألوان مختلفة، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونوراً. قال الشعبي والضحاك: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والركايا. ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾ أي يَبْس. ﴿فَتَرَاهُ﴾ أي بعد خضرته ﴿مُضْفَرّاً﴾ قال المبرد قال الأصمعي: يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولّى. قال: وكذلك هاج النبت. قال: وكذلك قال غير الأصمعي. وقال الجوهري: هاج النبت هياجاً أي يَبْس. وأرض هائجة يَبْس بَقْلُهَا أو أصفر، وأهاجت الريح النبت أيسته، وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات، وهاج هائجه أي ثار غضبه، وهذا هائجه أي سكنت فورته. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ أي فتاتاً مكسراً من تحطّم العود إذا تفتت من اليبس. والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة. وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض، أي أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ أي ديناً مختلفاً بعضه أفضل من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثل ضربه الله للدنيا؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

[٢٢] ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ قَوْلٌ لِّلْفَتَنِيسَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) قائله عترة: ويروى، غضوب حرة. وتماه:

زبافة مثل الفتيق المقرم

(٢) راجع ١٠/٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ شرح فتح ووسع. قال ابن عباس: وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه. وقال السدي: وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودل على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قال المبرد: يقال قسا القلب إذا صَلَبَ، وكذلك عتا، وعسا مقاربة لها. وقلب قاس أي صَلَب لا يرق ولا يلين. والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون عليّ، حمزة رضي الله عنهما. وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضاً والكلبي: رسول الله ﷺ. والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه. وروى مرة^(١) عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قوله تعالى: ﴿أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ كيف أنشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب أنشرح وأنفتح» قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله» وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلاً قال يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً» وإذا دخل النور في القلب أنفسح وأستوسع» قالوا: فما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» فذكر ﷺ خصالاً ثلاثة، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان، فإن الإنابة إنما هي أعمال البر؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضع في تنزيهه ثم قال بعقب ذلك ﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فالجنة جزاء الأعمال؛ فإذا أنكمش العبد في أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود، وإذا خمد حرصه عن الدنيا، ولَهَى عن طلبها، وأقبل على

(١) هو مرة بن شراحيل الهمداني يروي عن أبي بكر وعمر وعلي وأبي ذر وحذيفة وابن مسعود الخ... التهذيب.

ما يغنيه منها فاكتمى به وقنع، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر، واقفاً متأدباً مثبِتاً جذراً يتورّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه؛ فقد أَسْعَدَ للموت. فهذه علامتهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذي ولج القلب. وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده، ومعنى ﴿مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره. وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ بمعنى عن والمعنى قست عن قبول ذكر الله. وهذا اختيار الطبري. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أطلبوا الحوائج من السُّمَحَاءِ فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي». وقال مالك بن دينار: ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

[٢٣] ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَشِعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ بين أن أحسن ما يسمع ما أنزله الله وهو القرآن. قال سعد بن أبي وقاص قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو حدثنا فأنزل الله عز وجل ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصت علينا فنزل ﴿نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فقالوا: لو ذكّرنا فنزل ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ ملّوا ملّة فقالوا له: حدثنا فنزلت. والحديث ما يحدث به المحدث. وسُمي القرآن حديثاً؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحدث به

أصحابه وقومه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ قال القشيري: وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدث وهو وهم؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ وقد قالوا: إن الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الرب تعالى. ﴿كِتَابًا﴾ نصب على البدل من ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ويحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف. وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز. ثم وصفه فقال: ﴿مَثَانِي﴾ تشي فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل. ﴿تَقْشَعُرُ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني الإسلام.

الثانية - عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحاب النبي ﷺ، إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحي: مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقطاً فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ. وقال عمر بن عبد العزيز: ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال: بينا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجله، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق. وقال أبو عمران

الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه، فأوحى الله إلى موسى؛ قل لصاحب القميص لا يشقّ قميصه فإني لا أحبّ المبذرين؛ يشرح لي عن قلبه.

قال زيد بن أسلم: قرأ أبي بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه فرقوا فقال النبي ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة». وعن العباس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحأت عنه خطايا كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها». وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما أقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار». وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل في قلب الرجل كاحتراق السعفة، أما تجد إلا قشعيرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب. وعن ثابت البناني قال قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا أقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عياني، فذلك حين يستجاب لي. يقال: أقشعر جلد الرجل أقشعراراً فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم، لأنها زائدة؛ يقال أخذته قشعيرة. قال امرؤ القيس:

فَبِتُّ أَكْبِدُ لَيْلَ التَّمَا^(١) م وَالْقَلْبُ مِنْ خَشْيَةِ مُقْشَعِرْ

وقيل: إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته، أقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتعجباً من حسن ترصيعه وتهيباً لما فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُتَصَدَّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فالتصدع قريب من الاقشعرار، والخشوع قريب من قوله: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب رفته وطمأنينته وسكونه. ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ أي القرآن هدى الله. وقيل: أي الذي وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي من خذله فلا مرشد له. وهو يردّ على القدرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كله مستوفى في غير موضع والحمد لله. ووقف ابن كثير وابن محيصن على قوله: ﴿هَادٍ﴾ في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء.

(١) ليل التمام: أطول ما يكون من ليالي الشتاء.

[٢٤] ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَّجِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

[٢٥] ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

[٢٦] ﴿فَإِذَا قَهَّمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَّجِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يُزَمَى به مكتوفاً في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه. وقال مجاهد: يجزّ على وجهه في النار، وقال مقاتل: هو أن الكافر يرمى به في النار مغلوله يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت؛ فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه، فحرها ووهجها على وجهه؛ لا يطبق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال. والخبر محذوف. قال الأخفش: أي ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَّجِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أفضل أم من سعد، مثل ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وقيل للظالمين أي وتقول الخزنة للكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي جزاء كسبكم من المعاصي. ومثله ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتَبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فَإِذَا قَهَّمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تقدم معناه^(١). وقال المبرد: يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخيزي من المكروه والخزاية من الاستحياء. ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أي مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

[٢٧] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾.

[٢٨] ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل مثل يحتاجون إليه، مثل قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقيل: أي ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون. ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش: لأن قوله جل وعز ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ معرفة. وقال علي بن سليمان: ﴿عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال و ﴿قُرْآنًا﴾ توطئة للحال كما تقول مررت بزيد رجلاً صالحاً فقولك صالحاً هو المنصوب على الحال. وقال الزجاج: ﴿عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال و ﴿قُرْآنًا﴾ تأكيد. ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ النحاس: أحسن ما قيل فيه قول الضحاك، قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي. وعن ابن عباس أيضاً غير مخلوق، ذكره المهدوي وقاله السدي فيما ذكر الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير متضاد. وقال مجاهد: غير ذي لَبَسٍ. وقال بكر بن عبد الله المزني: غير ذي لَحْنٍ. وقيل: غير ذي شك. قاله السدي فيما ذكره الماوردي. قال:

وقد أتاك يَقيِنُ غيرُ ذِي عِوَجٍ مِنْ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ
﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والكذب.

[٢٩] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب ﴿رَجُلًا﴾ لأنه ترجمة للمثل وتفسير له، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال الفراء: أي مختلفون. وقال المبرد: أي متعاسرون من شَكَسَ يَشْكُسُ شَكْسًا [بوزن قفل]^(١) فهو شَكِسٌ مثل عَسْرٍ يَعْسُرُ عُسْرًا فهو عَسِيرٌ؛ يقال: رجل شَكِسٌ وَشَرِسٌ وَضَرِسٌ. ويقال: رجل ضَبِسٌ وَضَبِيسٌ أي

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلًا عن القرطبي.

شَرِسٌ عَسِرَ شَكِسٌ؛ قاله الجوهري. الزمخشري: والتشاكس والتشاخص الاختلاف. يقال: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان أي ماكسني وشاخني في حقّي. قال الجوهري: رجل شَكُس بالتسكين أي صَغِب الخُلُق. قال الراجز:

شَكُسٌ عَبُوسٌ عَنُوسٌ عَذُورٌ

وقوم شَكُسٌ مثال رَجُلٍ صَدَقَ وقوم صُدِقَ. وقد شَكِس بالكسر شَكَاسَةً. وحكى الفراء: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَلٌ من عبد آلهة كثيرة. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي خالصا لسيد واحد، وهو مَثَلٌ من يعبد الله وحده. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جره وأستخدمه؛ فهو يلقي منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه يرضي واحداً منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم. وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجحدري وأبو عمرو وأبن كثير ويعقوب ﴿وَرَجُلًا سَالِمًا﴾ وأختره أبو عبيد لصحة التفسير فيه. قال: لأن السالم الخالص ضدّ المشترك، والسَلَم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هنا. النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السلم ضدّ الحرب فله موضع آخر؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلماً لك. ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به. والقراءتان حسستان قرأ بهما الأئمة. وأختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة ﴿سَلَمًا﴾ قال وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر ﴿سَلَمًا﴾ بكسر السين وسكون اللام وسَلَمًا ومصدران، والتقدير؛ ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و ﴿مَثَلًا﴾ صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وخالاهما. وإنما أقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيتبعونه.

[٣٠] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ .

[٣١] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ وقرأ ابن محيصن وابن أبي عبلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحق ﴿إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ﴾ وهي قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير. النحاس: ومثل هذه الألف تحذف في الشواذ و﴿مائت﴾ في المستقبل كثير في كلام العرب؛ ومثله ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام. وقال الحسن والفراء والكسائي: المَيِّت بالتشديد من لم يمِت وسيموت، والمَيِّت بالتخفيف من فارقت الروح؛ فلذلك لم تخفف هنا. قال قتادة: نُعِيَتْ إلى النبي ﷺ نفسه، وَنُعِيَتْ إليكم أنفسكم. وقال ثابت البناني: نَعَى رجلٌ إلى صلة بن أَشِيم أخاً له فوافقه يأكل، فقال: أَذْنُ فَكُلْ فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أول من أتاكَ بالخبر. قال إن الله تعالى نعاه إليّ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. وهو خطاب للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسة أوجه: أحدها أن يكون ذلك تحذيراً من الآخرة. الثاني أن يذكره حقاً على العمل. الثالث أن يذكره توطئة للموت. الرابع لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته أحتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك. الخامس ليعلمه أن الله تعالى قد سَوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحتاج الروح الجسد. وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله! أياك علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم ليكررنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حقِّ حقُّه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد. وقال ابن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيت

بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها فينا نزلت. وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة. فلما كان يوم صِفِّين وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا. وقال إبراهيم النَّخعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا بيننا. وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مظلمته، ويردّها في حسنات من وجبت له. وهذا عام في جميع المظالم كما في حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أندرون من المفلس» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيته حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحه عليه في طرح في النار» خرجه مسلم. وقد مضى المعنى مجوداً في ﴿آل عمران﴾^(١) وفي «البخاري» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» وفي الحديث المسند «أول ما تقع الخصومات في الدنيا» وقد ذكرنا هذا الباب كله في ﴿التذكرة﴾ مستوفى.

[٣٢] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ^{٢٤} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ^(٣٢)﴾.

[٣٣] ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ^{٢٥} أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^(٣٣)﴾.

[٣٤] ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ^{٢٦} ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ^(٣٤)﴾.

[٣٥] ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٣٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ﴾ يعني القرآن ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ استفهام تقرير ﴿مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي مقام للجاحدين وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاءً وَثَوِيًّا مثل مَضَى مَضَاءً وَمُضِيًّا ولو كان من أَثْوَى لكان مَثْوًى وهذا يدل على أن ثَوَى هي اللغة الفصيحة. وحكى أبو عبيد أَثْوَى وأنشد قول الأعشى:

أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوِّدَا وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعي لا يعرف إلا ثَوَى، ويروى البيت أَثْوَى على الاستفهام. وَأَثْوَيْتُ غيري يتعدى ولا يتعدى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ بِالْإِبْتِدَاءِ وَخَبَرَهُ﴾ (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) وأختلف في الذي جاء بالصدق وصدق به؛ فقال علي رضي الله عنه: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ النبي ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أبو بكر رضي الله عنه. وقال مجاهد: النبي عليه السلام وعلي رضي الله عنه. السدي: الذي جاء بالصدق جبريل ﷺ والذي صدق به محمد ﷺ. وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ النبي ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ المؤمنون. وأستدلوا على ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ كما قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقال النخعي ومجاهد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون: هذا الذي أعطينا قد أتبعنا ما فيه؛ فيكون ﴿الَّذِي﴾ على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع. وقيل: بل حذفت منه النون لطول الاسم، وتأوله الشعبي على أنه واحد. وقال: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ محمد ﷺ فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعَظَّم هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا. وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره وأختاره الطبري. وفي قراءة ابن مسعود ﴿وَالَّذِي جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ﴾ وهي قراءة على التفسير، وفي قراءة أبي صالح الكوفي ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ مخففاً على معنى وصدق بمجيئه

به، أي صدق في طاعة الله عز وجل، وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(١) الكلام في ﴿الذي﴾ وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرام عندي؛ أي ينالك مني ذلك. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي صدقوا ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾. ﴿أَسْأَلُ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي يشيهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

[٣٦] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

[٣٧] ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ حذفت الياء من ﴿كافٍ﴾ لسكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التنوين، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي. وقراءة العامة ﴿عَبْدَهُ﴾ بالتوحيد يعني محمداً ﷺ يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم. وقرأ حمزة والكسائي ﴿عِبَادَهُ﴾ وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهم. وأختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس؛ كقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ وعلى هذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانية. والكفاية شر الأصنام، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾. وقال الجرجاني: إن الله كافٍ عبده المؤمن وعبده الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مَضْرَّةَ الأوثان، فقالوا: أتسب آلهتنا؟ لئن لم تكفَّ عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء. وقال قتادة؛ مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها: أحذرکها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ؛ لأنه الذي وجه خالدًا. ويدخل في الآية تخويفهم النبي ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾. ﴿وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ تقدم. ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أي ممن عاداه أو عادى رسله.

[٣٨] ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْصِرِّتٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

[٣٩] ﴿قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

[٤٠] ﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

[٤١] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقَرَّرُونَ بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلهتهم التي هي مخلوقة لله تعالى، وأنت رسول الله الذي خلقها وخلق السموات والأرض. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِي

بِرَحْمَةٍ ﴿نِعْمَةٌ وَرِخَاءٌ﴾ ﴿هَلْ هُنَّ مُنْسِكَاتٌ رَحْمَتِهِ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا. وقال غيره: قالوا لا تدفع شيئاً قدره الله ولكنها تشفع. فنزلت ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فيقولون لا [أي لا تكشف ولا تمسك] ^(١) فـ ﴿قُلْ﴾ أنت ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي عليه توكلت أي اعتمدت و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون. وقد تقدم الكلام ^(٢) في التوكل. وقرأ نافع وأبن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ بغير تنوين. وقرأ أبو عمرو وشيبة وهي المعروفة من قراءة الحسن وعاصم ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾. ﴿مُنْسِكَاتٌ رَحْمَتِهِ﴾ بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأنه أسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود. قال الشاعر:

الضاربون عُميراً عن بيوتهم
بالليل يوم عُمير ظالمٌ عادي

ولو كان ماضياً لم يجز فيه التنوين، وحذف التنوين على التحقيق، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثاني بالإضافة. وحذف التنوين كثير في كلام العرب موجود حسن؛ قال الله تعالى: ﴿هَذَا بِأَلْغِ الْكُفْبَةِ﴾ وقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ﴾ وأنشد سيبويه:

هَلْ أَنْتَ بَاعْتُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا
أَوْ عَبْدٌ رَبِّ أَخَا عَوْزِ بْنِ مِخْرَاقٍ

وقال النابغة:

اِحْكُمْ كَحُكْمِ فِتْنَةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرْتُ
إِلَى حَمَامٍ شَرَّاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ ^(٣)

معناه وارِدِ الثَّمَدِ فحذف التنوين؛ مثل ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي على مكاني أي على جهتي التي تمكنت عندي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وقرأ أبو بكر ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾ وقد مضى في ﴿الأنعام﴾ ^(٤).

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي. (٢) راجع ١٨٩/٤ و ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) يقول الشاعر للنعمان بن المنذر وكان واجداً عليه: كن حكيماً في أمري كحكم زرقاء اليمامة في حزرها للحمام التي مرت طائراً بها. وخبرها مشهور. والشرع: الموضع الذي ينحدر منه إلى الماء والتمد: الماء القليل على وجه الأرض. (٤) راجع ٨٩/٧ طبعة أولى أو ثانية.

﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهينه ويذله أي في الدنيا وذلك بالجوع والسيوف. و﴿يَجِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقدم الكلام في هذه الآية مستوفى في غير موضع^(١).

[٤٢] ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٢).

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي يقبضها عند فناء أجلاها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي مَنَامِهَا﴾ اختلف فيه. فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ وهي النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى^(٢). وقال الفراء: المعنى ويقبض التي لم تمت في منامها عند أنقضاء أجلها. قال: وقد يكون توفيتها نومها؛ فيكون التقدير على هذا والتي لم تمت وفاتها نومها. وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها. وقال سعيد بن جبیر: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي يعيدها. قال علي رضي الله عنه: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقاها الشياطين، وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة.

(١) راجع ٣٨٨/٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) في نسخة: قاله أبو عيسى.

وقال ابن زيد: النوم وفاة والموت وفاة. وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون». وقال عمر: النوم أخو الموت. وروي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: «لا النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها» خرجه الدارقطني. وقال ابن عباس: في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. وهذا قول ابن الأنباري والزجاج، قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بُعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ النَّبِيُّ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا يقبض الله الروح في حالين في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضه في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض، وما قبضه في حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي يزيل الحابس عنه فيعود كما كان، فتوفي الأنفس في حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة في محل الإدراك. وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية. ﴿فَيُمْسِكُ النَّبِيُّ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ بآلا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ بأن يعيد إليها الإحساس.

الثانية - وقد اختلف الناس من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيء واحد أو شيان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيء واحد، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب. من ذلك حديث أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق^(١) بصره فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا الإنسان إذا مات شحخص بصره» قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه» خرجهما مسلم. وعنه عن النبي ﷺ قال:

(١) شق بصره: أي أنفتح.

«تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة وأبشري برّوح وريحان وربّ راضٍ غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يُعرّج بها إلى السماء» وذكر الحديث وإسناده صحيح خرج به ابن ماجه؛ وقد ذكرناه في «التذكرة». وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: «إذا خرجت رُوح المؤمن تلقّاها ملكان يصعدان بها». وذكر الحديث. وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك. وقال رسول الله ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا في حين غير هذا».

الثالثة - والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابه للأجسام المحسوسة، يُجذب ويُخرَج وفي أكفانه يُلَفّ ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرّج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث أبي هريرة. وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال تعالى: «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ» يعني النفس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفة الجسم. والله أعلم.

الرابعة - خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخله إزاره فلينفذ بها فراشه وليسم الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن وليقل سبحانك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فأغفر لها». وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فأرحمها» بدل «فأغفر لها» وإن أرسلتها فأحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا أستيقظ فليقل الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردّ عليّ روحي وأذن لي بذكره». وخرج البخاري عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده؛ ثم يقول: «اللهم بأسمك أموت وأحيا» وإذا أستيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾. هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل ﴿الْمَوْتُ﴾ نصباً؛ أي قضى الله عليها وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي ﴿قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ على ما لم يسم فاعله. النحاس: والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على ﴿وَيُزِيلُ﴾ ولم يقرؤوا ﴿وَيُرْسِلُ﴾. وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته وأنفراده بالالوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويحيي ويميت، لا يقدر على ذلك سواه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني في قبض الله نفس الميت والنائم، وإرساله نفس النائم وحبسه نفس الميت ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقال الأصمعي سمعت معتمراً يقول: روح الإنسان مثل كُبة^(١) الغزل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي ثم تطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شيء في حال النوم ومعظمها في البدن متصل بما يخرج منها اتصالاً خفياً، فإذا استيقظ المرء جذب معظم روحه ما أنبسط منها فعاد. وقيل: غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدّم في ﴿سبحان﴾^(٢).

[٤٣] ﴿أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(١٣).

[٤٤] ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١٤).

[٤٥] ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١٥).

قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي بل آتخذوا يعني الأصنام وفي الكلام ما يتضمن لم؛ أي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكروا ولكنهم آتخذوا آلهم شفعاء. ﴿قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي قل لهم يا محمد آتخذونهم شفعاء وإن كانوا

(١) كبة الغزل: ما جمع منه. (٢) راجع ٣٢٣/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

لا يملكون شيئاً من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنها جمادات. وهذا أستفهام إنكار. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ نص في أن الشفاعة لله وحده كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فلا شافع إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرَضَى﴾. ﴿جَمِيعاً﴾ نصب على الحال. فإن قيل: ﴿جَمِيعاً﴾ إنما يكون لل اثنين فصاعداً والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدي على الاثنين والجميع ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿أَشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: أنقبضت. وهو قول ابن عباس ومجاهد. وقال قتادة: نفرت وأستكبرت وكفرت وتعصت. وقال المؤرج: أنكرت. وأصل الاشتزاز النفور والازورار. قال عمرو بن كلثوم:

إِذَا عَصَى الثَّقَافُ بِهَا أَشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُمْ عَشْوَزَنَةً زُبُوناً^(١)

وقال أبو زيد: أشمأز الرجل دعر من الفزع وهو المذعور. وكان المشركون إذا قيل لهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفروا وكفروا ﴿وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان حين ألقى الشيطان في أمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة ﴿والنجم﴾ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم تُرتجى^(٢). قاله جماعة المفسرين. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يظهر في وجوههم البشر والسرور.

[٤٦] ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

[٤٧] ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

[٤٨] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

(١) الثقاف ما تقوم به الرماح. وعشوزنة صلبة شديدة. والزبون الدفع. والبيت في وصف فتاة، وقبله:

فإن قناتنا يا عمرو أعييت على الأعداء قبلك أن تنيننا

(٢) راجع ما قيل في هذا الكلام من منافاته للعصمة وتأويلات في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ ٧٩/١٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي «صحيح مسلم» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي ﷺ يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل أفتتح صلاته «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل» ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. ولما بلغ الربيع بن خيثم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وقال سعيد بن جبیر: إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة ﴿آل عمران﴾^(١) و ﴿الرعد﴾^(٢). ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجل ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ ﴿بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار. وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار. جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال:

(١) راجع ١٣١/٤ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٣٠٧/٩ طبعة أولى أو ثانية.

أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنّا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب. ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

[٤٩] ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٥٠] ﴿فَذَقْنَاهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

[٥١] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

[٥٢] ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في حذيفة بن المغيرة. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضاً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على خير عندي. وقيل: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي بعلم علمني الله إياه. وقيل: المعنى أنه قال قد علمت أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة؛ فقال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي بل النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها. قال الفراء: أنث ﴿هي﴾ لتأنيث الفتنة، ولو كان بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير بل أعطيته فتنة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار.

قوله تعالى: ﴿فَذَقْنَاهَا﴾ أنث على تأنيث الكلمة. ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلهم كفارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَا﴾ للجد أي لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً. وقيل:

أي فما الذي أغنى أموالهم؟ ف ﴿حما﴾ استفهام. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم. وقد يسمى جزاء السيئة سيئة. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي بالجوع والسيوف. ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدّم ^(١).

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرراً وأستدرجاً، وتقتيره رفعة وإعظماً.

[٥٣] ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

[٥٤] ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾.

[٥٥] ﴿وَأَنِيعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

[٥٦] ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّخِرِينَ﴾.

[٥٧] ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

[٥٨] ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[٥٩] ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإن شئت حذف الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس: ومن أجل ما روي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، اتعدت

أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمِي، وَعِيَّاش بن أَبِي ربيعة بن عُبَيْة، فقلنا: الموعد أضاة^(١) بني غفار، وقلنا: من تأخر منا فقد حُسِبَ فليمض صاحبه، فأضبحت أنا وعيَّاش بن عتبة وحُسِبَ عنا هشام، وإذا به قد فُتِنَ فأفتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم أفتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عز وجل في كتابه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمت عليّ خرجت بها إلى ذي طوى فقلت: اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيري فلاحقت برسول الله ﷺ. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبي ﷺ أو بعثوا إليه: إن ما تدعو إليه لحسن أو نخبرنا أن لنا توبة؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكره البخاري بمعناه. وقد مضى في آخر ﴿الفرقان﴾^(٢). وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، وكيف نهاجر ونُسَلِم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله! فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنها نزلت في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم في الجاهلية. وقال ابن عباس أيضاً وعطاء: نزلت في وحشي قاتل حمزة؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه؛ وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتى وحشي إلى النبي ﷺ؛ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله. فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله» قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت

(١) الأضاة غدِير.

(٢) راجع ٧٦/١٣ وما بعدها طبعة أولى، أو ثانية.

رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فقال: نعم الآن لا أرى شرطاً. فأسلم. وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً وَلَا يَبَالِي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً لِمَنْ يَشَاءُ﴾. قال أبو جعفر النحاس: وهاتان القراءتان على التفسير؛ أي يغفر الله لمن يشاء. وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة، ودل على أنه يريد التائب ما بعده ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ فالتائب مغفور له ذنوبه جميعاً، يدل على ذلك ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ فهذا لا إشكال فيه. وقال علي بن أبي طالب: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وقد مضى هذا في ﴿سبحان﴾^(١). وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن فرد عليهم ابن عباس وقال أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ وقد مضى في ﴿الرعد﴾^(٢). وقرئ ﴿وَلَا تَقْنَطُوا﴾ بكسر النون وفتحها. وقد مضى في ﴿الحجر﴾^(٣) بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي أرجعوا إليه بالطاعة، لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي أخضعوا له وأطيعوا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا

(١) راجع ٣٢٢/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٢٨٥/٩ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٣٦/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من عذابه. وروي من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من السعادة أن يطيل الله عمر المرء في الطاعة ويرزقه الإنابة وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله».

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ﴾ هو القرآن وكله حسن، والمعنى ما قال الحسن: ألتزموا طاعته، وأجتنبوا معصيته. وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل الله كتباً التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص. وقيل ما علم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب أي كراهة ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ وعند الكوفيين لثلاث تقول وعند البصريين حذر ﴿أَنْ تَقُولَ﴾. وقيل: أي من قبل ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ لأنه قال قبل هذا: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾. الزمخشري: فإن قلت لِمَ نَكَرْتَ؟ قلت؛ لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر. ويجوز أن يريد نفساً متميزة من الأنفس، إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يراد التكرير كما قال الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضِبًا

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً، ونظيره رُبَّ بَلَدٍ قَطَعْتَ، وَرُبَّ بَطْلٍ قَارَعْتَ، ولا يقصد إلا التكرير. ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ والأصل ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يَا مَرْحَباً بِحِمَارٍ نَاجِيَةٍ^(١) إِذَا أَتَى قَرْيَتَهُ لِلْسَّائِيَةِ

(١) الناجية: السريعة. وفي تفسير الفراء ناهية بدل ناجية وكذا روي في «اللسان» و«شرح القاموس» في مادة سنا. والسائية هنا مصدر على فاعلة بمعنى الاستسقاء؛ أراد قربته للسائية.

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر ﴿يَا حَسْرَتَايَ﴾ والحسرة الندامة. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله. وقال الضحاك: أي في ذكر الله عز وجل. قال: يعني القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة: في جنب الله أي في ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال فلان يعيش في جنب فلان أي في جواره ومنه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ أي على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أي على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه. والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنباً؛ تقول تجرعت في جنبك غصصاً؛ أي لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمي الجانب جنباً؛ قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذَاكَ الْقَلْبُ النَّاسُ جَنْبٌ وَالْأَمِيرُ جَنْبُ

يعني الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أي تركت من أمر الله؛ يقال ما فعلت ذلك في جنب حاجتي؛ قال كثير:

أَلَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ عَاشِقٍ لَهُ كَيْدٌ حَرَىٰ عَلَيْكَ تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد؛ أي ضيعت من أمر الله. ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلس رجل مجلساً ولا مشى مَمْشًى ولا أضطجع مضطجعاً لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه تَرَّةٌ يوم القيامة» أي حسرة^(١)؛ خرجه أبو داود بمعناه. وقال إبراهيم التيمي: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خوله الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو. ﴿وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّاعِرِينَ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا، وبأولياء الله. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع

(١) فسرهما ابن الأثير في النهاية بالنقص أو التبعة.

طاعة الله حتى سخر من أهلها. ومحل ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ النصب على الحال؛ كأنه قال: فرطت وأنا ساخر؛ أي فرطت في حال سخريتي. وقيل وما كنت إلا في سخرية ولعب وباطل؛ أي ما كان سعيي إلا في عبادة غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أي أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الشرك والمعاصي. وهذا القول لو أن الله هداني لاهتديت قول صدق. وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ فهي كلمة حق أريد بها باطل؛ كما قال علي رضي الله عنه لما قال قائل من الخوارج لا حكم إلا لله. ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ يعني هذه النفس ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجعة. ﴿فَأَكُونَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفاً على ﴿كَرَّةً﴾ لأن معناه أن أكر؛ كما قال الشاعر^(١):

لَلْبَسِ عِبَاءَةً وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّقُوفِ
وأنشد الفراء:

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرُ ذِكْرِي وَخَشْيَةٍ وَتَسْأَلُ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و (تسأل) على موضع الذكرى؛ لأن معنى الكلام فما لك منها إلا أن تذكر. ومنه للبس عباءة وتقرّ؛ أي لأن ألبس عباءة وتقرّ. وقال أبو صالح: كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد رقعة؛ إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أتعب نفسي فترك عمله وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق ماله في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألد ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه الندم؛ فأنزل الله خبره في القرآن. وقال

(١) قائله ميسون بنت مجدل الكلبي.

قتادة: هؤلاء أصناف؛ صنف منهم قال: ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾. وصنف منهم قال: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وقال آخر: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال الله تعالى ردًّا لكلامهم ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي﴾ قال الزجاج: ﴿بلى﴾ جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي، ولكن معنى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ ما هداني، وكأن هذا القائل قال ما هديت؛ فقل: بلى قد بين لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن. ﴿آيَاتِي﴾ أي القرآن. وقيل: عنى بالآيات المعجزات؛ أي وضح الدليل فأنكرته وكذبه. ﴿وَأَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي تكبرت عن الإيمان ﴿وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وقال: ﴿أستكبرت وكنت﴾ وهو خطاب الذكر؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرد: تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد. وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة عن النبي ﷺ ﴿قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وقرأ الأعمش ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَهُ آيَاتِي﴾ وهذا يدل على التذكير. والربيع ابن أنس لم يلحق أم سلمة إلا أن القراءة جائزة؛ لأن النفس تقع للمذكر والمؤنث. وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنت من الكوافر أو من الكافرات. قال النحاس: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبله ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء ﴿وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتُ﴾ من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين أو من القوم الساخرين.

[٦٠] ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

[٦١] ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَالِ تِهَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

[٦٢] ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

[٦٣] ﴿لَمْ يَمَلِكُوا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

[٦٤] ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي مما أحاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش: ﴿ترى﴾ غير عامل في قوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ إنما هو ابتداء وخبر. الزمخشري: جملة في موضع الحال إن كان ﴿تَرَى﴾ من رؤية البصر، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبين رسول الله ﷺ معنى الكبر فقال عليه السلام: «سَفَهُ الْحَقُّ وَغَمَضُ النَّاسِ» أي احتقارهم. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(١) وغيرها. وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم».

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرىء ﴿وَيُنَجِّي﴾ أي من الشرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون ﴿بِمَفَازَاتِهِمْ﴾ وهو جائز كما تقول بسعاداتهم. وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يحشر الله مع كل أمرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُغب أو خُوف قال له لا تُرْعَ فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعني به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفني أنا عملك الصالح حملتني على ثقل فوالله لأحملنك ولأدفعنّ عنك فهي التي قال الله ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾». ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حافظ وقائم به. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واحدا مقلد. وقيل: مقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره. وقال السدي: خزائن السموات والأرض. وقال غيره: خزائن السموات المطر وخزائن الأرض النبات. وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدا إقليد، قال الجوهري: والإقليد المفتاح، والمقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلا كما يقلد القنّ إذا جعل جبالاً؛ أي يفتل والجمع المقاليد. وأقلد البحر على خلق كثير أي غرقهم كأنه أغلق عليهم. وخرج البيهقي عن ابن عمر أن عثمان بن

عُفان رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ما سألني عنها أحد لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو الأول والآخِر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير» ذكره الثعلبي في تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال: أولها - يحرس من إبليس، والثانية - يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة - يعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة - ترفع له درجة، والخامسة - يزوجه الله من الحور العين، والسادسة - يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضاً من الأجر كمن حج وأعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيداً. وروى الحارث عن عليّ قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: «يا عليّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأول والآخِر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير» من قالها عشراً إذا أصبح، وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خصالاً ستاً أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية يعطى قنطاراً في الجنة هو أثقل في ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين، والخامسة يشهده اثنا عشر ألف ملك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج وأعتمر فقبل الله حجته وعمرته، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء. وقيل: المقاليد الطاعة يقال ألقى إلى فلان بالمقاليد أي أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية له طاعة من في السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بالقرآن والحجج والدلالات. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ وذلك حين دعوا النبي ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك. و﴿غَيْرُ﴾ نصب بـ﴿أَعْبُدُ﴾ على تقدير أعبد غير الله فيما تأمروني. ويجوز أن ينتصب بـ﴿تَأْمُرُونِي﴾ على حذف حرف الجر؛ التقدير: أتأمروني بغير الله أن أعبد، لأن أن مقدره وأن والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمروني بعبادة غير الله. وقرأ نافع ﴿تَأْمُرُونِي﴾ بنون واحدة مخففة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر ﴿تَأْمُرُونِي﴾ بنونين مخففتين على الأصل. الباقي بنون واحدة مشددة على الإدغام، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيب يقع بها، وأيضاً حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع. وقد مضى في ﴿الأنعام﴾^(١) بيانه عند قوله تعالى: ﴿أَتَحَاجُّونِي﴾. ﴿أَعْبُدُ﴾ أي أن أعبد فلما حذف ﴿أن﴾ رفع؛ قاله الكسائي. ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَخْضُرُ الْوَعَى^(٢)

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ ﴿أَعْبُدُ﴾ بالنصب.

[٦٥] ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

[٦٦] ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ﴾ قيل: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا؛ والتقدير لقد أوحى إليك لئن أشركت وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. وقيل: هو على باب؛ قال مقاتل: أي أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف. ثم قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ﴾ يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ

(١) راجع ٢٩/٧ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) البيت من معلقة طرفة وتماهه:

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلصي

خاصة. وقيل: الخطاب له والمراد أمته؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك. والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيري: فمن أرتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فالمطلق هاهنا محمول على المقيد؛ ولهذا قلنا من حج ثم أرتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في البقرة^(١) بيان هذا مستوفى.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ النحاس: في كتابي عن أبي إسحق لفظ أسم الله عز وجل منصوب بـ ﴿اعْبُدْ﴾ قال: ولا أختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين. قال النحاس: وقال الفراء يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاها المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة. وقال ابن عباس: ﴿فَاعْبُدْ﴾ أي فوحد. وقال غيره: ﴿بل الله﴾ فاطع ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين.

[٦٧] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧).

[٦٨] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال المبرد: ما عظموه حقَّ عظمتهم من قولك فلان عظيم القدر. قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حقَّ عظمتهم إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قدرته وعظمتهم فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة

فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلايق على إصبع ثم يقول أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي البخاري ومسلم عن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء يمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض». وفي الترمذي عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قالت: قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جسر جهنم» في رواية «على الصراط يا عائشة» قال: حديث حسن صحيح. وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ «ويقبض الله الأرض» عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته؛ يقال ما فلان إلا في قبضتي، بمعنى ما فلان إلا في قدرتي، والناس يقولون الأشياء في قبضته يريدون في ملكه وقدرته. وقد يكون معنى القبض والطّي إفناء الشيء وإذهابه فقله جل وعز: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعاً ذاهبة فانية يوم القيامة، والمراد بالأرض الأرضون السبع؛ يشهد لذلك شاهدان قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً﴾ ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتضى للمبالغة. وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ليس يريد به طياً بعلاج وانتصاب، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب؛ يقال: قد أنطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وأنطوى عنا دهر بمعنى الماضي والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد به الملك؛ وقال: ﴿لَأَخْذَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي بالقوة والقدرة أي لأخذنا قوته وقدرته. قال الفراء والمبرد: اليمين القوة والقدرة. وأنشدنا:

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ^(١)

(١) قائله الحطينة. وقيل هو للشماخ.

وقال آخر:

ولَمَّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَقَ نَوْرُهَا تَنَاوَلْتُ مِنْهَا حَاجَتِي يَبِيمِينَ^(١)
قَتَلْتُ شَتِيفَاثَ فَارَانَ بَعْدَهُ وَكَانَ عَلَى الْآيَاتِ غَيْرَ أَمِينٍ

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضاً؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ حسب ما تقدم في «الفاتحة»^(٢) ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض» وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بياناً، وتكلمنا على ذكر الشمال في حديث ابن عمر؛ قوله: «ثم يطوي الأرض بشماله».

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية. وقد مضى الكلام في هذا في «النمل»^(٣) و «الأنعام»^(٤) أيضاً. والذي ينفخ في الصور هو إسماعيل عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبي الصور بأيديهما - أو في أيديهما - قزنان يلاحظان النظر متى يؤمران» أخرجه ابن ماجه في «السنن». وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور، وقال: «عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل». وأختلف في المستثنى من هم؟ فقيل: هم الشهداء متقلدين أسياهم حول العرش. روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي. وقيل: جبريل وميكائيل وإسماعيل وملك الموت عليهم السلام. وروي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ

(١) كذا في «الأصول» ولم نعر على هذين البيتين فيما لدينا من المراجع.

(٢) راجع ١٤٢/١ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٣) راجع ٢٣٩/١٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٤) راجع ٢٠/٧ طبعة أولى أو ثانية.

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» فقالوا: يا نبي الله من هم الذين أَسْتَشْنِي الله تعالى؟ قال: «هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فيقول الله لملك الموت يا ملك الموت من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب بقي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرافيل وميكائيل فيخرن ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني فيقول الله تعالى يا جبريل لا بدّ من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام» فقال النبي ﷺ: «إِنْ فَضَّلَ خَلَقَهُ عَلَى خَلْقِ مِيكَائِيلَ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ عَلَى الظُّرْبِ^(١) مِنَ الظُّرَابِ» ذكره الثعلبي. وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحق، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله جل وعز: «فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» قال: «جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل» وفي هذا الحديث: «إِنْ آخَرَهُمْ مَوْتاً جَبْرِيلُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ» وحديث أبي هريرة في الشهداء أصبح على ما تقدّم في ﴿النمل﴾^(٢). وقال الضحاك: هو رضوان والحدور ومالك والزبانية. وقيل: عقارب أهل النار وحياتها. وقال الحسن هو الله الواحد القهار وما يدع أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت. وقال قتادة: الله أعلم بشيائه. وقيل: الاستثناء في قوله: «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى؛ أي فيموت من في السموات والأرض إلا من سبق موته؛ لأنهم كانوا قد ماتوا. وفي الصحيحين وأبن ماجه واللفظ له عن أبي هريرة قال قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي أصطفى موسى على البشر؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه؛ قال: تقول هذا وفينا رسول الله ﷺ.

(١) الظرب ككتف الجبل الصغير والجمع ظراب. وقد يجمع في القلة على أظرب.

(٢) راجع ٢٤١/١٣ طبعة أولى أو ثانية.

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قال الله عز وجل ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن أستثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» وخرجه الترمذي أيضاً وقال فيه: حديث حسن صحيح. قال القشيري: ومن حمل الاستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله. فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكون بالموت، ولا يبعد أن تكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوزُه العقل، والأمر في وقوعه موقوف على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه السلام قال: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش^(١) فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن أستثنى الله» خرجه مسلم. ونحوه عن أبي سعيد الخدري؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت برد الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل: قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي ينتظرون ما يفعل بهم. وأجاز الكسائي قياماً بالنصب؛ كما تقول: خرجت فإذا زيد جالساً.

[٦٩] ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

[٧٠] ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(١) باطش بجانب العرش: أي متعلق به بقوة.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقها إضاءتها؛ يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت. ومعنى ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بعدل ربها؛ قاله الحسن وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها؛ والمعنى واحد؛ أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض. وروي أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك. وقيل: إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهار لا ليل معه. وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ على ما لم يسم فاعله وهي قراءة على التفسير. وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعال عن [مشابهة]^(١) المحسوسات، بل هو منور السموات والأرض، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً. وقال أبو جعفر النحاس: وقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح «تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامون في رؤيته» وهو يروى على أربعة أوجه: لا تضامون ولا تضارون ولا تضامون ولا تضارون؛ فمعنى «لا تضامون» لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تضارون» لا يلحقكم ضير. و«لا تضامون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه. و«لا تضارون» لا يخالف بعضكم بعضاً؛ يقال: ضارّه مضارّة وضيراً أي خالفه.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللوح المحفوظ. وقال قتادة: يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله. ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ أي جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أمهم. ﴿وَالشُّهَدَاءَ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة

(١) في «الأصول»: مباينة المحسوسات وهو تحريف.

محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. وقيل: المراد بالشهداء الذين أستمشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله؛ قاله السدي. قال ابن زيد: هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتي بيانه في ﴿قاف﴾^(١). ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق والعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال سعيد بن جبیر: لا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك فتشهد الكتب إلزاماً للحجة.

[٧١] ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُذِرونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٦١).

[٧٢] ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزمر الجماعات واحدها زمرة كظلمة وغرفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة: ﴿زُمَرًا﴾ جماعات متفرقة بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وَتَرَى النَّاسَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ زُمَرًا تَتَابِعُهُ بَعْدَ زُمَرٍ

وقال آخر:

حَتَّىٰ أَخْزَأَ الْثَلَاثَ زُمَرٌ بَعْدَ زُمَرٍ

(١) آية ٢١ من السورة المذكورة.

وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَثُوا أَبْوَابَهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعة أبواب. وقد مضى في ﴿الحجر﴾^(١). ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ واحدهم خازن نحو سَدَنَة وسادن، يقولون لهم تقرّباً وتوبيخاً. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي الكتب المنزلة على الأنبياء. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي يخوفونكم ﴿لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي قد جاءتنا، وهذا أعراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي يقال لهم ادخلوا جهنم. وقد مضى الكلام في أبوابها. قال وهب: تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربعة ومضر. ﴿فَنُفِثَ مَنَوى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدم بيانه^(٢).

[٧٣] ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

[٧٤] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

[٧٥] ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِظِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين ﴿وَسِيقَ﴾ بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين

(١) راجع ٣٠/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١٠٠/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فستان ما بين السوقيين. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ قيل: الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف. قال المبرد: أي سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ في كلام العرب. وأنشد^(١):

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح. وقال الزجاج: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ دخلوها وهو قريب من الأول. وقيل: الواو زائدة. قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين. وقد قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ فَتْحَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدوي وحكى معناه النحاس قبله. قال النحاس: فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم. وقيل: إنها واو الثمانية وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية. قاله أبو بكر بن عيَّاش. قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ ثم قال في الثامن: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَمَانِيَةَ﴾ وقال: ﴿ثِيَابٍ وَأَبْكَارٍ﴾ وقد مضى القول في هذا في «براءة»^(٢) مستوفى وفي «الكهف»^(٣) أيضاً.

(١) البيت لامرئ القيس. «وتموت جميعة» بمعنى أنه مريض بنفسه لا تخرج بمرة، ولكنها تموت شيئاً بعد شيء، وهو معنى تساقط أنفُساً.

(٢) راجع ٢٧١/٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٣٨٢/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قلت: وقد أستدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب، قال قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبَلِّغ - أو فيُسَبِّغ الوضوء^(١) - ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» خزجه مسلم وغيره. وقد خرج الترمذي حديث عمر هذا وقال فيه: «فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة» بزيادة من، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة» وأنهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراد وقف عليه هناك. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ قيل: الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴿قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش والمعنى واحد. وقال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حُسِسُوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وطُيِّبُوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى التحية ﴿طِبْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

قلت: خرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». وحكى النقاش: إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداها فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وهذا يروى معناه عن علي رضي الله عنه. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي إذا دخلوا الجنة

(١) يبلغ الوضوء: يوصل الوضوء إلى مواضعه؛ فالوضوء فيه مفتوح الواو. ومعنى يسبغ الوضوء يكمله على الوجه المستنون؛ فالوضوء فيه مضموم الواو. (هامش مسلم).

قالوا هذا. ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة. قيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وأكثر المفسرين. وقيل: إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير. قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قيل: هو من قولهم أي نعم الثواب هذا. وقيل: هو من قول الله تعالى؛ أي نعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَافِينَ﴾. أي محذرين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به؛ أي يصلون حول العرش شكراً لربهم. والحاقون أخذ من حافات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدهم حاف. وقال الفراء: لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين. ودخلت ﴿من﴾ على ﴿حول﴾ لأنه ظرف والفعل يتعدى إلى الظرف بحرف وبغير حرف. وقال الأخفش: ﴿مِنْ﴾ زائدة أي حافين حول العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن تأكيد. الثعلبي: والعرب تدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبح بحمد ربك وسبح حمداً لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قضى بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أمهم بالحق والعدل. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا. وقال قتادة في هذه الآية: أفتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده. وقيل: إن قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه. وروي من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة ﴿الزمر﴾ فتحرك المنبر مرتين.

تفسير سورة غافر، وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول

وهي مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ والتي بعدها. وهي خمس وثمانون آية. وقيل ثنتان وثمانون آية.

وفي مسند الدارمي قال: حدثنا جعفر بن عون عن مسعر عن سعد بن إبراهيم قال: كنّ الحواميم يسمين العرائس. وروي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «الحواميم ديباج القرآن» وروي عن ابن مسعود مثله. وقال الجوهري وأبو عبيدة: وآل حم سور في القرآن. قال ابن مسعود آل حم ديباج القرآن. قال الفراء: إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم؛ قال الكُمَيْت:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً تَأْوَلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُغْرِبٌ^(١)

قال أبو عبيد: هكذا رواها الأموي بالزاي وكان أبو عمرو يرويه بالراء. فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب. وقال أبو عبيدة: الحواميم سور في القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

وبالحواميم التي قد سُبِّعَتْ^(٢)

قال: والأولى أن تجمع بذوات حم. وروي أن النبي ﷺ قال: «لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هنّ روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم». وقال النبي ﷺ: «مثل الحواميم في القرآن كمثّل الحبرات في الثياب» ذكرهما الثعلبي. وقال أبو عبيد: وحدثني حجاج بن محمد عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال: رأى رجل سبع جوارٍ حسان مزينات في النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم.

(١) الآية التي ذكرها هي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يقول الشاعر: من تأول هذه الآية لم يسعه إلا التشيع لآل النبي ﷺ من بني هاشم، وإبداء المودة. وتقي: ساكت عنه للثقة. ويروى: تقي مغرب، كمكلم أي مبين لما في نفسه. (٢) صدره: وبالطواسين التي قد ثلثت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- [١] ﴿حَمْدٌ﴾ .
 [٢] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .
 [٣] ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ مَنِ الْمَصِيرُ﴾ .
 [٤] ﴿مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْصَرِفُونَ فِي الْيَلْدِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ أختلف في معناه؛ فقال عكرمة قال النبي ﷺ: ﴿حَمْدٌ﴾ أسم من أسماء الله تعالى وهي مفاتيح خزائن ربك؛ وقال ابن عباس: ﴿حَمْدٌ﴾ أسم الله الأعظم. وعنه: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ و ﴿حَمْدٌ﴾ و ﴿نَّ﴾ حروف الرحمن مقطعة. وعنه أيضاً: أسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وقال قتادة: إنه أسم من أسماء القرآن. مجاهد: فواتح السور. وقال عطاء الخراساني: الحاء افتتاح أسمه حميدٌ وحنانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم افتتاح أسمه ملكٌ ومجيدٌ ومنانٌ ومتكبرٌ ومصوّرٌ؛ يدل عليه ما روى أنس أن أعرابياً سأل النبي ﷺ: ما ﴿حَمْدٌ﴾ فإنا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبي ﷺ: «بدء أسماء وفواتح سور». وقال الضحاك والكسائي: معناه قُضِيَ ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجي ﴿حَمْدٌ﴾؛ لأنها تصير حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي قُضِيَ وَوَقَعَ. قال كعب بن مالك:

فَلَمَّا تَلَقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَى وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمِّهِ اللَّهُ مَذْفَعُ

وعنه أيضاً: إن المعنى حُمَّ أمر الله أي قَرُبَ؛ كما قال الشاعر:

قَدْ حُمَّ يَوْمِي فَسُرَّ قَوْمٌ قَوْمٌ بِهِمْ غَفْلَةٌ وَنَوْمٌ

ومنه سميت الحُمَّى؛ لأنها تقرب من المنيّة. والمعنى المراد قَرُبَ نصره لأوليائه، وأنتقامه من أعدائه كيوم بدر. وقيل: حروف هجاء؛ قال الجرمي: ولهذا تقرأ ساكنة الحروف

فخرجت مخرج التهجي، وإذا سميت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأت ﴿حَمَّ﴾ فتنصب؛ قال الشاعر^(١):

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالزُّمَحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقْدُمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: ﴿حَمَّ﴾ بفتح الميم على معنى أقرأ حم أو لالتقاء الساكنين. ابن أبي إسحاق وأبو السَّمَال بكسرهما. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقلون بالوصل. وكذلك في ﴿حَمَّ﴾. عَسَقَ. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحزمة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء. وروي عن أبي عمرو بين اللفظين وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة. الباقلون بالفتح مشبعاً.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ ابتداء والخبر ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي هذا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾. ويجوز أن يكون ﴿حَمَّ﴾ مبتدأ و ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبره والمعنى: إن القرآن أنزله الله وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يكذب به.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة وهي نكرة. وقال الزجاج: هي خفض على البدل. النحاس: وتحقيق الكلام في هذا وتلخيصه أن ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ فهو نكرة ويكون خفضه على البدل. قال ابن عباس: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لمن قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ ممن قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وقال ثابت البناني: كنت إلى سراق مَضْعَبَ بن الزبير في مكان لا تمر فيه الدواب، قال: فاستفتحت ﴿حَمَّ﴾. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ فمر عليّ رجل على دابة فلما قلت ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ قال: قل يا غافر الذنب أغفر لي ذنبي، فلما قلت ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ قال:

(١) قائله شريح بن أوفى العبسي - وقيل: هو للأشتر النخعي.

قل يا قابل التوب تقبل توبتي، فلما قلت ﴿شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ قال: قل يا شديد العقاب أعف عني، فلما قلت ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال: قل يا ذا الطول طُلْ عليّ بخير، فقامت إليه فأخذَ ببصري، فالتفت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً. وقال أهل الإشارة: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فضلاً ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ وعداً ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ عدلاً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ﴾ فردا. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أفتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقليل له: تتابع في هذا الشراب؛ فقال عمر لكاتبه: أكتب؛ من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. حمّ تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ ثم ختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحباً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرنِي عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته. فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فأصنعوا إذا رأيتم أحدكم زلّ زلّة فسددوه وأدعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه. و ﴿التَّوْبِ﴾ يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توباً، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمَة وعَزْم؛ ومنه قوله^(١):

فَيُخْبَو سَاعَةً وَيُهْبُ سَاعاً

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة؛ قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً؛ أي يقبل هذا الفعل، كما تقول قال قولاً، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات. ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ على البذل وعلى النعت؛ لأنه معرفة. وأصل الطول الإنعام والتفضل يقال منه: اللهم طُلْ علينا أي أنعم وتفضل. قال ابن عباس: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغنى والسعة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ أي غنى وسعة. وعن ابن عباس أيضاً: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله. وقال عكرمة:

(١) قائله القطامي وصدره:

﴿ ذِي الطُّوْلِ ﴾ ذِي الْمَنْ ؛ قال الجوهري : والطُّول بالفتح المنّ ، يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا أمتن عليه . وقال محمد بن كعب : ﴿ ذِي الطُّوْلِ ﴾ ذِي التَّفْضُل ؛ قال الماوردي : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق . والطُّول مأخوذ من الطُّول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدّة إنعامه . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سجل سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر ، والمراد الجدل بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق ، وإطفاء نور الله تعالى . وقد دل على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ . فأما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها ، وحلّ مشكلها ، ومقابلة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنّها ، فأعظم جهاد في سبيل الله . وقد مضى هذا المعنى في ﴿ البقرة ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ ^(١) مستوفى . ﴿ فَلَا يَغْزُوكَ ﴾ وقرئ ﴿ فَلَا يَغْرُوكَ ﴾ ﴿ تَقْلُبُهُمْ ﴾ أي تصرفهم ﴿ فِي الْبِلَادِ ﴾ فإني وإن أهملتهم لا أهملهم بل أعاقبهم . قال ابن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن . وقيل : ﴿ لَا يَغْزُوكَ ﴾ ما هم فيه من الخير والسعة في الرزق فإنه متاع قليل في الدنيا . وقال الزجاج : ﴿ لَا يَغْزُوكَ ﴾ سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك . وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن ، قوله : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

[٥] ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ ﴾

- [٦] ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ﴾ .
- [٧] ﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَمَىٰ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسِيحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ﴾ .
- [٨] ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ .
- [٩] ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على تأنيث الجماعة أي كذبت الرسل. ﴿وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالكذب نحو عاد وثمود فمن بعدهم. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليجسوه ويعذبوه. وقال قتادة والسدي: ليقتلوه. والأخذ يرد بمعنى الإهلاك؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. والعرب تسمي الأسير الأخيد؛ لأنه مأسور للقتل؛ وأنشد قُطْرُب قول الشاعر:

فإِذَا تَأْخُذُونِي تَقْتُلُونِي فَكَمْ مِنْ أَخِيذٍ يَهْوَى خُلُودِي^(١)

وفي وقت أخذهم لرسولهم قولان: أحدهما عند دعائه لهم. الثاني عند نزول العذاب بهم. ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي ليزيلوا ومنه مكان دَخَضَ أي مَزَلَقَ، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر. قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك ليطلوا به الإيمان. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي بالعذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عاقبة الأمم المكذبة؛ أي ليس وجدوه حقا.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ أي وجبت ولزمت؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هذه قراءة العامة على التوحيد. وقرأنافع وأبن عامر ﴿كَلِمَاتٍ﴾ جمعا.

(١) في تفسير السمين:

وكم من واحد يهوى خلودي

﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش: أي لأنهم وبأنهم. قال الزجاج: ويجوز إنهم بكسر الهمزة. ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي المَعَذَّبُونَ بها وتم الكلام. ثم ابتدأ فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويروى: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشرف الملائكة وأفضلهم. ففي الحديث: «إن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يقدوا ويروحوا بالسلام على حَمَلَةِ العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة». ويقال: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقات الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف، قد وضعوا الأيمان على الشمائل. ما منهم أحد إلا وهو يستبج بما لا يستبح به الآخر. وقرأ ابن عباس: ﴿الْعَرْشَ﴾ بضم العين؛ ذكر جميعه الزمخشري رحمه الله. وقيل: اتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى - والله أعلم - ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يسألون لهم المغفرة من الله تعالى. وأقاول أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به وأستقبله في الصلاة. وروى ابن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام» ذكره البيهقي وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(١) في آية الكرسي عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات. وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن كعب الأحبار أنه قال: لما خلق الله تعالى العرش قال: لن يخلق الله خلقاً أعظم مني؛ فاهتز فطوقه الله بحية، للحية

(١) راجع ٢٧٦/٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

سبعون ألف جناح، في الجناح سبعون ألف ريشة، في كل ريشة سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان. يخرج من أفواهها في كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، وعدد الملائكة أجمعين، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به^(١). وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة. ﴿رَبَّنَا أَي يَقُولُونَ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أَي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أَي من الشرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أَي دين الإسلام. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَي أصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم. قال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من أبن الكوآء؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وأبن الكوآء يشهد عليهم بالكفر. قال إبراهيم: وكانوا يقولون لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة. وقال مطرّف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية. وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: أفهموها فما في العالم جنة أرجى منها؛ إن ملكاً واحداً لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وخملة العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارىء: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكى ثم قال: يا خلف! ما أكرم المؤمن على الله نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن. قال: قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل. ﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ التي في محل نصب نعتاً للجنات. ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ مَنْ في محل نصب عطفاً على الهاء والميم في قوله ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾. ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ بالإيمان

(١) هذا الخبر وأشباهه من الإسرائيليات التي يحشرها أهل القصص وليس مما يصح.

﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وقد مضى في ﴿الرعد﴾^(١) نظير هذه الآية. قال سعيد بن جبير يدخل الرجل الجنة، فيقول: يا رب أين أبي وجدي وأمي؟ وأين ولدي وولد ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول: يا رب كنت أعمل لي ولهم؛ فيقال أدخلوهم الجنة. ثم تلا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ إلى قوله ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾. ويقرب من هذه الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ قال قتادة: أي وقهم ما يسوءهم، وقيل: التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمر^(٢) من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر؛ أي حفظه. ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ أي بدخول الجنة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي النجاة الكبيرة.

[١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

[١١] ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آيَاتِنِ وَأَحْيِيتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

[١٢] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش: ﴿لِمَقْتُ﴾ هذه لام الابتداء وقعت بعد ﴿يُنَادُونَ﴾ لأن معناه يقال لهم والنداء قول. وقال غيره: المعنى يقال لهم ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ﴾ إياكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾ من مقت بعضهم بعضاً يوم القيامة؛ لأن بعضهم عادى بعضاً ومقت يوم القيامة، فادعوا عند ذلك، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار. وقال الكلبي: يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لمقت الله

إياكم إذ أنتم في الدنيا وقد بعثت إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ إياكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ اليوم. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: المعنى ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ لكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ إذ عايتم النار. فإن قيل: كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان: أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت. الثاني أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى، وعلموا أن نفوسهم هي التي أوبقتهم في المعاصي مقتوها. وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل النار لما يشسوا مما عند الخزنة وقال لهم مالك: ﴿إِنَّكُمْ مَا كَثُورٌ﴾ على ما يأتي قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء! إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلتم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم، ثم جزعوا فنادوا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِصٍ﴾ أي من ملجأ، فقال إبليس عند ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا أَنَا بِمُضِرِّخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّخِي﴾ يقول: بمغني عنكم شيئاً ﴿لَئِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم. قال: فنودوا ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ إذ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ قال فرد عليهم ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ ذكره ابن المبارك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قولهم: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ وأخيين اثنتين. فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم ثم أماتهم الموت التي لا بد منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حيتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة، وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على

النفطة. وأستدل العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد، وهو حي لنفسه لا يتطرق إليه موت ولا غشية ولا فناء. وقال ابن زيد في قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَنَا أَتْنَتَيْنِ﴾ الآية قال: خلقهم في ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم. وقد مضى هذا في «البقرة»^(١). ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم. ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي هل نرد إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؛ نظيره: ﴿فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ وقوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ في موضع رفع أي الأمر ﴿ذَلِكُمْ﴾ أو ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب الذي أنتم فيه بكفركم. وفي الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد. وذلك لأنكم ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ﴾ أي وُحِدَ الله ﴿وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ﴾ وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وأن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله. قال الثعلبي: وسمعت بعض العلماء يقول ﴿وَأَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تصدقوا المشرك؛ نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد.

[١٣] ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾^(١٣).

[١٤] ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١٤).

[١٥] ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾^(١٥).

[١٦] ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١٦).

[١٧] ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١٧).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي دلائل توحيده وقدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق؛ لأن بالآيات قوام الأديان، وبالرزق قوام الأبدان. وهذه الآيات هي السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿إِلَّا مَنْ يَنْبِئُ﴾ أي يرجع إلى طاعة الله. ﴿فَأَذْعُوا اللَّهَ﴾ أي أعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي العبادة. وقيل: الطاعة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ على إضمار مبتدأ. قال الأخفش: ويجوز نصبه على المدح. ومعنى ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي رفيع الصفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع. وقال يحيى بن سلام: هو رفعة درجة أوليائه في الجنة فـ ﴿رَفِيعُ﴾ على هذا بمعنى رافع فعيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذي لا أرفع قدراً منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره؛ قاله الحليمي. وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» والحمد لله ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي خالقه ومالكة لا أنه محتاج إليه. وقيل: هو من قولهم ثُلَّ عرشُ فلان أي زال ملكه وعزّه، فهو سبحانه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي الوحي والنبوة ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وسمي ذلك رُوحاً لأن الناس يحيون بها؛ أي يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح. وقال ابن زيد: الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾. وقيل: الرُّوح جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ. مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي من قوله. وقيل: من قضائه. وقيل: ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء أي بأمره. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث. فقلوه: ﴿لِيُنذِرَ﴾ يرجع إلى الرسول. وقيل: لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾. وقرأ ابن عباس والحسن وأبن السَّمِيعِ ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالتاء خطاباً للنبي عليه السلام. ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. وقيل: العابدون والمعبودون. وقيل: الظالم والمظلوم. وقيل: يلقي كل إنسان جزاء عمله. وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد؛ روي معناه عن ابن عباس. وكله صحيح المعنى. ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ يكون بدلاً من يوم الأول. وقيل: ﴿هُمْ﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿بَارِزُونَ﴾ خبره والجملة في موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من ﴿يَوْمَ﴾ وإنما يكون هذا عند سيويه إذا كان الظرف بمعنى إذ؛ تقول لقيتك يوم زيد أمير. فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يوم زيد أمير. ومعنى ﴿بَارِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتا على ما تقدم في ﴿طه﴾^(١) بيانه. ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ قيل: إن هذا هو العامل في ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وذلك عند فناء الخلق. وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المجيب؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. النحاس: وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءٍ مِثْلِ الْفُضَّةِ لَمْ يَعْصِ اللَّهَ جُلٌّ وَعِزٌّ عَلَيْهَا. فيؤمر منادٍ ينادي ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذاً، ويقول الكافرون غمّاً وأنقياداً وخضوعاً. فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد؛ لأنه لا فائدة فيه، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قلت: والقول الأول ظاهر جداً؛ لأن المقصود إظهار أنفاده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوي المدّعين وانتساب المنتسبين؛ إذ قد ذهب كلّ ملك ومُلكه ومتكبر وملكه وأنقطعت نسبهم ودعاويهم. ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطَيّ السماء: «أنا الملك أين ملوك الأرض» كما تقدّم في حديث أبي هريرة وفي حديث ابن عمر، ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون. وعنه قوله سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر. قال محمد بن كعب قوله سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ يكون بين النفختين حين فني الخلق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكاً ولا مملوكاً فيقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خلقه. وقيل: إنه ينادي مناد فيقول ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيجيبه أهل الجنة ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فالله أعلم. ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي يقال لهم إذا أقرؤا بالملك يومئذ لله وحده ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي لا ينقص أحد شيئاً مما عمله. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكير وعقد يد كما يفعله الحساب؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضى هذا المعنى في ﴿البقرة﴾^(١). وفي «الخبر»: ولا ينتصف النهار حتى يقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

[١٨] ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذْ أَلْقَوْهُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

[١٩] ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

[٢٠] ﴿وَاللَّهُ يَعْصِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

[٢١] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

[٢٢] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي يوم القيامة. سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب. وأزف فلان أي قرب يأزف أزفاً؛ قال النابغة:

أَزَفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا لَمَّا تَزَلْ بِرِجَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ

أي قرب. ونظير هذه الآية ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾^(١) أي قربت الساعة. وكان بعضهم يتمثل ويقول:

أَزَفَ الرَّحِيلُ وَلَيْسَ لِي مِنْ زَادٍ غَيْرَ الذَّنْبِ لِشِقْوَتِي وَنَكَدِي

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى. قال الزجاج: المعنى إذ قلوب الناس ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ في حال كظمهم. وأجاز الفراء أن يكون التقدير ﴿وَأَنْذَرْنَاهُمْ﴾ ﴿كَاطِمِينَ﴾ وأجاز رفع ﴿كَاطِمِينَ﴾ على أنه خبر للقلوب. وقال: المعنى إذ هم كاطمون وقال الكسائي: يجوز رفع ﴿كَاطِمِينَ﴾ على الابتداء. وقد قيل: إن المراد بـ ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ يوم حضور المنية؛ قاله قطرب. وكذا ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ عند حضور المنية. والأول أظهر. وقال قتادة: وقعت في الحناجر من المخافة فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال: ﴿وَأَنْذَرْنَاهُمْ هَوَاءً﴾. وقيل: هذا إخبار عن نهاية الجزع؛ كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وأضيف اليوم إلى الآزفة على تقدير يوم القيامة ﴿الْآزِفَةَ﴾ أو يوم المجادلة ﴿الْآزِفَةَ﴾. وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى

نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي من قريب ينفع ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ قال المؤرّج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة. وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصره، فإذا رأى منكم غفلة تَدَسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصره، وقد علم الله عز وجل أنه يودّ لو نظر إلى عورتها. وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى. وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى. وقال السدي: إنها الرَّمز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة. وقال الفراء: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة الثانية ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ النظرة الأولى. وقال ابن عباس: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ تكته وتضمّره. ولما جيء بعبد الله بن^(١) أبي سرح إلى رسول الله ﷺ، بعد ما أطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه، صَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم» فلما أنصرف قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «ما صَمْتُ إِلَّا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار فهلاًّ أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال: «إن النبي لا تكون له خائنة أعين». ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يجازي من غَضَّ بصره عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواجهة الفواحش إذا قدر عليها. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر عليه ولا تملك. وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿هُوَ﴾ زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن.

(١) عبد الله بن أبي سرح: كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم أرتد ولحق بالمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بقتله يوم فتح مكة. راجع قصته في ٤٠/٧ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ في موضع جزم عطف على ﴿يَسِيرُوا﴾ ويجوز أن يكون في موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أسم كان والخبر في ﴿كيف﴾. و ﴿وَاقٍ﴾ في موضع خفض معطوف على اللفظ. ويجوز أن يكون في موضع رفع على الموضع رفعه وخفضه واحد؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع^(١) فأغنى عن الإعادة.

[٢٣] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

[٢٤] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

[٢٥] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

[٢٦] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

[٢٧] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهي التسع الآيات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وقد مضى تعيينها^(٢). ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة بينة وهو يذكر ويؤنث. وقيل: أراد بالسلطان التوراة. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما. ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر.

(١) راجع ٣٢٤/٩ أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٣٣٥/١٠ وما بعدها طبة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهي المعجزة الظاهرة ﴿قَالُوا أَتُتْلُوا أَنْبَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في خسران وهلاك، وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيفه يذهب باطلاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ﴿أَقْتُلْ﴾ جزم؛ لأنه جواب الأمر ﴿وَلْيَدْعُ﴾ جزم؛ لأنه أمر و ﴿ذَرُونِي﴾ ليس بمجزوم وإن كان أمراً ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبني. وقيل: هذا يدل على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعوك عليك فيجاب؛ فقال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي يقع بين الناس بسببه الخلاف. وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السلميّ وأبن عامر وأبي عمرو ﴿وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقراءة الكوفيين ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ﴾ بفتح الياء ﴿الْفَسَادَ﴾ بالرفع وكذلك هي في مصاحف الكوفيين. ﴿أَوْ﴾ بألف وإليه يذهب أبو عبيد؛ قال: لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل؛ ولأن ﴿أَوْ﴾ تكون بمعنى الواو. النحاس: وهذا عند حُذاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو؛ لأن في ذلك بطلان المعاني، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لما أحتيج إلى هذا هاهنا؛ لأن معنى الواو ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ الأمرين جميعاً ومعنى ﴿أَوْ﴾ لأحد الأمرين أي ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ فإن أعوزه ذلك أظهر في الأرض الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ لما هدده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي متعظم عن الإيمان بالله، وصفته أنه ﴿لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

[٢٨] ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨).

فيه أربع مسائل؛

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ ذكر بعض المفسرين: أن أسم هذا الرجل حبيب. وقيل: شمعان بالشين المعجمة. قال السهيلي: وهو أصح ما قيل فيه. وفي تاريخ الطبري رحمه الله؛ أسمه خبرك^(١). وقيل: حزقيل. ذكره الثعلبي عن ابن عباس وأكثر العلماء. الزمخشري: وأسمه سمعان أو حبيب. وقيل خربيل أو حزبييل. وأختلف هل كان إسرائيلياً أو قبطياً فقال الحسن وغيره: كان قبطياً. ويقال: إنه كان ابن عم فرعون؛ قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهذا الرجل هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدْيَنَةِ يُسَمَّى قَالَ يَا مُوسَى﴾ الآية. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾.

[وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصَّادِقُونَ حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذي قال أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم»]^(٢) وفي هذا تسلية للنبي ﷺ أي لا تعجب من مشركي قومك. وكان هذا الرجل له وجهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجل من بني إسرائيل يكتُم إيمانه من آل فرعون. عن السدي أيضاً؛ ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير، والتقدير: وقال رجل مؤمن يكتُم إيمانه من آل فرعون. فمن جعل الرجل قبطياً

(١) في هامش الطبري خبرك. وفي نسخة جبرك.

(٢) الزيادة أوردها الجمل في حاشيته عن القرطبي.

ف ﴿حِينَ﴾ عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل؛ التقدير: وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون؛ أي من أهله وأقاربه. ومن جعله إسرائيلياً ف ﴿مِنْ﴾ متعلقة بـ ﴿يَكْتُمُ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿يَكْتُمُ﴾. القشيري: ومن جعله إسرائيلياً ففيه بعد؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول.

الثانية - قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي لأن يقول ومن أجل ﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ف ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض. ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني الآيات التسع ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تطفلاً في الاستكفاف واستنزاً عن الأذى. ولو كان و ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ بالنون جاز ولكن حذفت النون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نون الإعراب على قول أبي العباس. ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم. ومذهب أبي عبيدة أن معنى ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ كل الذي يعدكم، وأنشد قول لبيد:

تَرَكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَها أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النُّفُوسِ جِمَامُها^(١)

فبعض بمعنى كل؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله في الوعيد، وهذا ترفيق الكلام في الوعظ. وذكر الماوردي: أن البعض قد يستعمل في موضع الكل تطفلاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام؛ كما قال الشاعر^(٢):

قَدْ يُدْرِكُ الْمَتَانِي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضاً: قال ذلك لأنه حذرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مهلك فكانه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع. وقيل: وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين. وقيل: أي يصبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا

(١) ويروى: أو يعلق بدل يرتبط كما في «اللسان» وغيره.

(٢) هو عمر القطامي.

وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب في الآخرة أيضاً. وقيل: وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هذا من قول المؤمن. وقيل: ﴿مُسْرِفٌ﴾ في عناده ﴿كَذَّابٌ﴾ في أدعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي: ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمناً بأعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه. فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه في أصول الفقه؛ بما لباه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله.

الرابعة - روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو ابن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لفظ البخاري. خرجه الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: أجمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قتل رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه^(١) وهذا يتلته، فاستغاث النبي ﷺ يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله صغيرتان، فأقبل يجأ ذا ويتلثل

ذا

(١) وجاء يجؤه وجأ ضربه. والتلته التحريك والإقلاق والزعزعة.

ويقول بأعلى صوته: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ والله إنّه لرسول الله، فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ. فقال عليّ: والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل.

قلت: قول عليّ رضي الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد في أول أمره بخلاف الصديق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه. في «نوادر الأصول» أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها: ما أشدّ شيء رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد، ويتذاكرون رسول الله ﷺ ما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدّقهم، فقالوا: ألسن تقول كذا في آلهتنا قال « بلى » فتشبثوا فيه بأجمعهم ، فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال له: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول؛ ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهَ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام؛ إكرام إكرام.

[٢٩] ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ .

[٣٢] ﴿وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ .

[٣٣] ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قوله ﴿يَا قَوْمِ﴾ دليل على أنه قبطي؛ ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ﴾ فاشكروا الله على ذلك. ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي غالبين وهو نصب على الحال أي في حال ظهوركم. والمراد بالأرض أرض مصر في قول السدي وغيره؛ كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي من عذاب الله تحذيراً لهم من نقمه إن كان موسى صادقاً فذُكر وحذر فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ زَادَهُمْ فِي الْوَعظِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني أيام العذاب التي عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلماً موطناً نفسه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾. وقراءة العامة ﴿التَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبي الصلت:

وَبَسَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاها فَهُمْ سُكَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِ

سمي بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضاً؛ فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وينادي المنادي أيضاً بالشقوة

والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. وتنادي الملائكة أصحاب الجنة: ﴿أَنْ تَلْكَمُوا الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وينادي حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت. وينادي كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء. وقرأ الحسن وأبن السَّمِيعَ ويعقوب وأبن كثير ومجاهد ﴿التَّنَادُ﴾ بإثبات الباء في الوصل والوقف على الأصل. وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ بتشديد الدال. قال بعض أهل العربية: هذا لحن؛ لأنه من نَدَّ يَنْدُ إذا مرَّ على وجهه هارباً؛ كما قال الشاعر^(١):

وَبَرَكَ هُجُودٌ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي نَوَادِيهَا أَسْعَى بِعَضْبٍ مُجَرَّدٍ

قال: فلا معنى لهذا في القيامة. قال أبو جعفر النحاس: وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر. قال الضحاك: ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه؛ فذلك قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾. وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ ذكره أبن المبارك بمعناه. قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثنا عبد الجبار بن عبيد الله بن سلمان في قوله [تعالى]: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَذْبِرَيْنَ﴾ ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيكون حتى ينفذ الدمع، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيكون حتى ينفذ الدم، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح. قال: يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح، فيكون حتى ينفذ القيق فتغور أعينهم كالخرق في الطين. وقيل: إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع. ذكره علي بن معبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة، وفيه «فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهب المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين

(١) هو طرفه. في «اللسان»: نواديه أمشي. يقول: إبل باركة نيام، ونواديه أي ما نذ منها. ويرى نواديه أي أوائله. أي أثارت مخافتي نوادي هذا البرك حال مشى إليه بالسيف.

هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الحديث بكماله. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هناك. وروى عن علي بن نصر عن أبي عمرو إسكان الدال من ﴿التناد﴾ في الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبد الوارث زيادة الياء في الوصل خاصة وهو مذهب ورش. والمشهور عن أبي عمرو حذفها في الحالين. وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدم. وقيل: سمي يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادي فيه بالويل والثبور والحسرة. قاله ابن جريج. وقيل: فيه إضممار أي إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ فالله أعلم. ﴿يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ﴾ على البذل من ﴿يوم التناد﴾ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي من خلق الله في قلبه الضلال فلا هادي له. وفي قائله قولان: أحدهما موسى. الثاني مؤمن آل فرعون وهو الأظهر. والله أعلم.

[٣٤] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

[٣٥] ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بَغْيًا سُلْطَانًا أَنْتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: إن هذا من قول موسى. وقيل: هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات ﴿أَازْبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسلاً إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهي الرؤيا. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً

عشرين سنة. وحكى النقاش عن الضحاك: إن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن. يقال له يوسف. وقال وهب بن منبه: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمَر. وغيره يقول: هو آخر. النحاس: وليس في الآية ما يدل على أنه هو؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبى لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعاً بها وعليهم أن يصدقوه بها. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ أي أسلافكم كانوا في شك. ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي من يدعي الرسالة ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿مُزْتَابٌ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي في حججه الظاهرة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير حجة وبرهان و ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿مَنْ﴾. وقال الزجاج: أي كذلك يضل الله الذين يجادلون في آيات الله ف ﴿الَّذِينَ﴾ نصب. قال: ويجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾. ثم قيل: هذا من كلام مؤمن آل فرعون. وقيل: ابتداء خطاب من الله تعالى. ﴿مَقْتًا﴾ على البيان أي ﴿كَبُرَ﴾ جدالهم ﴿مَقْتًا﴾؛ كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ومقت الله تعالى ذمه لهم ولعنه إياهم وإحلال العذاب بهم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي يختم ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق. وقراءة العامة ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافة قلب إلى المتكبر وأختره أبو حاتم وأبو عبيد. وفي الكلام حذف والمعنى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ﴾ على كل ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فحذف ﴿كُلِّ﴾ الثانية لتقدم ما يدل عليها. وإذا لم يقدر حذف ﴿كُلِّ﴾ لم يستقم المعنى؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه. وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً. ومما يدل على حذف ﴿كُلِّ﴾ قول أبي ذؤاد^(١):

أَكَلْ أَمْرِي تَخْسِيبَ أَمْرِي وَنَارِ تَوَقُّدِ اللَّيْلِ نَاراً

(١) هو جارية بن الحجاج الإيادي. وقيل اسمه حنظلة بن الشرقي، وكان في عصر كعب بن مامة الإيادي الذي يضرب به المثل في الجود. «الشعر والشعراء لابن قتيبة».

يريد وكلّ نارٍ . وفي قراءة ابن مسعود ﴿عَلَى قَلْبٍ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وأبن محيصن وأبن ذكوان عن أهل الشام ﴿قلب﴾ منون على أن ﴿متكبر﴾ نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجملة ؛ لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : «إِن فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أي على كل ذي قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

[٣٦] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ .

[٣٧] ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كُذِّبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي بَبَابٍ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنُ لِي صَرَحًا﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخَفِّه عنهم ، وإن لم يصح ثبَّتْهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح . وقد مضى في ﴿القصص﴾^(١) ذكره . ﴿لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ بدل من الأوّل . وأسباب السماء أبوابها في قول قتادة والزهري والسدي والأخفش ؛ وأنشد :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَآيَا يَنْلُكُهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ يَسْلُمُ^(٢)

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها . وقيل : الأمور التي تستمسك بها السموات . وكرر أسباب تفخيماً ؛ لأن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه ، والله أعلم . ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه . توهم أنه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون

(١) راجع ٢٨٨/١٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى .

يدعي الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مشرف. وقراءة العامة ﴿فَأُطِّلِعُ﴾ بالرفع نسقاً على قوله: ﴿أُبْلَغُ﴾. وقرأ الأعرج والسُّلَمِيّ وعيسى وحفص ﴿فَأُطِّلِعُ﴾ بالنصب؛ قال أبو عبيدة: على جواب ﴿لعل﴾ بالفاء. النحاس: ومعنى النصب خلاف معنى الرفع؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب أطلعت. ومعنى الرفع ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ثم لعلّي أطلع بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشد تراخياً من الفاء. ﴿وَأَنِّي لِأُظَنُّ كَاذِبًا﴾ أي وإنّي لأظن موسى كاذباً في أدعائه إلهاً دوني، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة. وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين أي وأنا أتيقن أنه كاذب، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عن لا أتيقن ما أتيقنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُجِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي الشرك والتكذيب. ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ قراءة الكوفيين ﴿وَصُدَّ﴾ على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ ويجوز على هذه القراءة ﴿وَصِدَّ﴾ بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد؛ وهي قراءة يحيى بن وثاب وعلقمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن بكرة ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ بالرفع والتنوين. الباقون ﴿وَصَدَّ﴾ بفتح الصاد والدال. أي صد فرعون الناس عن السبيل. ﴿وَمَا كُنْذُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في خسران وضلال، ومنه ﴿تَبَّتْ يُدَا أُبَي لَهَبٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيرٍ﴾ وفي موضع ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فهذا الله صرحه وغرقه هو وقومه على ما تقدّم^(١).

[٣٨] ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورُ أَتَيْعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

[٣٩] ﴿يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَلِئِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

- [٤٠] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَرَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾﴾ .
- [٤١] ﴿وَيَنْقُومَ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ .
- [٤٢] ﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ .
- [٤٣] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٤﴾﴾ .
- [٤٤] ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٥﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون؛ أي اقتدوا بي في الدين. ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي طريق الهدى وهو الجنة. وقيل: من قول موسى. وقرأ معاذ بن جبل ﴿الرَّشَادِ﴾ بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشد ولا يكون فَعَّال من أفعال إنما يكون من الثلاثي، فإن أردت التكثير من الرباعي قلت: مِفْعَال. قال النحاس: يجوز أن يكون رَشَاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه، ولكن كما يقال لآل من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جارياً عليه. ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أي صاحب رَشَاد؛ كما قال:

كَلِّنِي لَهُمْ يَا أُمَيَّةَ نَاصِبٍ^(١)

الزمخشري: وقرئ ﴿الرَّشَادِ﴾ فَعَّال من رَشَد بالكسر كَعَلَام أو من رَشَد بالفتح كعَبَاد. وقيل: من أرشد كجَبَّار من أجبر وليس بذاك؛ لأن فَعَّال من أفعال لم يجيء إلا في عدة أحرف: نحو دَرَاكٍ وَسَارٍ وَقَصَّارٍ وَجَبَّار. ولا يصح القياس على هذا القليل. ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كمَوَاجٍ وَبَتَاتٍ^(٢) غير منظور فيه إلى فعل. ووقع في المصحف ﴿اتَّبِعُونِ﴾

(١) البيت للناطقة الذيباني وتمامه:

وَلَيْلِ أَنْتَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

(٢) المَواج: بياع العاج، والبتات: بياع البت وهو كساء غليظ.

بغير ياء. وقرأها يعقوب وأبن كثير بالإثبات في الوصل والوقف. وحذفها أبو عمرو ونافع في الوقف وأثبتوها في الوصل، إلا وزشاً حذفها في الحالين، وكذلك الباقون؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي يتمتع بها قليلاً ثم تنقطع وتزول. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي الاستقرار والخلود. ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان. بين ذلك بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعني الشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء. ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله. وهي قراءة ابن كثير وأبن محيصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم يدل عليه ﴿يُزْرَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَذْغَوْكُمُ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أي إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ بين أن ما قال فرعون من قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيل الغي عاقبته النار وكانوا دعوه إلى أتباعه؛ ولهذا قال: ﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا أَذْغَوْكُمُ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾. ﴿لَا جَرَمَ﴾ تقدم الكلام فيه^(١) ومعناه حقاً. ﴿أَنْ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ قال الزجاج: ليس له استجابة دعوة تنفع؛ وقال غيره: ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾. وقال الكلبي: ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة. وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبد ما كانت شابة، فإذا هَرمت أمر بذبحها، ثم دعا بأخرى لتعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى. ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ قال قتادة وأبن سيرين: يعني المشركين. وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون

والمتكبرون. وقيل: هم الذين تعدوا حدود الله. وهذا جامع لما ذكر. و﴿أَنَّ﴾ في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر. وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن ﴿لا جرم﴾ رد لكلام يجوز أن يكون موضع ﴿أَنَّ﴾ رفعاً على تقدير وجب أن ما تدعونني إليه، كأنه قال وجب بطلان ما تدعونني إليه، والمرد إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار.

قوله تعالى: ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ تهديد ووعيد و﴿مَا﴾ يجوز أن تكون بمعنى الذي أي الذي أقوله لكم. ويجوز أن تكون مصدرية أي فستذكرون قولي لكم إذا حل بكم العذاب. ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي أتوكل عليه وأسلم أمري إليه. وقيل: هذا يدل على أنهم أرادوا قتله. وقال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القاتل موسى. والأظهر أنه مؤمن آل فرعون؛ وهو قول ابن عباس.

[٤٥] ﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

[٤٦] ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي من إلحاق أنواع العذاب به فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فوض أمره إلى الله. قال قتادة: كان قبطياً فنجاه الله مع بني إسرائيل. فإلهاه على هذا لمؤمن آل فرعون. وقيل: إنها لموسى على ما تقدم من الخلاف. ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ قال الكسائي: يقال حاق يحيق حيقاً وخيوقاً إذا نزل ولزم. ثم بين العذاب فقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفيه ستة أوجه: يكون رفعاً على البدل من ﴿سُوءٍ﴾. ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء. وقال الفراء: يكون مرفوعاً بالعائد على معنى النار عليها يعرضون، فهذه أربعة أوجه في الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائداً وقبلها ما يتصل به، وأجاز الأخفش الخفض على البدل من ﴿الْعَذَابِ﴾. والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ. واحتج بعض أهل العلم في تثبيت

عذاب القبر بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما دامت الدنيا. كذلك قال مجاهد وعكرمة. ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. وفي الحديث عن ابن مسعود: إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشي فيقال هذه داركم. وعنه أيضاً: إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها. وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال سمعت ميمون بن [مهران]^(١) يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي أصبحنا والحمد لله وعُرض آل فرعون على النار، فإذا أمسى نادى أمسينا والحمد لله وعُرض آل فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار. وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرض على النار بالغداة والعشي» ثم تلا ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ «وإن المؤمن إذا مات عُرض رُوحه على الجنة بالغداة والعشي» وخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة». قال الفراء: في الغداة والعشي بمقادير ذلك في الدنيا. وهو قول مجاهد: قال: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قال: من أيام الدنيا. وقال حماد بن محمد الفزاربي: قال رجل للأوزاعي رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب، بيضاً صفاراً فَوْجاً فَوْجاً لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سوداً. قال: تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعْرَضُونَ على النار غدوًّا وعشيًّا، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سوداً، فينبت عليها من الليل رياشها بيضاً وتتناثر السود، ثم تغدو فتعرض على النار غدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وكرها فذلك دأبها ما كانت في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وهو الهاوية. قال الأوزاعي: فبلغنا أنهم

(١) في نسخ الأصل ميمون بن ميسرة وهو تحريف، والتصويب عن «التهذيب».

ألفا ألف وستمائة ألف. ﴿وَعُدُّوْا﴾ مصدر جعل ظرفاً على السعة ﴿وَعَشِيَّاً﴾ عطف عليه وتمّ الكلام. ثم ابتدئ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ على أن تنصب يوماً بقوله: ﴿أَدْخِلُوا﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ على معنى ﴿يُعْرَضُونَ﴾ على النار في الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ فلا يوقف عليه. وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي ﴿أَدْخِلُوا﴾ بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهي اختيار أبي عبيد؛ أي يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم، ودليله ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾. الباقون ﴿أَدْخِلُوا﴾ بوصل الألف وضم الخاء من دخل أي يقال لهم ﴿أَدْخِلُوا﴾ يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وهو اختيار أبي حاتم. قال: في القراءة الأولى ﴿آلَ﴾ مفعول أول و ﴿أَشَدَّ﴾ مفعول ثانٍ بحذف الجر، وفي القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف. وآل فرعون من كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن العبد يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمناً وحى مؤمناً ومات مؤمناً وإن العبد يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً منهم فرعون ولد كافراً وحى كافراً ومات كافراً ذكره النحاس. وجعل الفراء في الآية تقديماً وتأخيراً مجازة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيَّاً﴾ فجعل العرض في الآخرة، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدم. والله أعلم.

[٤٧] ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۖ﴾.

[٤٨] ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعَبَادِ ۖ﴾.

[٤٩] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ﴾.

[٥٠] ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعَبُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ أي يختصمون فيها ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيما دعوتهمونا إليه من الشرك في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ﴾ أي متحملون ﴿عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ﴾ أي جزءاً من العذاب. والتبع يكون واحداً ويكون جمعاً في قول البصريين واحده تابع. وقال أهل الكوفة: هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع ل قيل أتباع. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي في جهنم. قال الأخفش: ﴿كُلٌّ﴾ مرفوع بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء ﴿إِنَّا كُلًّا فِيهَا﴾ بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في ﴿إِنَّا﴾ وكذلك قرأ ابن السميع وعيسى بن عمر. والكوفيون يسمون التأكيد نعتاً. ومنع ذلك سيويه؛ قال: لأن ﴿كُلًّا﴾ لا تنعت ولا ينعت بها. ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره وقال معناه المبرد، قال: لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا؛ لأنه مخاطب ولا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب؛ لأنهما لا يشكلا فيبدل منهما؛ هذا نص كلامه. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي لا يؤخذ أحداً بذنب غيره فكل منا كافر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الأمم الكافرة. ومن العرب من يقول للذون على أنه جمع مسلم معرب، ومن قال ﴿الَّذِينَ﴾ في الرفع بناء كما كان في الواحد مبنياً. وقال الأخفش: ضمت النون إلى الذي فأشبهه خمسة عشر فبنى على الفتح. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ خَزَنَةٌ جمع خازن ويقال خُزَّانٌ وخُزْنٌ. ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿يُخَفَّفُ﴾ جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوباً، إلا أن الأكثر في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال^(١):

فَقَا تَبَكِّ مِنْ ذِكْرِي حَيِّبٍ وَمَنْزِلِ

قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة؛ فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفَّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ فسألوا يوماً

(١) هو أمرؤ القيس والبيت من معلقته، وتماه:

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

واحداً يخفف عنهم فيه العذاب فردت عليهم ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ الخبر بطوله. وفي الحديث عن أبي الدرداء خرج الترمذي وغيره قال: يلقي على أهل النار الجوع حتى يغدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيأكلونه لا يغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصَّة فيغصون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغصص بالماء، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلايب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ فيجيئهم ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي خسار وتبار.

[٥١] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

[٥٢] ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

[٥٣] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾.

[٥٤] ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال ﴿رُسُلَنَا﴾ والمراد موسى عليه السلام. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في موضع نصب عطف على الرسل، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عام في الرسل والمؤمنين، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها في قول أبي العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدي: ما قتل قوم قط نبياً أو قوماً من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتلوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: ﴿الْأَشْهَادُ﴾ أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد. وقال مجاهد والسدي: ﴿الْأَشْهَادُ﴾ الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالكذب. وقال قتادة: الملائكة والأنبياء. ثم قيل:

﴿الشَّاهِدَ﴾ جمع شهيد مثل شريف وأشراف. وقال الزجاج: ﴿الشَّاهِدَ﴾ جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب. النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعاً أدى كما سمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ بالتاء على تأنيث الجماعة. وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي ﷺ قال: «من ردّ عن عرض أخيه المسلم كان حقاً على الله عز وجل أن يرده عنه نار جهنم» ثم تلا ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. وعنه عليه السلام أنه قال: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملكاً يحميه من النار ومن ذكر مسلماً بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال»^(١). ﴿يَوْمَ﴾ بدل من يوم الأول. ﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ قرأ نافع والكوفيون ﴿ينفع﴾ بالياء. الباقر بالتاء. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله و﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ هذا دخل في نصره الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة. وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾. ﴿وَأَوْزَنَّا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة جعلناها لهم ميراً. ﴿هُدًى﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هدى؛ يعني ذلك الكتاب. ﴿وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول.

[٥٥] ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

[٥٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْنَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

[٥٧] ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٥٨] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

[٥٩] ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، كما صبر من قبلك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرك وإظهارك، كما نصرت موسى وبني إسرائيل. وقال الكلبي: نسخ هذا بآية السيف. ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ﴾ قيل: لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: لذنب نفسك على من يجوز الصغائر على الأنبياء. ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده. وقيل: فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاة العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غداة وركعتان عشية. عن الحسن أيضاً ذكره الماوردي. فيكون هذا مما نسخ والله أعلم. وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بالشكر له والثناء عليه. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي أستدم التسبيح في الصلاة وخارجاً منها لتشتغل بذلك عن استعجال النصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ يخاصمون ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة ﴿أَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ قال الزجاج: المعنى ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغي إرادتهم فيه. قدره على الحذف. وقال غيره: المعنى ما هم ببالغي الكبر على غير حذف؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن أتبعوا النبي ﷺ قل ارتفاعهم، ونقصت أحوالهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعاً، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أمْلُوهُ بالتكذيب. والمراد المشركون. وقيل: اليهود؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة.

والمعنى؛ إن تَعَظَّمُوا عن أتباع محمد ﷺ وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيردّ الملك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله [فذلك كبر لا يبلغونه] ^(١) فنزلت الآية فيهم؛ قاله أبو العالية وغيره. وقد تقدم في ﴿آل عمران﴾ ^(٢) أنه يخرج ويطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب ﴿التذكرة﴾. وهو يهودي وأسمه صاف ويكنى أبا يوسف. وقيل: كل من كفر بالنبي ﷺ. وهذا أحسن؛ لأنه يعم. وقال مجاهد: معناه في صدورهم عظمة ما هم بباليغها والمعنى واحد. وقيل: المراد بالكبر الأمر الكبير أي يطلبون النبوة أو أمراً كبيراً يصلون به إليك من القتل ونحوه. ولا يبلغون ذلك، أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ قيل: من فتنه الدجال على قول من قال إن الآية نزلت في اليهود. وعلى القول الآخر من شر الكفار. وقيل: من مثل ما أبتلوا به من الكفر والكبر. ﴿لَإِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿هُوَ﴾ يكون فاصلاً ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره. قال أبو العالية: أي أعظم من خلق الدجال حين عظّمته اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكري البعث. أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم يعتقدوا عجزي عنها. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي المؤمن والكافر والضال والمهتدي. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ولا يستوي العامل للصالحات ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾ الذي يعمل السيئات. ﴿قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾ قراءة العامة بياء على الخبر وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده. وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) راجع ٨٩/٤ وما بعدها ص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ هذه لام التأكيد دخلت في خبر إن وسبيلها أن تكون في أول الكلام؛ لأنها توكيد الجملة إلا أنها تُزحلق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه. تقول: إن عمراً للخارج؛ وإنما آخرت عن موضعها لثلاثا يجمع بينها وبين إن؛ لأنهما يؤديان عن معنى واحد، وكذا لا يجمع بين إن وأن عند البصريين. وأجاز هشام إن أن زيدا منطلق حق؛ فإن حذف حقاً لم يجز عند أحد من النحويين علمته؛ قاله النحاس. ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك ولا مرية. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي.

[٦٠] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

[٦١] ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

[٦٢] ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

[٦٣] ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

[٦٤] ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

[٦٥] ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية؛ روى النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة. وكذا قال أكثر المفسرين

وأن المعنى وُحْدُونِي وأَعْبُدُونِي أَتَقْبَلُ عِبَادَتَكُمْ وَأَغْفِرُ لَكُمْ. وقيل: هو الذكر والدعاء والسؤال. قال أنس قال النبي ﷺ: «لَيْسَ أَلْحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ كُلُّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شَيْئًا نَعْلَهُ إِذَا انْقَطَعَ» ويقال الدعاء هو ترك الذنوب. وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبي، كان إذا أرسل نبي قيل له أنت شاهد على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكان يقال للنبي ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكان يقال للنبي أدعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

قلت: مثل هذا لا يقال من جهة الرأي، وقد جاء مرفوعاً؛ رواه ليث عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: أُعْطِيَ أُمِّي ثَلَاثًا لَمْ تُعْطَ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا بَعَثَ النَّبِيَّ قَالَ أَدْعُنِي أَسْتَجِبْ لَكَ وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وكان الله إذا بعث النبي قال ما جعل عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس ذكره الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول». وكان خالد الربيعي يقول: عجيب لهذه الأمة! قيل لها: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهذا هنا شرط، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ فليس فيه شرط العمل، ومثل قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فهذا هنا شرط، وقوله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ليس فيه شرط. وكانت الأمة تفرع إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك. وقد قيل: إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدم في «البقرة»^(١) بيانه. أي ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إن شئت؛ كقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾. وقد تكون الاستجابة في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدم

في ﴿البقرة﴾ بيانه فتأمله هناك. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورويس عن يعقوب وعياش عن أبي عمرو وأبو بكر والمفضل عن عاصم ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله. الباقون ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء. ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين أذلاء وقد تقدّم^(١).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى خلق، والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين؛ نحو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وقد مضى هذا المعنى في غير موضع^(٢). ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا في طلب معاشكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله وإنعامه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بين الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤَفَّكُونَ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبين لكم دلائله كذلك؛ أي كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ ﴿كَذَلِكَ يُؤَفَّكُ﴾ يصرف عن الحق ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْحَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي جعل لكم الأرض مستقراً لكم في حياتكم وبعد الموت. ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ تقدّم^(٣). ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة. وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلي ﴿صَوَّرَكُمُ﴾ بكسر الصاد؛ قال الجوهري: والصُّور بكسر الصاد لغة في الصُّور جمع صُورة، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجواري:

أَشْبَهْنَ مِنْ بَقَرِ الْخَلْصَاءِ أَغْنِيَهَا
وَهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ صِيرَانِهَا صُوراً

(١) راجع ١١١/١٠ و ٢٤٢/١٣ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٣٨٦/٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٢٢٩/١ طبعة ثانية أو ثالثة.

[والصَّيْرَانِ جمع صُورٍ وهو القطيع من البقر والصُّور أيضاً وعاء المسك]^(١)
وقد جمعهما الشاعر بقوله:

إذا لَاحَ الصَّوَارُ ذَكَرْتُ لَيْلَى وأذْكُرُهَا إِذَا نَفَّحَ الصَّوَارُ

والصَّيَار لغة فيه. ﴿وَرَزَقْنَاكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَهُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تقدم^(٢). ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ أي الباقي الذي لا يموت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة والعبادة. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الفراء: هو خبر وفيه إضمار أمر أي أدعوه وأحمدوه. وقد مضى هذا كله مستوفى في ﴿البقرة﴾^(٣) وغيرها. وقال ابن عباس: من قال «لا إله إلا الله» فليقل «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

[٦٦] ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

[٦٧] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[٦٨] ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ﴾ أي قل يا محمد نهاني الله الذي هو الحي القيوم ولا إله غيره ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ غيره. ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ أي دلائل توحيده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أذل وأخضع ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آباءه، فأمر أن يقول هذا.

(١) الزيادة من الصحاح للجوهري لا يتم الكلام إلا بها.

(٢) راجع ٢٢٣/٧ طبعة أولى أو ثانية. و ١٣٦/١ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٣) مضى هذا الكلام للمصنف في تفسير الفاتحة ١٣٦/١ فليراجع هناك لا في البقرة ولعل ما في الأصل تحريف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي أطفالاً. وقد تقدّم هذا^(١). ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وهي حالة اجتماع القوة وتمام العقل. وقد مضى في ﴿الأنعام﴾^(٢) بيانه. ﴿ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بضم الشين قراءة نافع وابن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فَعَلَ، نحو: قَلْبٌ وَقُلُوبٌ ورَأْسٌ ورُؤُوسٌ. وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة، وفي العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة في الياء ثقيلة. وقرئ ﴿شَيْخًا﴾ على التوحيد؛ كقوله ﴿طِفْلاً﴾ والمعنى كل واحد منكم؛ وأقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس. وفي «الصحاح»: جمع الشيخ شُيوخ وأشياخ وشيخة وشيخان ومشيخة ومشايع ومشيوخاء والمرأة شَيْخة. قال عبيد^(٣):

كَأَنَّهَا شَيْخَةٌ رَقُوبٌ^(٤)

وقد شاخ الرجلُ يَشِيخُ شَيْخًا بالتحريك على أصله وشَيْخُوخَةً، وأصل الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعْلُول. وشَيْخٌ تَشْيِيخًا أي شاخ. [وشَيْخَتُهُ]^(٥) دعوته شيخاً للتبجيل. وتصغير الشيخ شَيْيخٌ وشَيْيِخٌ أيضاً بكسر الشين ولا تقل شُويخ. النحاس: وإن أضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن في عين؛ لأنها مؤنثة. والشيخ من جاوز أربعين سنة. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ قال مجاهد: أي من قبل أن يكون شيخاً، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقْطاً. ﴿وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ قال مجاهد: الموت للكل. واللام لام العاقبة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره.

(١) راجع ١١/١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١٣٤/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) هو عبيد بن الأبرص.

(٤) الرقوب: التي ترقب ولدها خوف أن يموت. والبيت في وصف فرسه؛ وتامه:

بَسَاتَتْ عَلَى أَرَمٍ عَذُوبًا

(٥) الزيادة من كتب اللغة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة. ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ﴾ أي أراد فعله قال ﴿لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. ونصب ﴿فيكون﴾ ابن عامر على جواب الأمر. وقد مضى في البقرة^(١) القول فيه.

[٦٩] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يَصْرِفُونَ﴾.

[٧٠] ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

[٧١] ﴿إِذَا الْأَعْلَاقُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾.

[٧٢] ﴿فِي الْعَمِيرِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

[٧٣] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

[٧٤] ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

[٧٥] ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

[٧٦] ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا نَفَسَا ثَمَوَى الْمُتَنَكِّرِينَ﴾.

[٧٧] ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَاِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

[٧٨] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يَصْرِفُونَ﴾ قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾. وقال أكثر المفسرين: نزلت في القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية

فلا أدري فيمن نزلت. قال أبو قبيل: لا أحسب المكذبين بالقدر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا. وقال عقبة بن عامر: قال النبي ﷺ: «نزلت هذه الآية في القدرية» ذكره المهدي.

قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغلّت أيديهم إلى أعناقهم. قال التيمي: لو أن غلاً من أغلال جهنم وضع على جبل لو حصه حتى يبلغ الماء الأسود. ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفاً على الأغلال. قال أبو حاتم: «يُسْحَبُونَ» مستأنف على هذه القراءة. وقال غيره: هو في موضع نصب على الحال، والتقدير ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ مسحوبين. وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ بالنصب «يُسْحَبُونَ» بفتح الياء والتقدير في هذه القراءة ويسحبون السلاسل. قال ابن عباس: إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم. وحكي عن بعضهم ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ بالجر ووجهه أنه محمول على المعنى؛ لأن المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل؛ قاله الفراء. وقال الزجاج: ومن قرأ ﴿وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ بالخفض فالمعنى عنده وفي ﴿السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ قال ابن الأنباري: والخفض على هذا المعنى غير جائز، لأنك إذا قلت زيد في الدار لم يحسن أن تضمّر «في» فتقول زيد الدار، ولكن خفض جائز على معنى إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلال في تأويل الخفض؛ كما تقول: خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين. ويجوز رفعهما؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه؛ أنشد الفراء:

قد سألَمَ الحَيَّاتِ مِنْهُ الْقَدَمَا الْأَفْعَوَانَ وَالشُّجَاعَ الشُّجَعَمَا^(١)

فنصب الأفعوان على الاتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم. فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها. و﴿الحميم﴾ المتناهي في الحر. وقيل: الصديد المغلي. ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ

(١) الشجعم: الضخم من الحيات.

يُسْجَرُونَ ﴿١﴾ أي يطرحون فيها فيكونون وقوداً لها؛ قاله مجاهد. يقال: سجرت التنور أي أوقدته، وسجرت ملاته ومنه ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي المملوء. فالمعنى على هذا تملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وعلا:

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً تَرَى حَوْلَهَا التَّبَعِ وَالسَّمْسِمَا

أي عينا مملوءة. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ من ضلَّ الماء في اللين أي خفي. وقيل: أي صاروا بحيث لا نجدهم. ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ أي شيئاً لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع. وليس هذا إنكاراً لعبادة الأصنام، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بالمعاصي يقال لهم ذلك توبيخاً. أي إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة. وقيل إن فرحهم بما عندهم أنهم قالوا للرسول: نحن نعلم أننا لا نبعث ولا نعذب. وكذا قال مجاهد في قوله جل وعز: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾. ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: أي تبطرون وتأشرون. وقد مضى في ﴿سبحان﴾^(١) بيانه. وقال الضحاك: الفرح السرور والمرح العدوان. وروى خالد عن ثور عن معاذ قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغيض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغيض أهل بيت لَحْمِينَ ويبغيض كل حبر سمين»^(٢) فأما أهل بيت لَحْمِينَ فالذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة. وأما الحبر السمين فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه الناس؛ يعني المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس. ذكره الماوردي. وقد قيل في

(١) راجع ١٠/٢٦٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الحديث في النهاية «إن الله ليبغيض أهل البيت اللحمين».

اللَّحْمِ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ أَكْلَ اللَّحْمِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ: اتَّقُوا هَذِهِ الْمَجَازِرَ فَإِنَّ لَهَا ضَرَاوَةً^(١) كَضَرَاوَةِ الْخَمْرِ. ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ. وَالْأَوَّلُ قَوْلُ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ. ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أَيُ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾. ﴿فَيُشْرَبُونَ مِنْهُ مُتَجَبِّرِينَ﴾ تَقْدِمُ جَمِيعُهُ^(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاضِرِينَ إِنْ وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أَيُ إِنَّا لَنَنْتَقِمُ لَكَ مِنْهُمْ إِمَّا فِي حَيَاتِكَ أَوْ فِي الْآخِرَةِ. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فِي مَوْضِعٍ جَزَمَ بِالشَّرْطِ وَمَا زَائِدَةٌ لِلتَّوَكُّيدِ وَكَذَا النُّونُ وَزَالَ الْجَزْمُ وَبَنِيَ الْفِعْلُ عَلَى الْفَتْحِ. ﴿أَوْ نَتَوَقَّئَنَّكَ﴾ عَطَفَ عَلَيْهِ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ الْجَوَابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ عَزَاهُ أَيْضًا بِمَا لَقِيتَ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ. ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أَيُ أَبْنَانُكَ بِأَخْبَارِهِمْ وَمَا لَقُوا مِنْ قَوْمِهِمْ. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ أَيُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ أَيُ إِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمَسْمُومُ لِعَذَابِهِمْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، وَإِنَّمَا التَّأْخِيرُ لِإِسْلَامٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِسْلَامَهُ مِنْهُمْ، وَلَمَنْ فِي أَصْلَابِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: أَشَارَ بِهِذَا إِلَى الْقَتْلِ بِبَدْرٍ. ﴿فُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أَيُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْبَاطِلَ وَالشَّرْكَ.

[٧٩] ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَكُلُونَ﴾.

[٨٠] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

[٨١] ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيَةً أَيْدِي اللَّهِ تُنَكِّرُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: الْأَنْعَامُ هَاهُنَا الْإِبِلُ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَكُلُونَ﴾ فَاحْتِجَ مِنْ مَنَعَ مِنْ أَكْلِ الْخَيْلِ وَأَبَاحَ أَكْلَ الْجَمَالِ بَأَنَّ

(١) الضراوة في قول عمر العادة في النفس الطالبة لأكل اللحم، وهي حال ناشئة عن الاعتقاد.

(٢) راجع ٣٠/١٠ و ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية.

الله عز وجل قال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال في الخيل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولم يذكر إباحة أكلها. وقد مضى هذا في ﴿النحل﴾^(١) مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي تحمل الأثقال والأسفار. وقد مضى في ﴿النحل﴾^(٢) بيان هذا كله فلا معنى لإعادته. ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر. ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ نصب ﴿أَيَّا﴾ بـ ﴿تُنْكِرُونَ﴾؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في ﴿أَيَّ﴾ الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما أسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب؛ أي إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر.

[٨٢] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

[٨٣] ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

[٨٤] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

[٨٥] ﴿فَلَمَّ يَكْ يَنْفَعُهُمْ يُعْنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ أَلْقَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك أي أستشفعت

به إليك . وعلى هذا ﴿مَا﴾ للجحد أي فلم يغن عنهم ذلك شيئاً . وقيل : ﴿مَا﴾ للاستفهام أي أي شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا . ولم ينصرف ﴿أَكْثَرُ﴾ ؛ لأنه على وزن أفعل . وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شعر ولا غيره إذا كانت معه من . قال أبو العباس : ولو كانت من المانعة من صرفه لوجب ألا يقال : مررت بخير منك وشر [منك] و^(١) من عمرو .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات الواضحات . ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال . قال مجاهد : إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . وقيل : الذين فرحوا الرسل لما كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين ف ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنجاة المؤمنين ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي بالكفار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي عاينوا العذاب . ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ بالله عند معاناة العذاب وحين رأوا البأس . ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سنّ يسنّ سنّاً وسنّة ؛ أي سنّ الله عز وجل في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب . وقد مضى هذا مبيناً في ﴿النساء﴾^(٢) و ﴿يونس﴾^(٣) وأن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري . وقيل : أي أحذروا يا أهل مكة سنّة الله في إهلاك الكفرة ف ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ منصوب على التحذير والإغراء . ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بين لنا الخسران لما رأوا العذاب . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أي ﴿لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ كسنتنا في جميع الكافرين ف ﴿سُنَّةَ﴾ نصب بنزع الخافض أي كسنة الله في الأمم كلها . والله أعلم . تم تفسير سورة ﴿غافر﴾ والحمد لله .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٢) راجع ٩٢/٥ وما بعدها طبعه أولى أو ثانية . (٣) راجع ٣٨٤/٨ طبعه أولى أو ثانية .

سورة فصلت مكية في قول الجميع

وهي أربع وخمسون، وقيل: ثلاث وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿حَمْدٌ﴾.

[٢] ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

[٣] ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ فَأَنَا عَرَبِيٌّ أَتَقُولُ بِمَعْلُومٍ﴾.

[٤] ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

[٥] ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنْ أَذَانُنَا وَقَدْ أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ حِجَابٌ

فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾.

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال الزجاج: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ﴾ وهذا قول البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال ﴿كِتَابٌ﴾ بدل من قوله: ﴿تَنْزِيلٌ﴾. وقيل: نعت لقوله: ﴿تَنْزِيلٌ﴾. وقيل: ﴿حَمْدٌ﴾ أي هذه ﴿حَمْدٌ﴾ كما تقول باب كذا أي هو باب كذا فـ ﴿حَمْدٌ﴾ خبر ابتداء مضمّر أي هو ﴿حَمْدٌ﴾ وقوله ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مبتدأ آخر وقوله ﴿كِتَابٌ﴾ خبره. ﴿فُصِّلْتَ آيَاتُهُ﴾ أي بينت وفسرت. قال قتادة: بيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب. وقرئ ﴿فُصِّلْتَ﴾ أي فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك فصل أي تباعد من البلد. ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ في نصبه وجوه؛ قال الأخفش: هو نصب على المدح. وقيل: على إضمار فعل أي أذكر ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وقيل: على إعادة الفعل أي فصلنا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وقيل: على الحال أي ﴿فُصِّلْتَ آيَاتُهُ﴾ في حال كونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وقيل: لما شغل ﴿فُصِّلْتَ﴾ بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل أنتصب. ﴿قُرْآنًا﴾ لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع. ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الضحاك: أي إن

القرآن منزل من عند الله. وقال مجاهد: أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربي لما علموه.

قلت: هذا أصح والسورة نزلت تقرّيعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات والعامل فيه ﴿فصلت﴾. وقيل: هما نعتان للقرآن ﴿بَشِيرًا﴾ لأولياء الله ﴿نَذِيرًا﴾ لأعدائه. وقرىء ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به. وروي أن الريان بن حرملة قال: قال الملا من قريش وأبو جهل قد ألتبس علينا أمر محمد، فلو ألتستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلّمه ثم أتنا ببيان من أمره؛ فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى عليّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدّثه. فأتى النبي ﷺ فقال له: يا محمد! أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهمنا، وتفضل آبائنا، وتسفه أحلامنا، وتذم ديننا؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباء زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو تغلب فيك. والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فرغت يا أبا الوليد» قال: نعم. [قال فأسمع مني]^(١) قال يا بن أخي أسمع [قال] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمَّ. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله والرحم ليسكتن، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام.

أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد تعلمون أنني من أكثر قريش مالا، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِثْلَ صَاعِقَةٍ عَادٍ وَاثْمُودَ﴾ وأمسكت فيه ونأشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب؛ يعني الصاعقة. وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ ﴿حَمَّ﴾ فَصَلَّتْ حتى أنتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغٍ يستمع، قد أعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسول الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد قد سمعت الذي قرأت عليك فأنت وذاك» فانصرف عتبة إلى قريش في نادية فقالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم. ثم قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله لقد سمعت كلاماً من محمد ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلوا محمداً وشأنه وأعتزلوه، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كُفَيْتُمُوهُ بأيدي غيركم، وإن كان ملكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به؛ لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم. فقالوا: هيهات! سحرك محمد يا أبا الوليد. وقال هذا رأيي لكم فأصنعوا ما شئتم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ الأكنة جمع كنان وهو الغطاء. وقد مضى في ﴿البقرة﴾^(١). قال مجاهد: الكنان للقلب كالجنة للنبل. ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا، وقلوبنا مستورة عن فهمه. ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي خلاف في الدين؛ لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل. قال معناه الفراء وغيره. وقيل: ستر مانع عن الإجابة. وقيل: إن أبا جهل أستغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد بيننا وبينك حجاب. أستهزاء منه. حكاه النقاش وذكره القشيري. فالحجاب هنا

الثوب. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أي أعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: أعمل لإلهك الذي أرسلك، فإننا نعمل لآلهتنا التي نعبدوها. وقيل: أعمل بما يقتضيه دينك، فإننا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامساً^(١): فأعمل لآخرتك فإننا نعمل لدينانا؛ ذكره الماوردي.

[٦] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَذَلَّ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

[٧] ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ﴾.

[٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي لست بملك بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علمه الله تعالى التواضع. ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي من السماء على أيدي الملائكة ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿ف﴾ آمنوا به و ﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: أستقم إلى منزلك؛ أي لا تعرج على شيء غير القصد إلى منزلك. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي من شرككم. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدون «أن لا إله إلا الله» وهي زكاة الأنفس. وقال قتادة: لا يقرون بالزكاة أنها واجبة. وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة. قرَّعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفيه دلالة على أن الكافر يعذَّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه. وقال الفراء وغيره: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحبيج ويطعمونهم، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فهذا لا ينفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون.

(١) لم يذكر المصنف إلا أربعة أقوال ولعل الخامس ما ذكره الكشاف: «فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك».

الزمخشري: فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته [واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته] ^(١) ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي يثبتون أنفسهم، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظة ^(٢) من الدنيا، فقويت عصبيتهم ولانت شكيمتهم؛ وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحروب وجوهدا. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته؛ ومنه قول ذي الإصبع: إنني لعمرك ما بابي يذي غلّقي على الصديق ولا خيري بممنون ^(٣) وقال آخر:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْدِ عِ مَنِئاً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

يعني بالمئين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: غير منقوص. ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص منه الإنسان أي قوته؛ وقاله قطرب؛ وأنشد قول زهير:

فَضَلَ الْجِيَادُ عَلَى الْخَيْلِ الْبِطَاءُ فَلَا يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَزَقًا ^(٤)

قال الجوهري: والمنّ القطع، ويقال النقص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لبيد:

عَبَسَ كَوَاسِبُ لَا يُمَرُّ طَعَامُهَا ^(٥)

(١) الزيادة من تفسير الزمخشري. (٢) اللمظة في اللغة: النكته من بياض أو سواد، والمراد بها هنا الشيء اليسير من حطام الدنيا. (٣) ويروى: ولا زادي بممنون.

(٤) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان. (٥) صدر البيت:

لمعفر قهـد تنازع شلوه

وقد وقع هذا البيت غلطاً في بعض نسخ الجوهري فراجع تحقيقه في اللسان مادة «من».

وقال مجاهد: ﴿عَبْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير محسوب. وقيل: ﴿عَبْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم به. قال السدي: نزلت في الرَّمْنَى والمَرْضَى والهَزْمَى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

[٩] ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

[١٠] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾.

[١١] ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

[١٢] ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ بهمزيين الثانية بين بين و ﴿أَنتُمْ﴾ بآلف بين همزتين وهو أستفهام معناه التوبيخ. أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم، أي لم تكفروا بالله وهو خالق السموات والأرض؟! ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والاثنين. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي أضداداً وشركاء ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. قال وهب: لما خلق الله الأرض مادته على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثَبَّتْهَا يا جبريل. فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب أنت أعلم لقد غُلِبَتْ فيها فثبتها بالجبال وأرساها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك؛ معنى ﴿قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من

التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابري من سابور والطيالسة من الرّي والجبر اليمانية من اليمن. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في تنمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً؛ أي في تنمة خمسة عشر يوماً. قال معناه ابن الأنباري وغيره. ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة. الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى؛ وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين. وأختره الطبري. وقرأ الحسن البصري ويعقوب الحضرمي ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ بالجر. وعن ابن القعقاع ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرفع؛ فالنصب على المصدر و﴿سَوَاءٌ﴾ بمعنى استواء أي استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ مستوية تامة. والرفع على الابتداء والخبر ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أو على تقدير هذه ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾. وقال أهل المعاني: معنى ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ ولغير السائلين أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل؛ ويعطي من سأل ومن لا يسأل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وقد مضى القول هناك^(١). وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني صعد أمره إلى السماء؛ وقاله الحسن. ومن قال: إنه صفة ذاتية زائدة قال أستاذ في الأزل بصفاته. و﴿ثُمَّ﴾ ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس؛ على ما مضى في ﴿البقرة﴾ عن ابن مسعود وغيره. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ أي جيئتا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجها لخلقها. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك.

(١) راجع ٢٥٤/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

وقمرك وكواكبك، وأجري رياحك وسحابك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وفي الكلام حذف أي أتينا أمرك ﴿طَائِعِينَ﴾. وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي كونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور. وفي قوله تعالى لهما وجهان؛ أحدهما - أنه قول تكلم به. الثاني - أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد؛ ذكره الماوردي. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فيه أيضاً وجهان؛ أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث أنقادا وأجابا فقام مقام قولهما؛ ومنه قول الرازي:

أَمْتَلًا الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي مَهْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلَأَتْ بَطْنِي

يعني ظهر ذلك فيه. وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نصر السكسكي: فنطق من الأرض موضع الكعبة، ونطق من السماء ما بحياها، فوضع الله تعالى فيه حرمه. وقال: ﴿طَائِعِينَ﴾ ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون؛ لأنه أخبر عنهما وعن فيهما. وقيل: لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل، ومثله ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وقد تقدّم^(١). وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما ﴿أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ عصياك ما كنت صانعا بهما؟ قال: كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما. قال: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي. قال: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال: علم من علمي. ذكره الثعلبي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ﴿أَتَيْنَا﴾ بالمد والفتح. وكذلك قوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما ﴿قَالَتَا﴾ أعطينا ﴿طَائِعِينَ﴾ فحذف المفعولين جميعاً. ويجوز وهو أحسن أن يكون ﴿أَتَيْنَا﴾ فاعلنا فحذف مفعول واحد. ومن قرأ ﴿أَتَيْنَا﴾ فالمعنى جئنا بما فينا؛ على ما تقدّم بيانه في غير ما موضع والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي أكملهن وفرغ منهن.
وقيل: أحكمهن كما قال^(١):

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَعُّ

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ على ما تقدّم في ﴿الأعراف﴾^(٢) بيانه. قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون. وعن عبد الله بن سلام قال: خلق الله الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين، وخلق السموات في يومين؛ خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السموات في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخر ساعة في يوم الجمعة خلق الله آدم في عجل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله التُّرْبَةَ يوم السبت» الحديث وقد تكلمنا على إسناده في أول سورة ﴿الأنعام﴾^(٣). ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وخلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد والثلوج. وهو قول ابن عباس؛ قال: والله في كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي أوحى فيها ما أرادته وما أمر به فيها. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿يَأْنِ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي أمرتهم وهو أمر تكوين. ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي بكواكب تضيء. وقيل: إن في كل سماء كواكب تضيء. وقيل: بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها حفظاً؛ أي من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي. والصنع بفتح الحاء.

(٢) راجع ٢١٩/٧ طبعة أولى أو ثانية. (٣) راجع ٣٨٤/٦ طبعة أولى أو ثانية.

الحفظ بالكواكب التي ترجم بها الشياطين على ما تقدّم في ﴿الحجر﴾^(١) بيانه . وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء . وقال في آية أخرى : ﴿أَمْ السَّمَاءُ بُنَاهَا﴾ ثم قال : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وهذا يدل على خلق السماء أولاً . وقال قوم : خلقت الأرض قبل السماء ؛ فأما قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فالدحو غير الخلق ، فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أي مدها وبسطها ؛ قاله ابن عباس . وقد مضى هذا المعنى مجوداً في ﴿البقرة﴾^(٢) والحمد لله . ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

[١٣] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

[١٤] ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

[١٥] ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ .

[١٦] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى لَكِنَّا لَا نَبْصُرُ الْغُفَى﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان . ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي خوفتكم هلاكاً مثل هلاك عاد وثمود . ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني من أرسل إليهم وإلى من قبلهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ موضع ﴿أَنْ﴾ نصب بإسقاط الخافض أي بـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ و ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ بدل الرسل ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير . قيل : هذا استهزاء منهم . وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

(١) راجع ١٠/١٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ٢٥٥/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿وَبَغْيِرَ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾^(١) عن ابن عباس: أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقدرة، وإنما يقدر العبد بإقدار الله فالله أقدر إذا. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب. ويقال: أصلها صَرَّر من الصَّر [وهو البَرْد]^(٢) فأبدلوا مكان الرء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم كَبَّكَبُوا أصله كَبَّيُوا وَتَجَفَّجَفَ الثوبُ أصله تَجَفَّفَ. أبو عبيدة: معنى صَرَصَر شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جبير: شديدة البرد. وأنشد قطرب قول الحطيئة:

المُطْعِمُونَ إِذَا هَبَّتْ بِصَرْصَرَةٍ
والحَامِلُونَ إِذَا اسْتَوْدُوا عَلَى النَّاسِ

استودوا إذا سئلوا الدية. مجاهد: الشديدة السموم. وروى معمر عن قتادة قال: باردة. وقاله عطاء؛ لأن ﴿صَرْصَراً﴾ مأخوذ من صَرَّ والصَّرَّ في كلام العرب البرد^(٣) كما قال:

لَهَا عُذْرٌ كَفَرُونَ النَّاسِ
رُكْبَنٌ فِي يَوْمٍ رِيحٍ وَصَرٍّ

وقال السدي: الشديدة الصوت. ومنه صَرَّ القلم والباب يَصِرُ صَريراً أي صَوْت. ويقال: درهم صَرِيٌّ وصَرِيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد. قال ابن السكيت: صَرْصَر يجوز أن يكون من الصَّر وهو البرد، ويجوز أن يكون من صَرِير الباب، ومن الصَّرَّة وهي الصيحة ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾. وصَرْصَر أسم نهر بالعراق. ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أي مشؤومات؛

(١) راجع ٢٣٦/٧ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الزيادة من اللسان عن ابن السكيت لأن هذا الكلام له. (٣) هو أمرؤ القيس يصف فرسه.

قاله مجاهد وقتادة. كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال ابن عباس: ما عُدُّب قوم إلا في يوم الأربعاء. وقيل: ﴿نَحِسَاتٍ﴾ باردات؛ حكاها النفاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية الضحاك: شداد. وقيل: ذات غبار، حكاها ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قَدْ اغْتَدَى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِلضَّيْدِ فِي يَوْمٍ قَلِيلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودرّت الرياح عليهم في غير مطر، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم، وكلهم مُعَظَّم لمكة، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى. وقال جابر بن عبد الله والتميمي: إذا أراد الله بقوم خيراً أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد الله بقوم شراً حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿نَحِسَاتٍ﴾ بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذي هو مصدر وصف به. الباقون ﴿نَحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء أي ذوات نحس. ومما يدل على أن النحس مصدر قوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ ولو كان صفة لم يصف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته؛ وأختره أبو حاتم. وأختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال: لا تصح حجة أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حجة لو نَوَّن اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه. وقال المهدوي: ولم يسمع في ﴿نَحْسٍ﴾ إلا الإسكان. قال الجوهري: وقرئ في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ على الصفة، والإضافة أكثر وأجود. وقد نَحِسَ الشيء بالكسر فهو نَحْسٌ أيضاً؛ قال الشاعر:

أَبْلَغُ جَذَامًا وَلِخَمًا أَنْ إِخْوَتَهُمْ طَيًّا وَبِهَرَاءِ قَوْمٍ نَصَرَهُمْ نَحْسٌ

ومنه قيل: أيام نَحِسَاتٍ. ﴿لِنَذِيقَهُمْ﴾ أي لكي لنذيقهم ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أي أعظم وأشدّ ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

[١٧] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧).

[١٨] ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي بينا لهم الهدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالنصب وقد مضى الكلام فيه في ﴿الأعراف﴾^(١). ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ ﴿الهُونِ﴾ بالضم الهوان. وهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر أخو كنانة وأسد. وأهانته أستخف به. والاسم الهوان والمهانة. وأضيف الصاعقة إلى العذاب؛ لأن الصاعقة أسم للمبيد المهلك، فكأنه قال مهلك العذاب؛ أي العذاب المهلك. والهون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علم اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهون اسماً مثل الدون؛ يقال: عذاب هون أي مهين؛ كما قال: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. وقيل: أي صاعقة العذاب ذي الهون. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة، على ما تقدم. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني صالحاً ومن آمن به؛ أي ميزناهم عن الكفار، فلم يحلّ بهم ما حلّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم.

[١٩] ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩).

[٢٠] ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَ عَنِّيهِمْ سَمْعُهُمْ وَبَصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠).

[٢١] ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ﴾ (٢١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع ﴿نُخْشَرُ﴾ بالنون ﴿أَعْدَاءُ﴾ بالنصب. الباقر ﴿يُخْشَرُ﴾ بياء مضمومة ﴿أَعْدَاءُ﴾ بالرفع ومعناها بين. وأعداء الله الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يساقون ويدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدة بدىء بالأكابر فالأكابر جرماً. وقد مضى في النمل^(١) الكلام في ﴿يُوزَعُونَ﴾ مستوفى.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ ﴿مَا﴾ زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء: أراد بالجلود الفروج؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جؤية:

المـرءُ يسـعى لـلـسـلا مة والسـلامـة حـسـبه^(٢)
أوسـالـم مـن قـد تـث نئى جـلدـه وأبـيـض رأسـه

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفاً، فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداء كلام من الله. ﴿وَاللَّهِ تَزَجُّعُونَ﴾ وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه فيقال لأركانه أنطقي فتنتطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول بعداً لكن وسخفاً فعنكن كنت أناضل» وفي حديث أبي هريرة ثم يقال: «الآن نبعث شاهدنا

(١) راجع ١٦٧/١٣ وما بعدها طبعة أولى وثانية.

(٢) كذا في «الأصول»، ولم نعر على هذين البيتين.

عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه] ^(١) أنطقي فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه ^(٢) وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه» خرجه أيضاً مسلم.

[٢٢] ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورِهِمْ فَذَلَّ الَّذِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسُ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم؛ ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة. وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود قال: أجمع عند البيت ثلاثة نفر؛ قرشيان ونقفَي أو نقفيان وقرشي؛ قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا؛ وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ﴾ الآية؛ خرجه الترمذي فقال: أختصم عند البيت ثلاثة نفر. ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال: حديث حسن صحيح؛ حدثنا هناد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمار بن عُمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال قال عبد الله: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة

(١) الزيادة من «صحيح مسلم».

(٢) ليُعذر من نفسه: على بناء الفاعل من الإعذار؛ والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه، ولشهادة أعضائه عليه، بحيث لم يبق له عذر. «هامش مسلم».

نفر كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم قرشي وختناه ثقفيان، أو ثقفى وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه؛ فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله؛ فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الثعلبي: والثقفى عبد ياليل وختناه ربيعة وصفوان بن أمية. ومعنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستخفون في قول أكثر العلماء؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عمله، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي تظنون ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ بأن يقول سمعت الحق وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي ﴿وَلَا أَبْصَارُكُمْ﴾ فتقول رأيت آيات الله وما أعتبرت ونظرت فيما لا يجوز ﴿وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ تقدم. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم. روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تدعون يوم القيامة مُقَدِّمَةً أفواهكم بفدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذوه وكفه» قال عبد الله بن عبد الأعلى^(١) الشامي فأحسن:

وَتَقَالُ عَشْرَاتُ الْفَتَى فَيَعُودُ	الْعُمْرُ يَنْقُصُ وَالذُّنُوبُ تَزِيدُ
رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُودُ	هَلْ يَسْتَطِيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ
تَقْلِيلُهَا وَعَنِ الْمَمَاتِ يَحِيدُ	وَالْمَرْءُ يَسْأَلُ عَنْ سِنِيهِ فَيَسْتَهْيِي

(١) كذا في «الأصول» وفي كتاب «أدب الدنيا والدين»: عبد الأعلى بن عبد الله الشامي.

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال : « ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يا بن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غداً عليك شهيد فاعمل في خيراً أشهد لك به غداً فإنني لو قد مضيت لم ترني أبداً ويقول الليل مثل ذلك » ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة» في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال . وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أَمْسُكَ الْأَذْنَى شَهِيداً مُعَدَّلاً وَيَوْمُكَ هَذَا بِالْفِعَالِ شَهِيدُ
فَإِنْ تَكُ بِالْأَمْسِ أَفْتَرَفْتَ إِسَاءَةً فَتَنْ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
وَلَا تُرْجِ فِعْلَ الْخَيْرِ مِنْكَ إِلَى غَدٍ لَعَلَّ غَدَاً يَأْتِي وَأَنْتَ قَبِيدُ

قوله تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي أهلككم فأوردكم النار . قال قتادة : الظن هنا بمعنى العلم . وقال النبي ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً أساءوا الظن بربهم فأهلكهم » فذلك قوله : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ . وقال الحسن البصري : إن قوماً ألهمهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . وقال قتادة : من أستطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن أثنان ظن ينجي وظن يردى . وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَصْْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مَثْوًى لهم . نظيره ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ على ما ^(١) تقدم . ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ . وقيل : المعنى ﴿فَإِنْ يَصْْبِرُوا﴾

في النار أو يجزعوا ﴿فَالثَّأُرُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾؛ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة:

فإن أكَ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وإن تَكُ ذا عُتْبَى فَمِثْلَكَ يُعْتَبُ

أي مثلك مَنْ قَبِلَ الصلح والمراجعة إذا سُئِلَ. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة. تقول: عاتبته معاتبه، وبينهم أُعْتُوبَة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب. وأعتبني فلان إذا عاد إلى مَسَرَّتِي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه العُتْبَى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب. وأستعبت وأعتب بمعنى، وأستعبت أيضاً طلب أن يُعْتَبَ؛ تقول: أستعبتني فأعتبني أي أسترصيته فأرضاني. فمعنى ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار. وفي «التفاسير»: وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين. وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية ﴿وَإِنْ يُسْتَغِيثُوا﴾ بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُغْتِيثِينَ﴾ بكسر التاء أي إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِمَا سبق لهم في علم الله من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ذكره الهروي. وقال ثعلب: يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضي.

قوله تعالى: ﴿وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ قال النقاش: أي هيأنا لهم شياطين. وقيل: سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضاً؛ أي سببنا لهم قرناء؛ يقال: قَيِّضَ الله فلاناً لفلان أي جاء به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾. القشيري: ويقال قَيِّضَ الله لي رزقاً أي أتاحه كما كنت أطلبه، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة، قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع، وهما قَيِّضَان كما تقول بَيَّعَان. ﴿فَرِئْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا فحسّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ حسّنوا لهم ما بعد مماتهم ودعّوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى ﴿قَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ في النار ﴿فَرِئْنَا لَهُمْ﴾ أعمالهم في الدنيا؛ والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم. وقيل: المعنى أحوجناهم إلى الأقران؛ أي أحوجنا

الفقير إلى الغني لينال منه، والغني إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصي. وليس قوله: ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ عطفاً على ﴿مَا بَيَّنَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار. قال ابن عباس: ﴿مَا بَيَّنَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ تكذيبهم بأمور الآخرة ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ التسويف والترغيب في الدنيا. الزجاج: ﴿مَا بَيَّنَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ ما عملوه ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ ما عزموا على أن يعملوه. وقد تقدم قول مجاهد. وقيل: المعنى لهم مثل ما تقدم من المعاصي ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ ما يعمل بعدهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ أي وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم. وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه. وقيل: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أُمَم، ومثله قول الشاعر^(١).

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَا فُوكَا فَيَا آخِرِينَ قَدْ أَفَكُوا

يريد فانت في جملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل ﴿فِي أُمَمٍ﴾ النصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي حق عليهم القول كائنين في جملة أُمَم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

[٢٦] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

[٢٧] ﴿فَلَنَذِقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[٢٨] ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الثَّائِرِينَ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً يَمْكُنُ أَنْ يَنْصِبُوا إِلَيْنَا جَنَّةً﴾.

[٢٩] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فَنَجْعَلُهُمُ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾. وقيل: معنى ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾ لا تطيعوا؛ يقال سمعت لك أي أطعتك. ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ قال ابن عباس: قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن. وقال مجاهد: المعنى ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ بالمكاء والتصفيق والتخليط في المنطق حتى يصير لغواً. وقال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قعوا فيه وعيروه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب. وقرأ عيسى بن عمر والجحدري وابن أبي إسحق وأبو حيوة وبكر بن حبيب السهمي ﴿وَالْغَوْا﴾ بضم الغين وهي لغة من لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى. قال الهروي: وقوله ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ قيل؛ عارضوه بكلام لا يفهم. يقال: لغوت الغو وألغى ولغني يَلْغَى ثلاث لغات. وقد مضى معنى اللغو في ﴿البقرة﴾^(١) وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَذِقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدم أن الذوق يكون محسوساً، ومعنى العذاب الشديد ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذاب في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء قبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا وأسوأ الأعمال الشرك.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد ثم بينه بقوله ﴿النَّارُ﴾. وقرأ ابن عباس ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ﴾ فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية. و ﴿ذَلِكَ﴾ ابتداء و ﴿جَزَاءُ﴾ الخبر و ﴿النَّارُ﴾ بدل من ﴿جَزَاءُ﴾ أي خبر مبتدأ مضمرة والجملة في موضع بيان للجملة الأولى.

(١) راجع ٩٩/٣ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني في النار فذكره بلفظ الماضي والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني إبليس وأبن آدم الذي قتل أخاه. عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع: «ما من مسلم يقتل ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذنبه لأنه أول من سنّ القتل». خرجته الترمذي. وقيل: هو بمعنى الجنس وبني على التثنية لاختلاف الجنسين. ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدرك الأسفل سألوا أن يُضَعَّفَ الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس. وقرأ ابن محيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل ﴿أَرْنَا﴾ بإسكان الراء وعن أبي عمرو أيضاً باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدّم في ﴿الأعراف﴾^(١).

[٣٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا

وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

[٣١] ﴿تَمَحَّنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾

[٣٢] ﴿تُزَلَّازِمْنَ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعائنا عند الله فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد ﷺ عبده ورسوله فاستقام. وفي الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: «قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن استقام» قال: حديث غريب. ويروى في هذه الآية عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ معنى ﴿اسْتَقَامُوا﴾؛ ففي «صحيح مسلم»

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية - غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» زاد الترمذي قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ. فأخذ بلسان نفسه وقال: «هذا». وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» لم يشركوا بالله شيئاً. وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» و«الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» فقالوا: استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المحمل «قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» فلم يلتفتوا إلى إله غيره «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ» «أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ». وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» فقال: استقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا وروغان الثعالب. وقال عثمان رضي الله عنه: ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي رضي الله عنه: ثم أدوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته وأجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفضيل بن عياض: زهدوا في الفانية ورجعوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً. وقيل: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وقال أنس لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «هم أمتي ورب الكعبة». وقال الإمام ابن فورك: السين سين الطلب مثل استسقى أي سألوا من الله أن يشبهم على الدين. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم أنت ربنا فأرزقنا الاستقامة.

قلت: وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها؛ أعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً وداموا على ذلك. «تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بشرى تكون لهم من

الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وأبن زيد: البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أي بـ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على أولادكم فإن الله خليفكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم. وقال عكرمة: ولا تخافوا أمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبكم. ﴿وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة الذين تنزل عليهم بالبشارة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ قال مجاهد: أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة. وقال السدي: أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى؛ والله وليي المؤمنين ومولاهم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أي من الملاذ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ تسألون وتتمنون. ﴿نَزْلًا﴾ أي رزقاً وضيافة. وقد تقدم في ﴿آل عمران﴾^(١) وهو منصوب على المصدر أي أنزلناه نزلاً. وقيل: على الحال. وقيل: هو جمع نازل أي لكم ما تدعون نازلين فيكون حالاً من الضمير المرفوع في ﴿تَدْعُونَ﴾ أو من المجرور في ﴿لَكُمْ﴾.

[٣٣] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

[٣٤] ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

[٤٥] ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

[٣٦] ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هذا توبيخ للذين تواصلوا باللغو في القرآن. والمعنى أي كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن هو رسول الله ﷺ وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه. وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المؤذنين. قال فضيل بن رفيدة: كنت مؤذناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة إذا أدّنت فقلت: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقل وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية؛ قال ابن العربي: والأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا بأنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصديق حين قال في النبي ﷺ وقد خنقه الملحون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان.

قلت: وقول ثالث وهو أحسنها؛ قال الحسن: هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ صلى وصام. وقال الكلبي: أدى الفرائض.

قلت: وهذا أحسنها مع اجتناب المحارم وكثرة المندوب. والله أعلم. ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال ابن العربي: وما تقدم يدل على الإسلام، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص، دل على أنه لا بدّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كله، وأن العمل لوجهه.

مسألة - لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له أشرت إن شاء الله، كان في ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: ﴿لَا﴾ صلة أي ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ والسيئة وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسول الله فِعْلَهُمْ والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمر؛ أي لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد وما المشركون عليه من الشرك. قال ابن عباس: الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك. وقيل: الحسنة الطاعة والسيئة الشرك. وهو الأول بعينه. وقيل: الحسنة المداراة والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنة العفو والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم والسيئة الفحش. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الحسنة حب آل الرسول والسيئة بغضهم.

قوله تعالى: ﴿أَذْفَعُ بِالنَّارِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ نسخت بآية السيف وبقي المستحب من ذلك؛ حسن العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي أذفع بحلمك جهل من يجهل عليك. وعنه أيضاً: هو الرجل يسب الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يروى في الأثر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال ذلك لرجل نال منه. وقال مجاهد: ﴿بِالنَّارِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني السلام إذا لقي من يعاديه؛ وقاله عطاء. وقول ثالث ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في الأحكام وهو المصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يذهب الغل». ولم ير مالك المصافحة، وقد أجمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان: قد صافح رسول الله ﷺ جعفرًا حين قدم من أرض الحبشة؛ فقال له مالك: ذلك خاص. فقال له سفيان: ما خصَّ رسول الله ﷺ يخصُّنا، وما عمَّه يعمُّنا، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها. وقد روى قتادة قال قلت لأنس: هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديث صحيح. وفي الأثر: «من تمام المحبة الأخذ باليد». ومن حديث محمد بن إسحق وهو إمام مقدّم، عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، ففرع الباب فقام إليه رسول الله ﷺ عرياناً يجر ثوبه - والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده - فأعتنقه وقبله.

قلت: قد روي عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء. وقد مضى ذلك في «يوسف»^(١) وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أقيت ذنوبهما بينهما».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مؤذياً للنبي ﷺ، فصار له وليا بعد أن كان عدواً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار ولياً في الإسلام حميماً بالقرابة. وقيل: هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه؛ ذكره الماوردي. والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبل الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم. وروي أن رجلاً شتم قنبراً مولى علي بن أبي طالب فناداه عليّ يا قنبراً! دع شاتمك، وآله عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان، وتعاقب شاتمك، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكْرُماً أَضَرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُ

وقال آخر:

وَمَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَى سَفِيهِ إِذَا سَبَّ الْكَرِيمَ مِنَ الْجَوَابِ
مُتَارَكَةُ السَّفِيهِ بِلا جوابٍ أَشَدُّ عَلَى السَّفِيهِ مِنَ السَّبَابِ

وقال محمود الوراق^(٢):

سَأَلَرِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ لَدَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مَقَاوِمُ

(١) راجع ٢٦٦/٩ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الأبيات التالية معزوة في كتاب «أدب الدنيا والدين» ص ٢٥٢ طبع وزارة المعارف إلى الخليل بن

فَأَمَّا الَّذِي فَزَعْنِي فَاعْرِفْ قَدَرَهُ وَأَتَّبِعْ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَزِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ إِجَابَتِهِ عِزُّي وَإِنْ لَمْ لَائِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْفَضْلَ بِالْجِلْمِ حَاكِمٌ
﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ بكظم
الغيظ وأحتمال الأذى. ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي نصيب وافر من الخير؛
قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم
حظ قط دون الجنة. وقيل: الكناية في ﴿يُلْقَاهَا﴾ عن الجنة أي ما يلقاها إلا
الصابرون؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ تقدم في آخر ﴿الأعراف﴾^(١)
مستوفى. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من كيدِهِ وشره ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿الْعَلِيمُ﴾
بأفعالك وأقوالك.

[٣٧] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
يَسْتَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي
أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وقد مضى في غير موضع^(٢). ثم نهي عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا
خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما في أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله؛ لأن خالقهما هو الله

(١) راجع ٣٤٧/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١٩٢/٢ وما بعدها طبعة ثانية.

ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما. ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ وصورهنّ وسخرهنّ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصة؛ لأن الاثنين جمع. وقيل: الضمير عائد على معنى الآيات ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءُ تَعْبُدُونَ﴾ وإنما أنت على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل. ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي لا يملون عبادته. قال زهير:

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُرُ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمُ

مسألة - هذه الآية آية سجدة بلا خلاف؛ وأختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصل بالأمر. وكان عليّ وأبن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله ﴿تَعْبُدُونَ﴾. وقال ابن وهب والشافعي: موضعه ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله ﴿يَسْأَمُونَ﴾. وقال ابن عمر: أسجدوا بالآخرة منها. وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وإبراهيم النَّخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب، وطلحة وزبيد اليامي^(١) والحسن وأبن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: ﴿يَسْأَمُونَ﴾ قال ابن العربي: والأمر قريب.

مسألة - ذكر ابن خُوَيزِمَنْدَاد: إن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العرب كانت تقول: إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم، فصلى النبي ﷺ صلاة الكسوف.

قلت: صلاة الكسوف ثابتة في «الصحاح البخاري ومسلم» وغيرهما. وأختلفوا في کیفیتها أختلافاً كثيراً؛ لاختلاف الآثار، وحسبك ما في «صحيح مسلم» من ذلك، وهو العمدة في الباب. والله الموفق للصواب.

(١) هذه النسبة إلى يامة بطن من همدان.

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخطاب لكل عاقل أي ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على أنه يحيي الموتى ﴿ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ أي يابسة جدبة ؛ هذا وصف الأرض بالخشوع ؛ قال النابغة :

رَمَادٌ كَكُخْلِ الْعَيْنِ لِأَيِّ أُمْنِيَّةٍ وَنَوْيٍ كَجِذْمِ الْحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعٌ^(١)

والأرض الخاشعة الغبراء التي تنبت . وبلدة خاشعة . أي مغبرة لا منزل بها . ومكان خاشع . ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أي بالنبات ؛ قاله مجاهد . يقال : اهتز الإنسان أي تحرك ؛ ومنه :

تَرَاهُ كَنَضْلِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ أَمْرِي السَّوْءَ مَطْمَعًا

﴿ وَرَبَّتْ ﴾ أي أنتفخت وعلت قبل أن تنبت ؛ قاله مجاهد . أي تصعدت عن النبات بعد موتها . وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت واهتزت . والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض ؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض ؛ فربوها أرتفاعها . ويقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية ؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً . وقرأ أبو جعفر وخالد ﴿ وَرَبَّاتٌ ﴾ ومعناه عظمت من الريثة . وقيل ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أي استبشرت بالمطر ﴿ وَرَبَّتْ ﴾ أي أنتفخت بالنبات . والأرض إذا أنشقت بالنبات وصفت بالضحك ، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضاً . ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد ؛ وهي حالة خروج النبات . وقد مضى هذا المعنى في ﴿ الحج ﴾^(٢) ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدم في غير موضع^(٣) .

(١) شبه الرماد بكحل العين لسواده ؛ فإنه يسود متى تقادم عهده وإصابته الأمطار . والنوي حفير حول الخيمة . والجذم الأصل . وأثلم مهدوم . وخاشع تداعت آثاره واستوى بالأرض . يريد أن ذلك الرماد تغير ولم أتبينه إلا بعد لأي ؛ أي بعد جهد ومشقة .
(٢) راجع ١٣/١٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع ٤٥/١٤ طبعة أولى أو ثانية .

- [٤٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ .
- [٤١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْزٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ .
- [٤٢] ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ .
- [٤٣] ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي يميلون عن الحق في أدلتنا والإلحاد الميل والعدول. ومنه اللحد في القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه. يقال ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل. ولحد لغة فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا: ليس القرآن من عند الله أو هو شعر أو سحر؛ فالآيات آيات القرآن. قال مجاهد: ﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصديّة واللغو والغناء. وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: ﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يكذبون في آياتنا. وقال السدي: يعاندون ويشاقون. وقال ابن زيد: يشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل. وقيل: الآيات المعجزات وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز. ﴿أَقَمَنَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ على وجهه وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره. ﴿خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي ءَامَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقي في النار الكافر، والذي يأتي آمنة يوم القيامة المؤمن. قاله ابن بحر. ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد بتهديد وتوعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الذكر هاهنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف [تقديره] ^(١) هالكون أو معذبون. وقيل: الخبر ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وأعترض قوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ ثم رجع إلى الذكر فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ﴾ والأول الاختيار؛ قال النحاس: عند النحويين جميعاً فيما علمت. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يعز ويُجَلَّ وألا يلغى فيه. وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾ من الشيطان أن يبذله؛ قال السدي. مقاتل: منع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثل له. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وفتادة: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ يعني الشيطان ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص. وقال سعيد بن جبیر: لا يأتيه التكذيب ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. ابن جريج: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون. وعن ابن عباس: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من الله تعالى ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ يريد من جبريل ﷺ ولا من محمد ﷺ. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس: ﴿حَكِيمٍ﴾ في خلقه ﴿حَمِيدٍ﴾ إليهم. فتادة: ﴿حَكِيمٍ﴾ في أمره ﴿حَمِيدٍ﴾ إلى خلقه.

قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيه ويسلِّيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد لأعدائك وجيعاً. وقيل: أي ما يقال لك من إخلاص العباد لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد؛ وهو كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَخْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿١٠﴾ أَي لَمْ تَدْعُهُمْ إِلَّا إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ جَمِيعُ
الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو أستفهام أي أَي شَيْء يُقَالُ لَكَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَا
قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴿١٢﴾. وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان
الخبر مضمراً. وقيل: هو متصل بـ ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ﴾ أي إنما أمرت بالإنذار والتبشير.

[٤٤] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيَّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغَیْبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى
أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغَیْبِيٌّ
وَعَرَبِيٌّ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا﴾ أي بلغة غير العرب ﴿لَقَالُوا
لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية. فبين أنه أنزله
بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً. وإذا
عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله. ولو كان بلسان العجم
لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان.

الثانية - وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب،
وأنه ليس أعجمياً، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنًا.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿أَغَیْبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة
والكسائي ﴿أَغَیْبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بهزتين مخففتين، والعجمي الذي ليس من العرب
كان فصيحاً أو غير فصيح. والأعجمي الذي لا يفصح كان من العرب أو من
العجم. فالأعجم ضدّ الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه. ويقال للحيوان غير
الناطق أعجم، ومنه «صلاة النهار عجماء» أي لا يجهر فيها بالقراءة فكانت
النسبة إلى الأعجم أكد، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون

فصيحاً بالعربية، والعربي قد يكون غير فصيح فالنسبة إلى الأعجمي أكد في البيان. والمعنى أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ وهو أستفهام إنكار. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر ﴿أَعْجَمِي﴾ بهمزة واحدة على الخبر. والمعنى ﴿لَوْلَا فَضَّلْتُ آيَاتُهُ﴾. فكان منها عربي يفهمه العرب وأعجمي يفهمه العجم. وروى سعيد بن جبير قال قالت قريش: لولا أنزل القرآن أعجمياً وعربياً فيكون بعض آياته عجمياً وبعض آياته عربياً فنزلت الآية. وأنزل في القرآن من كل لغة فمناه ﴿السَّجِيل﴾ وهي فارسية وأصلها سنك كيل أي طين وحجر، ومنه ﴿الفردوس﴾ رومية وكذلك ﴿القِسْطَاس﴾ وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام إلا أنهم لينوا الهمزة على أصولهم. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي صمم عن سماع القرآن، ولهذا تواصلوا باللغو فيه. ونظير هذه الآية ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. وقد مضى مستوفى^(١). وقراءة العامة ﴿عَمَى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قتة ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٌ﴾ بكسر الميم أي لا يتبين لهم. وأختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أولاً: ﴿هُدًى وَشِفَاءً﴾ ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر في ﴿عَمَى﴾ أجود؛ ليكون نعتاً مثلهما؛ تقديره: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم ﴿وَقْرٌ وَهُوَ﴾ يعني القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ذو عمى؛ لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى والوقر عليهم عمى. ﴿أَوَلَيْكَ يَتَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تنادى من بعيد. أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء

ولا يفهمه. وقال الضحاك: ﴿يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة بأقبح أسمائهم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم. وقيل: أي من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي رضي الله عنه ومجاهد: أي بعيد من قلوبهم. وفي «التفسير»: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش.

[٤٥] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.

[٤٦] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي آمن به قوم وكذب به قوم. والكناية ترجع إلى الكتاب، وهو تسلية للنبي ﷺ، أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي في إمهالهم. ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بتعجيل العذاب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي شديد الريبة. وقد تقدم^(١). وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم. وقيل: تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره، وإذا أنتفت المبالغة أتنفى غيرها؛ دليله قوله الحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ وروى العدول الثقات،

والأئمة الأئمة، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جلّ جلاله: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا» الحديث. وأيضاً فهو الحكيم المالك، وما يفعله المالك في ملكه لا أعترض عليه؛ إذ له التصرف في ملكه بما يريد.

[٤٧] ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعَدَّنَا مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ۖ﴾ (١٧).

[٤٨] ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ۚ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فخبّرنا متى قيام الساعة فنزلت: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ «من» زائدة أي وما تخرج ثمرة. «مِنْ أَكْمَامِهَا» أي من أوعيتها، فالأكمام أوعية الثمرة، واحداً كُمةً وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمي قشر الطلع أعني كُفْرَاهُ الذي ينشق عن الثمرة كُمة؛ قال ابن عباس: الكُمة الكُفْرَى قبل أن تنشق، فإذا أنشقت فليست بكُمة. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن»^(١). وقرأ نافع وأبن عامر وحفص «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباكون «ثَمَرَةً» على التوحيد والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ والمراد الجمع، يقول: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ كما يرد إليه علم الثمار والنتاج. «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ» أي ينادي الله المشركين «أَيْنَ شُرَكَائِيَ» الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهة تشفع. «قَالُوا» يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويحتمل أن يريدهم جميعاً العابد والمعبود «أَعَدَّنَا» أسمعناك وأعلمناك. يقال آذن يؤذن إذا أعلم قال^(٢):

أَدْنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

(١) في تفسير قوله تعالى: «والنخل ذات الأكمام» آية ١١.

(٢) هو الحرث بن حنظلة، والبيت مطلع معلقته.

﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً. لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدّم في غير موضع ^(١). ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَوُظُّوا﴾ أي أيقنوا وعلموا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ﴾ أي فرار عن النار. و ﴿مَا﴾ هنا حرف وليس بأسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يحيص حيصاً ومحيصاً إذا هرب. وقيل: إن الظنّ هنا الذي هو أغلب الرأي. لا يشكون في أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا.

[٤٩] ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقُنَّ قُنُوطٌ﴾.

[٥٠] ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِمْتُ إِلَى رَيْفٍ إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

[٥١] ﴿وَإِذَا أْتَمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَقَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي لا يملّ من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز. قال السدي: والإنسان هاهنا يراد به الكافر. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة أبنا ربيعة وأمّية بن خلف. وفي قراءة عبد الله ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ﴾. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيُؤُسُّ﴾ من روح الله ﴿قُنُوطٌ﴾ من رحمته. وقيل: ﴿يُؤُسُّ﴾ من إجابة الدعاء ﴿قُنُوطٌ﴾ بسوء الظنّ بربه. وقيل: ﴿يُؤُسُّ﴾ أي يش من زوال ما به من المكروه ﴿قُنُوطٌ﴾ أي يظنّ أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ عافية ورخاء وغنى ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبين شكره وصبره. وقال ابن عباس: ﴿هَذَا لِي﴾ أي هذا من عندي. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة واللام للتأكيد. يتمنى الأمانى بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمانتان أما في الدنيا فيقول: ﴿لَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بَيِّنَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ و ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾. ﴿فَلَنَنْبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي لنجزينهم. قسم أقسم الله عليه. ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ يريد الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ وقال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمّية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه. ومعنى ﴿نَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي ترفع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل ﴿نَأَىٰ﴾ تباعد. يقال: نأيت عنه نأياً بمعنى تباعدت عنه وأنأيت فأنأى أبعدته فبعد، وتناؤوا تباعدوا والمتناؤى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

فإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعٌ

وقرأ يزيد بن القعقاع و ﴿نَاءَ بِجَانِبِهِ﴾ بالألف قبل الهمزة. فيجوز أن يكون من ﴿نَاءَ﴾ إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء إذا أكثر. وقال ابن عباس: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ فذو تضرع وأستغاثه. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء.

[٥٢] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

[٥٣] ﴿سَرَّيْهِمْ أَبْنَتَانِي فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

[٥٤] ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيتٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ﴾ أي فأَي الناس أضل أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم. وقيل: قوله ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ والأول أظهر وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ يعني خراب منازل الأمم الخالية ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراض. وقال ابن زيد: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ آيات السماء ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حوادث الأرض. وقال مجاهد: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ فتح القرى؛ فيسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فتح مكة. وهذا اختيار الطبري. وقال المنهال بن عمرو والسدي. وقال قتادة والضحاك: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ وقائع الله في الأمم ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضاً ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات

والأشجار والجبال والبحار وغيرها. وفي «الصحيح»: الآفاق النواحي، واحداها أفقٌ وأفقٌ مثل عُسرٍ وعُسُرٍ، ورجل أفقيّ بفتح الهمزة والفاء إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أفقيّ بضمهما وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالْجُومُ الطَّوَالِغُ

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه. وقيل: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من كونهم نطفاً إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدّم في «المؤمنون»^(١) بيانه. وقيل: المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها - أنه القرآن. والثاني - الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه. والثالث - أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع - أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل بـ ﴿يَكْفِي﴾ و ﴿أَنَّهُ﴾ بدل من ﴿رَبِّكَ﴾ فهو رفع إن قدرته بدلاً على الموضع، وجر إن قدرته بدلاً على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى أو لم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وإذا شهد جازى عليه. وقيل: المعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار. وقيل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهداً على أن القرآن من عند الله. وقيل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يفعله العبد ﴿شَهِيدٌ﴾ والشهيد بمعنى العالم، أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي من البعث. ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء.

قاله السدي . وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء . وقال الخطابي : هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه ، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . وهذا الاسم أكثر ما يجيء في معرض الوعيد ، وحقيقته الإحاطة بكل شيء ، وأستئصال المحاط به ، وأصله مُحِيطٌ نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحیطة ومن ذلك حائط الدار ، يحوطها أهلها ، وأحاطت الخيل بفلان إذا أخذ مأخذاً حاصراً من كل جهة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَحِيط بِشَمْرِهِ ﴾ والله أعلم بصواب ذلك .

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس عشر ، وأوله :
«سورة الشورى»

فهرس الجزء الخامس عشر

تفسير سورة يس

- القول بمكيثها. الترغيب في تلاوتها على الموتى. الأحاديث الواردة في فضل قراءتها واستماعها ١/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿يس﴾ والقرآن الحكيم ... ﴿الآيات. بيان أوجه القراءات في ﴿يس﴾ وتفسيرها ٣/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ...﴾ الآية. سبب نزولها. فضل المشي إلى المساجد ١١/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وأضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ...﴾ الآية. القرية هي أنطاكية. ما حكاه المفسرون في قصة أصحابها ١٣/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ...﴾ الآية. بيان منازل الشمس ٢٥/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل ...﴾ الآية. بيان منازل القمر ٢٩/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرّيتهم في الفلك المشحون ...﴾ الآية. الفلك سفينة نوح أو المراد الجنس ٣٤/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور ...﴾ الآية. الكلام على عدد النفخ ومعنى الصور ٣٩/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ...﴾ الآية. الأقوال في شغل أهل الجنة ٤٣/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم ...﴾ الآية. الأحاديث الواردة في شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة ٤٨/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر ...﴾ الآية. الرد على من قال من الكفار إن النبي ﷺ شاعر. إصابته الوزن لا يوجب أنه يعلم الشعر ٥١/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ...﴾ الآية .. ٥٥/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وأضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ...﴾ الآية. دلالتها على صحة

- القياس وأن في العظام حياة، وأنها تنجس بالموت ٥٨/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً...﴾ الآيات ٥٩/١٥

تفسير سورة الصافات

- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا...﴾ الآيات. الكلام على قذف الشياطين بالشهب. هل كان القذف قبل مبعث النبي ﷺ أو بعده لأجل المبعث. كيفية استراق الشياطين السمع ٦١/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَهُمْ أَهْمَ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مِنْ خَلْقِنَا...﴾ الآيات ٦٨/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ...﴾ الآيات ٧٢/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنْتَ لَتَارَكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ...﴾ الآيات ٧٦/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ...﴾ الآيات ٨١/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ...﴾ الآيات. معنى النزول في اللغة واشتقاقه. شجرة الزقوم واشتقاقها وما قيل فيها ٨٥/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ...﴾ الآيات. هل الناس كلهم من ولد نوح أم كان لغيره نسل ؟ ٨٩/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ...﴾ الآيات. الكلام على نظر سيدنا إبراهيم عليه السلام في النجوم. اختلافهم في سقمه هل كان حقيقة، أو تورية وتعريضاً. كان أول من هاجر من بلده إلى حيث يتمكن من عبادة ربه. طلبه الولد الصالح ٩١/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ...﴾ الآيات. اختلاف العلماء في المأمور بذبحه. رؤيا الأنبياء وحي. في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ...﴾ دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل. وأيما أفضل الأضحية أو الصدقة بشمنها. وهل هي سنة أو واجبة. ما يضحي به الأزواج الثمانية. ماذا يتقي من الضحايا. حكم من نذر ذبح ابنه ٩٨/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ...﴾ الآيات ١١٤/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآيات. قصة إلياس ولوط عليهما السلام ١١٥/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآيات. يونس هو ذو النون. ما حكى في قصته عليه السلام. حكم القرعة في الشرع. الاقتراع على إلقاء الأدمي في البحر لا يجوز. محامل «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزِيدُونَ...﴾ ١٢١/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَهُمُ الرُّبُكُ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَنُونَ...﴾ الآيات ١٣٣/١٥

- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنكُم مَّا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ...﴾ الآيات. فيها ردّ
على القدرة ١٣٥/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ الآيات. معنى:
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ...﴾ ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾. وفضل قول هذه الآيات في ختام المجلس ١٤٠/١٥

تفسير سورة ص

- تفسير قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآن ذِي الذِّكْرِ...﴾ الآيات. القراءات في ﴿ص﴾ وأقوال
العلماء في معناها. معنى ﴿ولات حين مناص﴾ وإعرابها ١٤٢/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾ الآيات. سبب نزولها إلى قوله
تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ ١٤٩/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ الآيات ١٥٤/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ...﴾ الآية. معنى تسبيح الجبال
والطير. صلاة الإشراق هي صلاة الضحى. حكم صلاة الضحى. أجر من صلاها ١٥٩/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةٌ...﴾ الآيات. الكلام على معنى ﴿وَأَتَيْنَاهُ
الحكمة وفصل الخطاب﴾. علم القضاء نوع من العلم غير المعرفة بالأحكام ١٦١/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ...﴾ الآيات. قصة داود عليه السلام مع
الملكين اللذين تسورا عليه المحراب وسبب محنته. ليس على الحاكم أن يجلس
للفصل كل يوم. لا يقضي القاضي حتى يسمع حجة كل واحد من الخصمين حكم
القضاء في المساجد. كان الخلفاء يقضون بأنفسهم، وأول من استقضى معاوية.
اختلاف العلماء في سجدة ﴿ص﴾ ١٦٤/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية. هي أصل في
الأفضية. الحكم بين الناس بالعدل واجب. الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه .. ١٨٨/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا...﴾ الآيات ١٩١/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ...﴾ الآيات. حكم سباق الخيل ١٩٢/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾ الآيات. ما حكى في سبب فتنة سليمان
عليه السلام. صفة كرسيه ١٩٨/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ...﴾ الآيات. ما قيل في سبب بلاء أيوب
عليه السلام، وما أصابه من البلاء ومدته ٢٠٧/١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَخُذْ يَدَكُ مَضْمُونًا...﴾ الآية. حلف أيوب وسببه. دلالة الآية على
جواز ضرب الرجل امرأته نادياً. اختلاف العلماء في هذا الحكم، هل هو عام أو
خاص بأيوب. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ دليل على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع

- حكمها إذا كان متراخياً. قوله تعالى: ﴿اركض برجلك﴾ لا يدل على جواز الرقص
 ٢١٢/١٥ خلافاً للجهة المتصوفة
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ الآيات ٢١٧/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ...﴾ الآيات ٢١٨/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ...﴾ الآيات ٢٢٠/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالاً...﴾ الآيات ٢٢٤/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ...﴾ الآيات ٢٢٥/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا...﴾ الآيات ٢٢٧/١٥

تفسير سورة الزمر

- تفسير قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ...﴾ الآيات في قوله تعالى:
 ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا...﴾ دليل على وجوب النية في كل عمل خلافاً للحنفية في
 ٢٣٢/١٥ الوضوء
- تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ بِالْحَقِّ...﴾ الآيات ٢٣٤/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ...﴾ الآيات ٢٣٧/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ
 اللَّهِ وَاسِعَةٌ...﴾ أمر بالهجرة من مكة، ومن الأرض الغالية إلى الأرض الراحية .. ٢٤٠/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا...﴾ الآيات ٢٤٢/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ الآية ٢٤٥/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾ الآية. أحسن الحديث القرآن. كان
 أصحاب النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن تقشعر جلودهم ٢٤٨/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾ الآيات ٢٥١/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ...﴾ الآيات ٢٥٥/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات ٢٥٨/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ الآية. النوم أخو الموت.
 اختلاف الناس في النفس والروح. ما يقوله الإنسان إذا أراد أن ينام، وإذا استيقظ ٢٦٠/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَاءَ...﴾ الآيات ٢٦٣/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات ٢٦٤/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا...﴾ الآيات ٢٦٦/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآيات. سبب

- نزولها ٢٦٧/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ...﴾ ٢٧٣/١٥
- الآيات ٢٧٧/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآيات ٢٨٣/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ الآيات ٢٨٣/١٥

تفسير سورة غافر

- القول بمكيّتها إلا آيتين. عدد آياتها، فضل الحواميم. كيفية جمعها ٢٨٨/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَّ * تنزيل الكتاب من الله...﴾ الآيات. الأقوال في معنى ﴿حَمَّ﴾ ٢٨٩/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ الآيات ٢٩٢/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون...﴾ الآيات ٢٩٦/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يريكم آياته...﴾ الآيات ٢٩٨/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ...﴾ الآيات ٣٠١/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا...﴾ الآيات ٣٠٤/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية. الكلام على مؤمن آل فرعون. الإنسان لا يكون مؤمناً بقلبه حتى يتلفظ بلسانه. دفاع أبي بكر عن النبي ﷺ ٣٠٦/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ...﴾ الآيات ٣٠٩/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ...﴾ الآيات ٣١٢/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ...﴾ الآيات ٣٢٠/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ الآيات ٣٢٢/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ الآيات ٣٢٦/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيات ٣٢٩/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات ٣٣٥/١٥

تفسير سورة فصلت

- تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَّ * تنزيل من الرحمن الرحيم...﴾ الآيات. ما روي من سماع عتبة بن ربيعة سورة ﴿فُصِّلَتْ﴾ إلى قوله: ﴿مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾ وإنذاره قومه ٣٣٧/١٥

- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ الآيات. ٣٤٢/١٥ خلق السموات والأرض في ستة أيام
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ...﴾ الآيات ٣٤٩/١٥ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ الآيات. سبب نزولها ٣٥٧/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ...﴾ الآيات. اختلافهم في موضع السجود من آية السجدة. الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ٣٦٣/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا...﴾ الآيات. الكلام على أن القرآن عربي، وأنه إذا نقل عنه إلى غيره لم يكن قرآنًا ٣٦٦/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ...﴾ الآيات ٣٧٠/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ...﴾ الآيات ٣٧٢/١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ...﴾ الآيات ٣٧٤/١٥

□□□

الجامع للأحكام القرآن

للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس عشر

جميع الحقوق محفوظة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م



دَارُ الْعِلْمِ وَالْكِتَابِ

للطباعة والنشر والتوزيع

العليا - غرب مؤسسة البحثية

ن : ٤٦٥١٢٨٩ - ٤٦٣١٧٢٢

ص : ب. ٦٤٦٠ - الرياض : ١١٤٤٢

تليفاكس : ٤٦٣١٢٣٦

المملكة العربية السعودية